هو العزيز

معرفة الإمام (1)

بحوثٌ تفسيريّةٌ ، فلسفيّةٌ ، روآئيّةٌ ، تاريخيّةٌ ، اجتماعيّةٌ

حَوْلَ الإمامةِ و الولايَةِ عُمُوماً؛

و حَوْلَ إمامةِ و ولايةِ أميرالمؤمنين علىّ بن أبيطالبٍ و الأَئِمّةِ المعصومينَ سلامُ الله عليهم أجمعين خصوصاً

دُروسٌ إستِدلاليّةٌ و علميّةٌ مُتّخَذةٌ من القرءانِ الكريم و رواياتٌ مأْثورةٌ عن الخاصّةِ و العامّةِ ؛ و أَبحاثٌ حَلّيّةٌ و نَقدِيّةٌ حَوْلَ الوِلايَةِ

لمؤلّفه الحقير:

السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ عُفِيَ عنه

مقدمه

بسم الله الرّحمن الرّحيم

حمداً أزليّاً و ثناءً لا ينفد و لا يتناهى مختصّاً بالله عزّوجلّ ، الذي أوجد بحكمته البالغة عالم الخلقة من كَتْمِ العدم ، و خلع عليه رداء الوجود ، و اختار بني ءادم من بين تلك العوالم بجامعيّة منطق العقل و الإحساس ، فشرّفهم لذلك بشرف التكليف و المسؤوليّة و الإلتزام .

وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ وَ حَمَلْنَهُمْ فِى الْبَرّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَهُم مّنَ الطّيّبَتِ وَ فَضّلْنَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مّمّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا .

و سلاماً لا حدّ له ، و تحيّةً و إكراماً لا حصر له ، لقادة تربية البشريّة الذين جعلوا . بنشرهم لواء الحمد الإلهيّ . النورَ الساطع للإيمان و الإيقان متجلّياً في قلوب أفراد البشر ، و الذين أشعلوا في كيان الأرواح مشعل التوحيد و الولاية ، ليمكّنوا البشرَ صاحب النفس الهيولانيّة و القوة و القابليّة غير المحدودة في طريق التمكين بالحقّ . و خاصّةً خاتم النبيّين مُحَمّد بن عَبْدِالله و وصيّه الكريم سيّد الوصيّين عَليّ بن أَبي طالب صلوات الله عليهما ، حاملا لواء الحمد و حائزا مقام الشفاعة الكبرى ، والأئمّة المعصومين ، لا سيّما بقيّة الله في الأرضين الحُجّة بن الحسن العسكري عجّل الله تعالى فرجه الشريف ، الذين كانوا المظهر التام للأسماء الالهيّة : الجماليّة و الجلاليّة ، و الأيات الكاملة لأنوار الأحديّة و الواحديّة ، و المرايا الكبرى للحقّ ، و الخلفاء العينيّين للباري تعالى شأنُه العزيز ، وواسطة فيض و إشراق النور الأزلي على هياكل الوجود و ماهيّات الإمكانية .

اولئك الذين كانوا في الولاية التكوينيّة مرءاةً تامّة للجمال الالهي والجلال الأزلي ، و اللؤلؤ المنير المفيض لنور الأحدية على عالم ما سواهم ؛ و في الولاية التشريعيّة باب الشريعة و منهلَ الإلهام ، و الأخذَ للأحكام من مصدر التشريع و الحقائق .

و باعتبار انّ مسألة الإمامة و الولاية من أهمّ المسائل الحياتيّة ؛ وباعتبار ان جميع جهات القابليّات الإنسانيّة ستقوى و تنمو . بمعرفة هذه الحقيقة . في مدارج الكمال و معارجه ، بينما سيسبّب الجهل بهذه الحقائق و عدم اتّباعها حرفَ القابليّات و الإمكانات و جعلها تنصبّ في مسير الإنحراف ، و في اضمحلالها في المستنقعات العفنة للماديّات و الشهوات .

لذا فقد منّ الله تبارك و تعالى على هذا الحقير ، ليقوم في ايّام شهر رمضان المبارك لسنة ألف و ثلاثمائة و واحد و تسعين هجريّة قمريّة ببحث و مناقشة مسألة الإمامة و الولاية مع جمع من الأخلّاء الروحيّين والإخوة الإيمانيين .

و قد تقرّر ان يكون مبنى البحث قائماً على الأيات القرءانيّة . ولأهميّة الموضوع بالنسبة للاخوة من أهل السنّة ، فقد تقرّر الاستفادة من فنّ الجدل ، و النقل من روايات و تواريخ العامّة ، مع الاستفادة إجمالاً من روايات الخاصّة كذلك .

و كان متصوّراً انّنا سنستطيع انهاء دورة كاملة من هذا البحث في شهر رمضان المبارك ، الّا انّ الشهر قد تصرّم ، و لم يجرِ بيان أكثر من سُدس ممّا كان في النيّة بيانه ، بالرغم من انّه قد جرى كلّ يوم الكلام و البحث الوافي في الأمر .

و كان من الألطاف السنيّة للخالق اللطيف انّ التوفيق قد شملني في نفس شهر رمضان ، لأقوم في المنزل بكتابة و جمع مذاكرات البحث .

ثم انقضت سنواتٌ أربع على هذا الأمر حُرمتُ خلالها من جمع مسائل الإمامة . بشكل منّظم و مرتّب طبعاً . حتّى شملتني من جديد الألطاف الخفيّة لله عزّوجل في شهر رمضان المبارك لسنة ألف و ثلاثمائة و خمس و تسعين ، فاستأنفنا البحث السابق في أيام الشهر مع الأعزاء الإيمانيّين و الإخوة الروحانيّين ، فتمّ الى نهاية الشهر مناقشة و تدوين سُدس ءاخر من البحوث ، فصار مجموع ما جرى بحثه و كتابته في شهري رمضان هذين ثُلث ما في نظرنا .

و ها نحن نقدّم مجموع هذه الكتابات التي جُمعت في مجلدّات أربعة لمطالعة أصحاب النظر و البصيرة .

و الأمل أن يوفّقنا اللهُ جلّت أسماؤه لبحث و تحرير باقي الأبحاث ، بمحمّدٍ و ءاله الطّاهرين . و سيكون تمام هذه الأبحاث في حدود اثني عشر مجلّداً تشكلّ قسم «معرفة الإمام» من دورة العلوم و المعارف الإسلاميّة ، حيث سيتمّ تدوينها و تحريرها في هيئّة دروس سيكون مجموعها في حدود مائة و ثمانين درساً .

و باعتبار أنّ هذه الدروس ستكون في خصائص الإمام و شروط القيادة و الزعامة و الحكومة ، و في لزوم العصمة للأئمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين ؛ فانّه سيجزى البحث و المناقشة . ضمناً . في شرائط النبوّة ولزوم العصمة و ءاثار و خواصّ الأنبياء أيضاً . و في الحقيقة فانّ هذا البحث بحث كامل و شامل يشمل أيضاً البحث في النبوّة العامّة و يُغنينا عن ايراد بحث مستقلّ لها .

نشكر الله سبحانه الذي منّ علينا بهذه الموهبة لنسعى في هذه البحوث قدر الوسع ، و في حدود ظرفيّة الحقير البسيطة ، و لنقدّم مجّاناً ماجاء في الأبحاث و المطالعات و الدراسات و المذاكرات في طبق اخلاص ، فنضعه في مرأى و منظر من اخوتي و نظرائي في الإنسانية .

فَلِله الْحَمْدُ وَ لَهُ الشّكرُ و ءاخِرُ دَعْوَانَا أن الْحَمْدُ لِلهِ رَبّ الْعَالَمِينَ ؛ وَصَلّى اللهُ عَلَى مُحَمّدٍ وَ ءاله الطّاهِرين .

السيّد محمّد الحُسين الحسينّي الطهرانيّ

السيّد محمّد الحُسين الحسينّي الطهرانيّ

الدرس الأول : عصمة الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

كَانَ النّاسُ أُمّةً وَ حِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النّبِيّنَ مُبَشّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَبَ بِالْحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلّا الّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيّنَتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ إِلَى صِرَ طٍ مُسْتَقِيمٍ . (1)

أساس الاختلاف بين الشيعة والسنّة:

انّ أساس الاختلاف بين الشيعة و السنّة ينحصر في مسألة الولاية ، فالشيعة يقولون انّ الامام يجب أن يكون معصوماً و مُنصّباً من قبل الله سبحانه و تعالى ، بينما يقول السنّة انّ العصمة ليست من شرائط الإمام ، وأنّ الناس بإمكانهم أن يختاروا إماماً لهم فيتّبعوه .

أمّا بقيّة المسائل المُختلف عليها بين هذين الفريقين فمتفرّعة بأجمعها عن ذلك الأصل و تابعة له ؛ لأنّ أرضيّة الاختلاف في الأساس والاصل لابدّ و أن تؤدّي الى اختلافات كثيرة في الفروع ، امّا لو انتفى الاختلاف في الأساس ، فاتّحد هذان الفريقان في المرام و المذهب ، فانّ الاختلافات في الفروع ستنتفي بدورها و تتبع الأصل في الوحدة .

و سنناقش هذه الأيّام بعون الله و بالاستعانة بأرواح الطيّبين و أولياء الله أساس هذه المسألة ، و سنبيّن شرائط الإمام من خلال كتاب الله والنصّوص الصريحة التي و ردت عن رسول الله صلى الله عليه و ءاله ، بِحَوْلِ اللهِ وَ قُوّتِهِ وَ لَا حَوْلَ وَ لَا قُوّةَ إِلّا بِاللهِ الْعلِيّ الْعظِيم . و سنذكر شاهداً و مثالاً كمقدّمة من أجل توضيح هذا المعنى قبل الاستدلال بالأية التي وردت في مطلع البحث .

الإمام بمنزلة القلب في جسم الإنسان:

هناك في جسم الإنسان أجهزة متنوّعة و مختلفة يؤدّي كلّ منها وظيفةً خاصّة ، فالعين وظيفتها النظر ، و الأذن وظيفتها السّمع ، و الأنف للتنفّس و الشمّ ، و اللسان للتذوّق و الكلام ، و اليد للأخذ و العطاء ، و الرجل للمشي ؛ و كلّ هذه الأعضاء تسعى دائبةً لتنفيذ وظيفتها ، الاّ انّها . من وجهة نظر الحياة الماديّة . تستمدّ قوّتها من القلب .

ثمّ انّ القلب يضخّ الدم الى جميع أعضاء الجسم و جوارحه ، فيمدّها في كلّ لحظة بحياةٍ جديدة ، و يبقيها . بهذا العمل . في نشاط مستمرّ و حياة دائمة . و لو حدث أن توقّف القلب للحظة واحدة و تخلّى عن مسؤوليّته ، لأُصيبت تلك الأعضاء و الجوارح الحيّة و النشيطة بالموت و الفناء و لتعطّل دورها ، فتفقد العينُ رؤيتَهَا ، و الأذنُ سمعَها ، و اليدُ حركتها ، كما تُشلّ الرّجلُ و تفقد الإحساس .

و بناءً على هذا فانّ فائدة القلب هي الإشراف و الزعامة و إيصال الحياة الى كافّة أعضاء الجسم التي تخضع لإشرافه ، و لا يمكن لأحد ان يُنكر حاجتنا للقلب بحجّة انّ القلب لا يعمل شيئاً لأنّه لا يرى و لا يسمع ولا يتكّلم و لا يكتب و لا ... و لا ... .

و بحجّة انّ لنا عيناً نرى بها ، و أذناً نسمع بها ، و لساناً نتكلّم به ، و يداً نكتب بها . فهذا الكلام خاطئ و لا محلّ له ، لأن العين و الأذن و اللسان ميّتة بدون القلب لا دور لها و لا عمل ، و انّما وجد ذلك الإبصار في العين ، والسمع في الأذن بسبب قوّة القلب .

انّ العين تتعرّض في كلّ لحظة لألاف الأفات و حالات الفساد الخارجيّة ، و الأمر كذلك بالنسبة للأذن و لسائر الأعضاء الأخرى ، لكنّ القلب لا يَفتُر لحظةً عن المراقبة و الدفاع و إيصال الدم كطعام و دواء من أجل دفع الاعتداءات الخارجيّة و موجبات الفساد الأخرى و الميكروبات المهلكة . لذا فانّ العين و الأذن تعيشان تحت ولاية و سلطان القلب الذي يمثّل الجهاز المنظّم لعمل تلك القوى ، و الذي يمدّ سائر أعضاء الجسم بالحياة .

امّا من الناحية المعنوية ، فانّ المخّ هو الذي ينظّم عمل هذه القوى والأعضاء ، فالعين ترى فقط ، اي انّه اثر انعكاس النور فانّ صورةً للشئ المرئي ستنعكس في شبكيّتها ، امّا ماهيّة هذا الصورة و ما الذي سنفعله بها ؟ فانّ ذلك ليس من وظيفة العين ، بل من وظيفة المخّ الذي يأخذ هذه الصورة و يدقّق فيها و يهيّؤها لإستفادة الانسان .

لذا فانّ الذين يتعاطون الخمور فيثملون ، او الذين يُصيبهم الإغماء او الجنون ، لم يحصل في أعينهم نقصٌ ما ، بل انّ عيونهم سليمة تعمل بوظيفتها جيداً في عكس الأشعة و إظهار الصورة المرئيّة ، لكنّ جهاز المخّ و الفكر صارا لا يعملان بوظيفتهما المعتادة ، لأنّ مجموعة الأعصاب التي تنقل الصورة الى المخّ قد تعطّلت عن عملها بوظيفتها ، فصارت سلسلة الأعصاب توصل هذه الصورة الى المخّ فلا يستطيع تمييزها و الإفادة منها في محلّها .

لذا نشاهد انّ الشخص الثمل لا يُميّز بين أخته و أمّه و زوجته ، فيحاول الإعتداء عليهنّ ، أو أنّه يتحرّك في معبرٍ عامّ عارياً ، فلا يمكنه ان يشخصّ انّ صورة المعبر التي كانت محفوظةً في قواه الذهنيّة سابقاً مُطابقة لصورة هذا المعبر أم لا كي يحكم بعدم جواز الحركة في هذا المعبر عارياً .

و هذا الثمل السكران يهذي و يصيح بصوت عال ، و يعمل اعمالاً مُستهجنة أمام الأخرين ، و لا يأبى أكل الخبائث ، و لا يُبالي بارتكاب الجنايات ، بالرغم من أنّ قواه السمعيّة و الذوقيّة و الشميّة تعمل بوظيفتها . و ذلك لأنّ جهاز المخّ المنظّم و المراقب لا يعمل بوظيفته في هذه الحالة لأنه قد تعطّل . لذا فانّه لن يعجز فقط عن الرؤية و تمييز الأشياء ، أو أن يسمع بأذنه و يعمل بيده ، بل انّه سيصرف هذه القوى في إهلاك نفسه وإفسادها ، و سيقطع بيده أغصان حياته و يستئصل جذورها .

و بناءً على هذا فانّ وجود جهاز المخّ في الجسم أمر حيويّ من أجل استخدام هذه الأعضاء و الجوارح و إعمال كلّ منها في مواقع الحاجة ، ولتطبيق الصور الحاصلة مع الصور المحفوظة سابقاً في الذاكرة و الأحكام الصحيحة المترتّبة عليها ، و لذلك نرى أنّ المجنون الذي فقد قواه العقليّة لا يترتّب على رؤيته و قوله و فعله أيّ نتيجة صحيحة .

و لو تركنا الإنسان جانباً فاننا سنجد في الحيوان كذلك قلباً و مخّاً لا يستطيع أيّ حيوان بدونهما الاستمرار في الحياة و في أداء وظائفه و لو كان ذا خليّةٍ واحدة .

و الأمر كذلك في الجمادات أيضاً ، فإنّ الشي الذي يرسم لها وحدتها و يجعلها تحت خاصيّة و كيفيّة واحدة هو الروح و النفس الواحدة التي كانت جارية فيها قبلاً . و لذا فانّها تمتلك خاصيّة واحدة و يُشاهد عنها ءاثار واحدة . و قد جرت الاستفادة من هذا الأمر في التقنية و صناعة السيارات ، فاستطاعوا . بإيجاد ءالات منظّمة و معدّلة . تنظيمَ حركة العجلات والمحرّكات .

اننا حين نريد ملء الساعة و نصبها ، فانّ ضغط النابض سيكون قوّياً في البدء ، و سيحاول تحريك العجلات المسنّنة بسرعة ، امّا حين يرتخي النابض و يقلّ ضغطه ، فانّه سيحاول تحريك تلك العجلات ببطء . و لهذا السبب فقد وضعوا في الساعة جهازاً بإسم (البندول أو الرقّاص) ليقوم بتنظيم الحركة ، بحيث تتحرّك الساعة في كلّ الأحوال على منوال واحد ، سواءً كان ضغط النابض قويّاً أو ضعيفاً ، فتنظّم الوقت بشكل صحيح .

كما انّ الماكنات البخارية المستعملة في المعامل الكبيرة اذا خلت من المنظّم فانّها ستتحطّم بأجمعها ، لأنّ قِدر البخار سيولّد عند غليانه كميّات ضخمة من البخار اذا ما اندفعت خلف المكابس فانّ الألات ستدور ءانذاك بسرعة هائلة فتؤدّي الى تحطّم الماكنة . امّا حين تنخفض الحرارة في قِدر البُخار فانّ من الممكن ان تنخفض السرعة تبعاً لذلك . و لذلك يوضع في هذه الألات منظّم للضغط«~ (pressure Regulator) ~» لينظّم وصول كميّات البخار الى المكابس ، و لا يسمح بوصول الفائض من البخار الى المحرّكات ، بل يقوم بخزنه في مخزن الذخيرة ليفيد منه عند انخفاض ضغط البخار ، فيرسله ءانذاك مع البخار المولّد ، و بذلك تتحرّك المحرّكات بشكل منظّم و هادئ دائماً في السرعة الخاصة المطلوبة .

و يحتاج المجتمع البشري من أجل تغيير القوى و تنظيم الأمور ورفع الإختلافات بين الناس و منع التعدّيات على حقوق الفرد و المجتمع ، ولهداية جميع الأفراد الى مقصد الكمال و الهدف من الخلقة و نيل المُنى من جميع القوى و الكنوز الالهيّة ، الى منظّم صحيح ، و إلّا لهلك المجتمع ولما استطاع أن يستفيد من كنوز الحياة .

ضرورة وجود الإمام المعصوم في المجتمع :

انّ الإمام هو المنظّم لعالم الإنسانيّة و المجتمع ، لذا يتحتّم أن يكون ذا قوىً متينة و أفكار صائبة و ءاراء قادرة ، ليكون مشرفاً على أعمال الأمة وأفعالها ، و ليسوسها بالتنظيم و العدل .

و تسأل هنا : أيستطيع الإمام . ترى . أن يُصلح المجتمع اذا كان نفسه يُخطىء و يُبتلى بالمعصية والإثم شأنه شأن أفراد المجتمع الأخرين ، أو إذا كان مثلهم مُصاباً بالهوس و الشهوة ؟

أوَ يمكنه ءانذاك أن يرفع الإختلاف فيما بينهم ، فيُعطي كلّ ذي حقّ حقّه ، و يقف في وجه الإعتداءات ، و يمنح العيش لجميع أفراد المجتمع ، و يعلّمهم المعارف و الحقائق حسب استعدادهم و حاجتهم ، و يُبيّن لهم موارد الخطأ و الزلل في سلوكهم الى الله و وصولهم الى مقصد الكمال ؟

كلاّ و حاشا !

و على هذا فانّ قائد المجتمع و زعيم الناس و إمامهم يجب أن يكون معصوماً عن الإثم و عارياً عن أي خطأ و زلل ، كما ينبغي أن يكون ناظراً الى الأحوال و الأفعال و الخواطر القلبيّة لكلّ واحد من أفراد الأمّة بفكرٍ عميق متّسع ، و صدرٍ منشرح بنور الله ، و قلبٍ مُنّور بالتأييدات الغيبيّة .

على انّ بعض العامّة يقول بعصمة الأنبياء ، و بعضهم يقول بمرتبة ضعيفة من عصمتهم ، بينما ينكر البعض الأخر العصمة فيهم ، فلا يعتبرهم مصونين بأيّ وجه عن الأخطاء و المعاصي . الّا انّ الشيعة عموماً يشترطون العصمة للأنبياء بجميع معانيها ، كما يقولون بالعصمة للأئمّة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

عصمة الأنبياء على ثلاث مراحل :

و سنتحدّث في اثباتنا لهذا الموضوع عن عصمة الأنبياء ، فنثبتها من القرءان الكريم ، ثم نتحدث عن الأئمّة عليهم السلام .

امّا بشأن الأنبياء فنقول : انّ العصمة مورد البحث في ثلاثة موضوعات :

1 . في موضوع تَلَقّي الوحي ، اي انّ قلب النبيّ يجب ان يكون منزّهاً عن الخطأ عند نزول الوحي ، فيتلقّى ذلك الوحي كما نزل ، لا يزيد في التلقّي عليه و لا يُنقِص ، و لا يجلّي في نفسه ذلك الوحي الّا في حقيقته الواقعة .

2 . في موضوع تبليغ الوحي : اي انّ على النبيّ أن يبلّغ الوحي كما أخذه ، دون أن يُخطئ أو ينسى فيما أُوحي اليه ، و دون أن يزيد أو ينقص في أدائه للوحي شيئاً على صورته الحقيقيّة .

3 . المعصية و الذنب : فالنبيّ لا يرتكب أيّ عمل يُخالف مقام العبوديّة لله أو يتنافى مع الاحترام أو يهتك حرمة مقام المولى ، سواءً في أقواله أو في أفعاله . و إجمالاً فانّ هذه المراحل الثلاث يمكن تلخيصها في جملةٍ واحدة : أي وجودُ أمرٍ من جانب الله لدى الإنسان المعصوم يصونه عن الخطأ و المعصية .

امّا الخطأ في غير هذه المواضع ، مثل الخطأ في الأمور الخارجيّة نظير الالتباسات التي تحصل في حواسّ الإنسان ، أو في إدراكات الأمور الإعتباريّة ، و نظير الخطأ في الأمور التكوينيّة من النفع و الضرر و الصلاح والفساد ، فهي خارجةٌ بأجمعها عن محل النزاع و الكلام بين الشيعة و السنّة .

امّا تلك المراحل الثلاث من العصمة فتدلّ عليها الأيات القرءانية ، كقوله تعالى :

كَانَ النّاسُ أُمّةً وَ حِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النّبِيّنَ مُبَشّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَبَ بِالْحَقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلّا الّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيّنَتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ إِلَى صِرَ طٍ مُسْتَقِيمٍ . (2)

و تبيّن هذه الأية أنّ الغرض من إرسال الأنبياء و إنزال الوحي والكتاب انّما هو دعوة الناس الى الحقّ ، و هديهم الى طريق الحقّ والصواب في جميع موارد الاختلاف قولاً و فعلاً و اعتقاداً .

و هذا هو هدف الخلقة من بعث الأنبياء ؛ لأنّ الله تعالى لا يضلّ في هذا القصد بمفاد الأية :

لَا يَضِلّ رَبّى وَ لَا يَنْسَى . (3)

و هو بالغٌ أمره و هدفه ، لا يصدّه عنه رادع و لا يمنعه مانع ، بمفاد الأية الشريفة :

إِنّ اللهُ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلّ شَىءٍ قَدْرًا . (4)

و مفاد الأية الكريمة :

وَ اللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ . (5)

و ينبغي . بناءً على هذا . لحفظ الوحي عند إنزاله و إبلاغه و أدائه أن يُصان الأنبياء من أي خطأ و زلل ، لأنّ قلب النبيّ اذا أخطأ عند تلقّي الوحي أو تبليغه ، فانّ الهدف من رسالته سيكون غير متحقّق ، لأنّ المفهوم

من الرسالة هو الدعوة الى الحقّ :

وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَبَ بِالْحَقّ لَيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ .

و سيتردّد الأمر في حالة الخطأ بين أن يكون الله تعالى قد أخطأ ونسي في انتخاب الرسول و طريقة إنزال الوحي على قلبه ، أو أن غرضه كان الدعوة الى الحقّ لكنّه أخطأ في طريقة انزال الوحي على قلب النبيّ على نحوٍ لا يكون معه عُرضة للتغيير و التبديل ؛ و هذا ليس صحيحاً بمقتضى قوله تعالى :

لَا يَضِلّ رَبّى وَ لَا يَنْسَى .

أو انّ غرضه كان الدعوة الى الحقّ ، و لم يحصل في إجراء هذه الدعوة أي خطأ و التباس ، ولكن ظهرت عوائق خارجيّة حالت دون تحقيق أمر الله ، و هذا أيضاً مستحيل بمفاد الأية الكريمة :

إنّ اللهُ بَلِغُ أَمْرِهِ . و الأية :

وَ اللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

و بناءً على هذه المقدّمات ، فانّ الله سبحانه و تعالى يحفظ الأنبياء حتماً من الخطأ و الالتباس في كيفيّة تلقّي الوحي و إبلاغه ، و يطهرّ قلوبهم و يُصفّيها بحيث ينعدم فيها اثر إنزال الوحي أيّ موج أو ارتعاش أو تزلزل يكون باعثاً على قلب و تغيير كيفيّة و واقعيّة الوحي ، و بحيث لا يبقى فيها أيّ أثر للإضطراب أو الإبهام الباعث على تأويل و تفسير الإدراكات الواقعيّة على غير حقيقتها و واقعيّتها . و هذا هو معنى حقيقة العصمة في مرحلتي تلقّي الوحي و إبلاغه . و امّا في المرحلة الثالثة و هي صونهم وعصمتهم عن المعاصي ، فمن الممكن . ببيان مقدّمةٍ أخرى . أن نعتبر دلالة الأية السابقة عليها دلالةً تامّة . و هي انّه لو عصى نبيّ او ارتكب إثماً فانّه سيكون بفعله هذا قد أجاز هذا العمل و أباحه لأمّته ، لأنّ العاقل لا يفعل شيئاً الّا اذا كان حسناً ؛ فاذا ارتكب المعصية في حالٍ يأمرُ فيها قولاً بخلافها ، فانّ ذلك سيبعث على التهافت و التناقض ، و سيكون قد دعا بفعله و قوله الى أمرين متناقضين ، فهو يمنع الناس بقوله و كلامه من ذلك العمل ، ثم يُثبت بفعله له إباحة ذلك العمل و يرخّص لأمّته فيه .

و من المعلوم انّ الدعوة الى المتناقضين ليست دعوةً للحقّ ، لأن ذينك المتناقضين سيبطل أحدهما الأخر ؛ و الله سبحانه الذي يبعث الأنبياء للدعوة الى الحقّ لا يجعلهم دعاةً الى الأمور المتناقضة ، بل يصونهم عن فعل غير الحقّ و عن اي معصية ، لأنّ عصمة الأنبياء في إبلاغ الرسالات وأداء وحيهم كما ينبغي سوف لن تكون تامّة بدون العصمة عن مقام المعصية ؛ و قد اتّضح بهذا البيان أنّ الأية السابقة تدلّ على عصمة الأنبياء في ثلاث مراحل : التلقّي ، و ابلاغ الوحي ، و في مقام الخطأ و المعصية .

كما ان الإمام . و هو الحافظ للشريعة و المبيّن للأحكام و الحارس للقانون بالنسبة للأمّة . حائز على مقام قلب النبيّ و إدراكه ، و لا فرق بينه وبين النبيّ من وجهة النظر هذه ، الّا انّ النبيّ هو الذي يأتي بالشريعة والكتاب ، و الإمام هو الذي يقوم بإبلاغها و المحافظة عليها .

و الأدلّة التي تفيد في اثبات عصمة الأنبياء واردة بعينها في اثبات عصمة الإمام .

روى الحجّة الكليني في كتاب (الكافي) [6] ، عن عليّ بن ابراهيم ، عن والده ، عن حسن بن ابراهيم ، عن يونس بن يعقوب قال : كان عند أبي عبدالله (الصادق) عليه السلام جماعةٌ من أصحابه منهم حُمران بن أعين ومحمّد بن النّعمان و هِشام بن سالم و الطّيار و جماعةٌ فيهم هِشام بن الحَكَم [7] و هو شابّ ، فقال أبوعبدالله عليه السّلام : يا هشام ! ألا تخبرني كيفَ صنعتَ بعمرو بن عبيدٍ ؟

فقال هِشام : يا ابن رسول الله إنّي أُجِلّك و أستحييك و لا يعمل لساني بين يديك . فقال أبو عبدالله : إذا أمرتُكم بشيءٍ فافعلوا .

قال هشام : بَلَغني ما كان فيه عمرو بن عبيدٍ و جلوسُه في مسجد البصرة ، فَعَظُمَ ذلك عليّ ، فخرجتُ اليه و دخلتُ البصرةَ يومَ الجمعة فأتيتُ مسجدَ البصرة ، فاذا أنا بحَلْقَة كبيرة فيها عمرو بن عبيد و عليه شَمْلَةٌ سوداء مُتّزراً بها من صوف ، و شملةٌ مُرتدياً بها ، و الناسُ يسألونه ، فاستفرجتُ الناسَ فأفرجوا لي ، ثمّ قعدتُ في ءاخر القوم على ركبتيّ ثمّ قلتُ : أيهّا العالِمُ ! إنّي رجلٌ غريبٌ تأذنُ لي في مسألة ! فقال لي : نعم !

فقلتُ : أَلَكَ عَيْنٌ ؟

فقال : يا بُنَيّ أيّ شيء هذا من السؤال ، و شيء تراه كيف تسألُ عنه ؟

فقلتُ : هكذا مسألتي .

فقال : يا بُنيّ سَل و إن كانتْ مسألتُك حمقاء .

قلتُ : أَجِبني فيها .

قال لي : سَل !

قلتُ : أَلَكَ عَيْنٌ ؟

قال : نعم .

قلتُ فما تصنعُ بها ؟

قال : أرى بها الألوان و الأشخاص .

قلتُ : فَلَكَ أَنْفٌ ؟

قال : نعم .

قُلتُ : فما تصنعُ به ؟

قال : أشمّ به الرّائحة .

قلتُ : أَلَكَ فمٌ ؟

قال : نعم .

قلتُ : فما تصنعُ به ؟

قال : أذوقُ به الطّعْمَ .

قُلْتُ : فَلَكَ أُذُنٌ ؟

قال : نعم .

قلتُ : فما تصنعُ بها ؟

قال : أسمعُ بها الصّوتَ .

قلتُ : أَلَكَ قَلْبٌ ؟

قال : نعم .

قلتُ : فما تصنعُ به ؟

قال : أُميّزُ به كُلّما وَرَدَ على هذه الجوارح و الحواسّ .

قلتُ : أَوَلَيْسَ في هذه الجوارح غنىً عن القلب ؟

فقال : لا .

قلتُ : و كيف ذلك و هي صحيحةٌ سليمةٌ ؟

قال : يا بُنيّ ! إنّ الجوارح إذا شكّت في شيءٍ شَمّتْهُ أو رأته أو ذاقته أو سمعته رَدّتْهُ الى القلب فَيَسْتَيْقِنُ اليقينَ و يُبْطِلُ الشَكّ .

قال هشام : فقلتُ له : فإنّما أقامَ اللهُ القلبَ لشكّ الجوارح ؟

قال : نعم .

قلتُ : لابُدّ من القلب و إلّا لم تستيقن الجوارحُ ؟

قال : نعم .

فقلتُ له : يا أبا مروان [8] ، فاللهُ تبارك و تعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يُصحّح لها الصحيحَ و يتيقّنُ به ما شُكّ فيه و يَتْرُكُ هذا الخلقَ كلّهم في حَيْرتهم و شكّهم و إختلافهم ، لا يُقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم و حيرتهم و يُقيم لك إماماً لجوارحك تردّ اليه حيرتَك و شكّك ؟!

قال : فسكتَ و لم يقل لي شيئاً ، ثمّ التفتَ إليّ فقال لي : أنت هشامُ بن الحكم ؟ فقلتُ : لا .

قال : أَمِن جُلسائِهِ ؟

قلتُ : لا .

قال : فمن أين أنتَ ؟

قال : قلتُ : من أهل الكوفة .

قال : فأنتَ إذاً هو . ثمّ ضمّني اليه و أقعدني في مجلسه و زال عن مجلسه و ما نطق حتّى قمتُ .

قال : فضحك أبو عبدالله عليه السلام و قال : يا هشام . مَن علمّك هذا ؟

قال : شيءٌ أخذتُه منك و ألّفتُهُ .

فقال : هذا واللهِ مكتوبٌ في صُحُف إبراهيم و موسى . [9]

و باعتبار انّ الإمام بمنزلة قلب العالَم و مخّه ، فانّ سروره و حُزنه سيؤثرّ في جوارحه و أعضائه أي في جميع مخلوقات الله واحداً فواحداً .

بكاء جميع المخلوقات في عزاء شهادة سيدالشهداء عليهالسلام

يقول السيوطي في (الخائص الكبرى) : و أخرج الحاكمُ و البيهقيّ وأبو نعيم عن الزّهري قال : لَمّا كَانَ صباحُ قُتِلَ عَلِيّ بنُ أَبي طَالِبٍ ، لَمْ يُرْفَعْ حَجَرٌ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ إلّا وُجِدَ تَحْتَهُ دَمٌ .

و أخرج أبو نعيم من طريق الزّهري عن سعيد بن المسيّب قال : صَبِيحَةُ يَوم قُتِلَ عَلِيّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ ، لَمْ تُرفَعُ حَصَاةٌ مِنَ الأَرضِ إلّا وَتَحْتَهَا دَمٌ عَبِيطٌ . [10]

و يروي الشيخ الصدوق في كتابيْ (علل الشرايع) و (الأمالي) بسند واحد عن جبلّة المكيّة قالت : سمعتُ ميثم التمّار (قدّس الله روحه) يقول : و اللهِ لتقتل هذه الأُمّةُ ابنَ نبيّها في المحرّم لعشرٍ يمضين منه ، و ليتخّذنّ أعداءُ الله ذلك اليوم يومَ بركة ، و إنّ ذلك لكائن قد سبق في علم الله تعالى ذكره ، أعلمُ ذلك بعهدٍ عهده إليّ مولاي أميرُالمؤمنين عليه السلام ، و لقد أخبرني أنّه يبكي عليه كلّ شيء ، حتّى الوحوش في الفلوات و الحيتان في البحر و الطير في السماء ، و يبكي عليه الشمسُ و القمر و النجومُ و السماء والأرض و مؤمنو الإنس و الجنّ و جميع ملائكة السماوات و الأرضين ورضوانُ و مالكُ و حملةُ العرش ، و تمطرُ السّماءُ دماً و رماداً .

ثمّ قال : وجبت لعنةُ الله على قتلة الحسين عليه السّلام كما وجبت على المشركين الذين يجعلون مع الله إلها ءاخر ، و كما وجبت على اليهود والنّصارى و المجوس .

قالت جبلّة : فقلتُ له : يا ميثم ! فكيف يتّخذ الناسُ ذلك اليوم الذي قُتِلَ فيه الحسينُ عليه السلام يومَ بركةٍ ؟ فبكى ميثم رضي الله عنه ثمّ قال : يزعمون لحديثٍ يضعونه أنّه اليوم الذي تابَ اللهُ فيه على ءادم ، و انّما تاب اللهُ على ءادم في ذي الحجّة ؛ و يزعمون أنّه اليوم الذي قبل اللهُ فيه توبةَ داود ، و انما قبلَ اللهُ عزّوجل توبتَهُ في ذي الحجّة ، و يزعمون انّه اليوم الذي أخرج اللهُ فيه يُونسَ من بطن الحوت ، و انّما أخرج اللهُ عزّوجل يونس من بطن الحوت في ذي الحجّة ؛ و يزعمون أنّه اليوم الذي استوت فيه سفينةُ نوحٍ على الجودي ، و انّما استوت على الجودي يوم الثامن عشر من ذي الحجّة ؛ و يزعمون أنّه اليوم الذي فلقَ اللهَ تعالى فيه البحرَ لبني إسرائيل و انّما كان ذلك في ربيع الأوّل .

ثمّ قال ميثم : يا جبلّة ! إعلمي أنّ الحسين بن عليّ عليه السلام سيّد الشهداء يوم القيامة ، و لأصحابه على سائر الشهداء درجة . يا جبلّة اذا نظرتِ السماء حمراء كأنّها دمٌ عبيط فاعلمي أنّ سيّدالشهداء الحسين قد قُتِل .

قالت جبلّة : فخرجتُ ذاتَ يومٍ فرأيتُ الشمسَ على الحيطان كأنّها الملاحف المعُصفرة ، فصحتُ حينئذٍ و بكيتُ و قلتُ : قد واللهِ قُتِلَ سيّدنا الحسين عليه السلام . (11)

تعليقات:

1) الأية 213 ، من السورة 2 : البقرة .

2) الأية 213 ، من السورة 2 : البقرة .

3) ذيل الأية 52 ، من السورة 20 : طه .

4) ذيل الأية 3 ، من السورة 65: الطّلاق

5) ذيل الأية 21 ، من السورة 12 : يوسف

6) أُصول الكافي) ، المجلّد الأول ، ص 169 ، كتاب الحجّة ، باب الإضطرار الى الحجّة .

7) ولد هشام بن الحكم في الكوفة ، و نشأ و ترعرع فى واسط ، ثم عمل بالتجارة في بغداد و سكن هناك الى ءاخر عمره ؛ و قد نُقل مدحُه و الثناء عليه عن الأئمّة الصادق والكاظم و الرضا عليهم السّلام . كان راوياً للحديث و له أصل في الأُصول الأربعمائة الشيعيّة ، و كان من أجلّة المحدّثين و مهرة المتكلّمين و المناظرين ، و كان له فى فتوّته مهارة كبيرة في فنّ المناظرة (رجال الميرزا محمّد بن علي الأردبيلي المعروف ب (جامع الرواة) ج 2 ، ص 313 وهذه الرواية يرويها المجلسي أيضاً في (بحار الأنوار) ج 7 ، ص 3 ، نقلاً عن (إكمال الدين) و(علل الشرايع) و (الأمالي) للشيخ الصّدوق .

8) أبو مروان) كُنية عمرو بن عبيد .

9) يروي الصدوق هذه الرواية في (الأمالي) ، ص 351 ، عن سعد بن عبدالله ، عن ابراهيم بن هاشم ، عن اسماعيل بن مرار ، عن يونس بن عبدالرحمن ، عن يونس بن يعقوب قال : كان عند أبي عبدالله الصادق عليه السلام جماعة من أصحابه فيهم حُمران بن أعين ومؤمن الطّاق و هشام بن سالم و الطيّار و جماعة من أصحابه فيهم هشام بن الحكم و هو شابّ ؛ ثمّ ينقل عين الحديث الى ءاخره . و أورده المرحوم المجلسي في (بحار الانوار) الطبعة الكمباني ج 14 ، ص 549 (السماء و العالم) ، و في الطبعة الحروفية ج 61 ، ص 248 عن (أمالي الصدوق) .

10) الخصائص الكبرى) ، ج 2 ، ص 124 ، حسب نقل (شيعه در اسلام) للسبط ، القسم الثاني ، ص . 124

11) الأمالي) للصدوق ، ص 77 ، و (علل الشرايع) ج 1 ، ص 228 ، الباب 162 ؛ وينقل المجلسي هذه الرواية عن الشيخ الصدوق في (بحار الأنوار) الطبع الكمباني ، ج 10 ، ص . 224

هذه الرواية عن الشيخ الصدوق في (بحار الأنوار) الطبع الكمباني ، ج 10 ، ص . 224

الدرس الثاني : بيان أصل الوراثة في العصمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

ثُمّ أَوْرَثْنَا الكِتَبَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَ لِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (1) .

قانون الوراثة أصلٌ مهم جرت مطالعته بدقّة في جميع شؤون الموجودات ، من الإنسان و الحيوان و النبات ، حيث استُحصلت منه ءاثار ونتائج هامّة ؛ ويمكن القول أنّه أحد السُنن الالهيّة التي لا تتبدّل و لا تتغيّر . إنّ التمعّن في أفراد البشر و ملاحظة إنتقال الخصوصيّات و الكيفيّات من نطفة الأب و الأمّ و لقاحها و ظهورها على هيئة جنين ثم ظهورها في الطفل ، سيُثبت هذا الأساس بصورة كليّة لدى الإنسان .

انّ نطفة الانسان هي ذرّة من نظامه الوجودي تتراكم فيها و تندمج جميع الأثار و الخصائص الإنسانية و توجد في صورة القوّة و الاستعداد . وعندما تستقرّ النطفة في رحم الأمّ في وعائها الخاصّ و شرائطها الخاصّة ، فانّها تصل الى مرحلة الفعليّة و تظهر بصورة النشر مُشيرةً الى جميع الخصائص المادّية و الأخلاقيّة و الروحيّة التي حصل عليها الجنين من والديه .

فالولد لا يرث من أبيه لون الجلد و شكل الأعضاء و الجوارح وتركيب العظام فقط ، بل انّه يرث كذلك التشابه في كلّ ذرّة من الدّم و في كلّ خليّة لا تُرى ؛ بحيث انّه لو حصل هناك شكّ في الطفل ، فانّه يمكن تعيين أبيه الحقيقي عن طريق فحص الدم .

و ليس ذلك الاّ لأنّ الطفل في الحقيقة فرعٌ أو غصن تفرّع من شجرة وجود أبيه و أصله الماديّ و المعنويّ ، فصار يُحاكي ذلك الاصل في جميع خواصّه . و بغضّ النظر عن العين و الدماغ و الأذن و القلب و المعدة و الكلية والعظام و الهيكل ، فانّ الطفل يكتسب من أبويه بعنوان الوراثة خواصّ الوجود و ءاثاره ، حتّى في الأجزاء البسيطة المجهريّة . حتّى انّ بعض الأمراض تنتقل اليه من أجداده عن طريق الوراثة ، فإن لم تظهر هذه الأمراض في النسل الأوّل أو الثاني ، فانّ تلك الامراض ستحفظ في مرحلة التطورّ و التغيّر في عدّة أجيال حتى تنهي مرحلة كمونها فتظهر في أجيال أخرى حين تتحقّق شرائط وجودها .

و هذه الخصائص و الأثار لا تنتقل من الوالد الى نطفته فحسب ، بل انّ ءاثارها الوجوديّة ستكون مشهودةً واحدة في جميع خلايا الإنسان . ويمكن القول بأنّ هناك في كلّ ذرّة من جسم الإنسان إنساناً كاملاً على نحو الاستعداد و القوّة الوجوديّة ، بحيث اذا توفّرت له شرائط التربية و التكامل فانّه سيظهر في هيئة إنسان كامل .

و بعبارة اخرى فليس هناك فى النطفة وحدها إنسان كامل يظهر في الرحم و الظرف المستعدّ ، بل انّ هناك في كلّ خليّة إنساناً كاملاً موجوداً على نحو الوراثة و انتقال مراتب الوجود .

و على الرغم من انّهم لم يتمكّنوا عملاً من تلقيح خليّة رجل مع خليّة امرأة في وعاء معدّ خاص لإيجاد طفل خارج و عاء الرحم ، لكنّ ذلك ليس دليلاً قاطعاً على إمتناع هذا الأمر ، بل انّ هناك أدلّة قد أقيمت على

إمكانه . ولربّما سيرى البشر يوماً من خلال تقدّم مسيرة العلم ، نشوءَ طفل من تلقيح خلايا المرأة و الرجل في أوعية معدّة و مناسبة خارج بدن الأم ، فيظهر في زمن قصير مليارات الأطفال من امرأة و رجل واحد .

و هذا الموضوع على اثر ذلك الاصل فى الوراثة الذي يجعل جميع خصائص الفرد مؤثّرة في كلّ ذرّة من ذرّات بدنه ، فتحكي تلك الذرّة جميع الأثار الوجوديّة لذلك الشخص .

كما انّه يُشاهد في النباتات انّ أصل الوراثة قد فعل فعله ليس فقط عن طريق زرع البذور في الأرض ، بل و عن طرق شتّى أخرى كالتكثير بالأقلام ، و عن طريق التطعيم ، حيث تنشأ بذلك شجرة تُناظر أصلها الذي أُخذت منه ، و سيحمل ذلك الغُصن المقتطع جميع خصائص الشجرة من الجذر و الساق و الأوراق و الثمار نظير جذر و ساق و أوراق و ثمار أصله الذي اقتُطع منه .

و كذلك الحال في عملية التكثير بالبراعم ، فانّ البراعم المطعّمة ستجعل ساق الشجرة الأخرى رحماً لتربيتها ، فتنمو هناك و تنشأ و تظهر فيها جميع ءاثار أصلها بدون أيّ تخّطٍ أو أدنى تجاوز .

مَا مِن دَآبّةٍ إلّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إنّ رَبّى عَلَى صِرَ طٍ مُسْتَقِيمٍ [2] .

و اذا ما تجاوزنا الماديّات و مراتب الظهور الطبيعي في الإنسان إلى الأفكار و الأخلاق و الروحيّات ، فانّنا سنرى أنّ الطفل يتأثّر و راثياً أيضاً بأصله ، فتظهر فيه عن طريق النطفة غرائز و أخلاق و الديه ، و من تركيب تلك النطفتين فانّ مجموعاً مركّباً منهما سيُظهر الطفل بأخلاق خاصة هي نتاج غرائزالوالدين معاً .

فالولد الذي له والدان يتصّفان بالشجاعة سيكون شجاعاً بالتأكيد ، أمّا إذا كان والداه يتصّفان بالجبن و الخوف فانّه سيصبح جباناً ، و اذا كانا سخيّين فانّه سيكون سخيّاً ، أو كانا لئيمين أو مُضحيّين فانّه سيماثلهما في ذلك . كما انّ الوالدين العاقلين سينجبان ولداً عاقلاً ، فإن كانا أبلهين صار طفلهما أبلهاً . و على أيّ حال فانّ جميع الأخلاقيّات و الغرائز الروحيّة للولد لن تخرج عن أصل الوالديين ، بل هي تابعة الى صفاتهما ، و ناتجة عن اللقاح و الفعل و الانفعال لقواهما الروحيّة و الأخلاقية .

و قد يحصل أحياناً أنّ شخصاً عاقلاً يخرج من صلبه ولدٌ جاهل ، والعكس صحيح ، و بالطبع فانّ ذلك سيكون ناجماً من شرائط و ظروف التربية في الرحم ، أو من انتقال نطفة أحد أجداده الذين كانوا كذلك ، فظهرت هذه الصفة في هذا النسل ، و هذا بالطبع ينطبق على أصل الوراثة .

و كما انطبق أصل الوراثة في الإنسان ، فانّه ينطبق كذلك على النباتات و الحيوانات ، فولد الذئب سيكون ذئباً ، و ولد الخروف خروفاً وولد الأسد أسداً ، ثم انّ ءاثار اولئك و كيفيّتهم ستنتقل الى الأجيال والطبقات التالية نسلاً بعد نسل من وجهة نظر كيفيّة تشكيل الجسم والخلايا الجسميّة و الصفات الروحيّة . و الأمر في النباتات كذلك ، فورد الياسمين ينتج ياسميناً ، و الورد المحمّدي ينتج ورداً محمّدياً يتبع أصله في شكله ولونه و رائحته ، كما انّه لن يخرج من شجرةِ التفّاح إجاص و لو مضى عليها ألف عام ، و لو تعاقبت الأجيال .

بلى ، لقد كان أصل الوراثة أساس عالم الوجود ، و هذه الظهورات ستستمرّ و تتقدّم طبقاً لهذه السُنن .

فَلَن تَجِدَ لِسُنّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنّتِ اللهِ تَحْوِيلًا [3] .

و لقد حفظ أصل الوراثة ثباته و بقاءه في جميع الشؤون المذكورة ، والأهمّ و الأعلى من ذلك بقاؤه و ثباته في المعنويّات و الأسرار الالهيّة .

إنّ الله سبحانه و تعالى خلق ءادم أبا البشر و جعله خليفته في الأرض ، و جعل قلبه مركز تجليّات أنوار جماله ، و جعل عقله قويّاً و صدره منشرحاً و قلبه متّسعاً ، بحيث يمكنه الاطّلاع على جميع أسرار عالم الكون ، و العلم بحقائق الموجودات ، و تمزيق حجب الأوهام ، و الاستقرار فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ [4] . و

الوصول الى مقام الاطمئنان ، والاطّلاع على أسرار الغيب ، و محادثة الملائكة ، و السكنى في حرم الأمن و الأمان الالهيّ ، فيصبح قلبه مركز تجلّيات أسماء و صفات المعبود جلّ شأنُه .

و هكذا فانّه سيُشاهد رأي العين إحاطة قدرة و علم و حياة الله في جميع مراحل الوجود ، و سُيناجي ربّه و يتكلّم معه من السرّ و الباطن ، وسيفوز بمقام:

عَلّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرّةٍ فَاسْتَوَى وَ هُوَ بِالأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمّ دَنَا فَتَدلّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَآ أَوْحَى (5) .

و البقاء ببقاء الله بعد فناء النفس ، و طيّ أسفاره الأربعة ليكون مرءاةً تامّة و مظهراً تامّاً كاملاً للحضرة الأحديّة .

و قد أودع هذا النور في ءادم عليه السلام منذ بدء الخلقة ؛ وبمقتضى : وَ عَلّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلّهَا (6) .

و كذلك بمفاد قوله :

وَ إِذْ قَالَ رَبّكَ لِلْمَلَئِكَةِ إِنّى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (7) .

فانّ ءادم وحده جوهر عالم الوجود ، و هو وحده اللؤلؤة الثمنية في صدف عالم الكون ، و خزينة أسرار الحضرة الربوبيّة التي طلعتْ و ظهرت فيه الى حدّ ما . و بموجب أصل الوراثة فقد انتقل ذلك السرّ الى أبناء ءادم ، فظهر و برز في الأنبياء واحداً بعد الأخر كلّاً بدوره ، و بمراتب الاختلاف التي تُشاهد فيهم ، فأصبح كلّ واحد منهم مركزاً لتجلّي ذلك النور بقدر استعداده و ظرفيّته .

تِلْكَ الرّسُلُ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلّمَ اللهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَتٍ و ءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيّنَتِ وَ أَيّدْنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (8) .

الى أن وصل الدور الى خاتم الأنبياء و سيّد المرسلين محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه و ءاله ، فأشرق ذلك النور فيه على أتمّ نحوٍ و أكمله ، و بمقتضى أصل الوراثة فقد مرّ في دور الكمون في أصلاب الأباء ، و ها قد وصل الى مرحلة الظهور و البروز ، و أشرق كما ينبغي له بلا زيادة و لا نقصان لذا فانّ شريعته صلوات الله و سلامه عليه ناسخة لجميع الأديان ، ودينه متمّم و مكمّل لجميع الأديان ، و باقٍ و خالد الى يوم القيامة .

و قد حصلت هذه الأثار بواسطة سعة روح النبيّ و سعة قلبه المبارك ، و ليست أمراً اعتباريّاً تشريفيّاً ، ثمّ انّها انتقلت في ذريّته ، اي انّ ذلك النور انقسم الى قسمين ، أحدهما في نفسه المباركة و الأخر في نفس أميرالمؤمنين عليه السلام ، و انتقل من لقاح نور أميرالمؤمنين عليه السلام والصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها الى ذريّتهما ، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه :

إنّ اللهَ جَعَل ذُرّيّةَ كُلّ نَبِيٍّ فِي صُلْبِهِ و جَعَلَ ذُرّيّتِي فِي صُلْبِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . (9)

و روى أحمد بن حنبل ، و هو أحد كبار أئمّة أهل السنّة ، عن سلمان الفارسي ، تبعاً لرواية كتاب (الرياض النضرة) انّه قال :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سَلّم يقولُ : كُنْتُ أَنَا وَ عَلِيّ نُورًا بَيْنَ يَدِي اللهِ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ ءادَمَ بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ أَلْفَ عَامٍ ، فَلَمّا خَلَقَ اللهُ ءادَمَ قَسّمَ ذَلِكَ النّورِ جُزْئَيْنِ جُزْءٌ أَنَا وَ جُزْءٌ عَلِيّ . خرّجه أحمد في المناقب (10) .

و يحدّث أيضاً في (ينابيع المودّة) نقلاً عن كتاب (مودّة القربى) ، عن عثمان انّه روى عن رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم :

خُلِقْتُ أَنَا وَعَلِيّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ قَبْلَ أَن يَخْلُقَ اللهُ ءادَمَ بِأَرْبَعَةِ ءالَافِ عَامٍ ، فَلَمّا خَلَقَ اللهُ ءادَمَ رَكِبَ ذَلِكَ النّور فِي صُلْبِهِ فَلَمْ يَزَل شَيئًا وَاحِدًا حَتّى افترَقْنَا فِي صُلْبِ عَبْدِ الْمُطَلَب ، فَفِيّ النّبُوّةُ وَ فِي عَلِيّ الْوَصِيّةُ (11) .

و ينقل المؤرّخ الأمين الحسين بن علي المسعودي في (مروج الذهب) روايةً جامعة عن أميرالمؤمنين عليه السلام حول ابتداء الخلقة وكيفيّة خلق نور محمّد و ءال محمد عليهم السلام ، و عن كيفيّة انتقال ذلك النور في النشئآت المختلفة الى أن يصل الى خلقة الملائكة و خلقة ءادم ، ثم يقول :

ثُمَ نَبّه ءادَمَ عَلَى مُستُودِعِه ، وَ كَشَفَ لَهُ [عَنْ] خَطَرِ مَا ائْتَمَنَهُ عَلَيْهِ ، بَعْدَ ما سَمّاهُ إماماً عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ .

فَكَانَ حَظّ ءادَمَ مِنَ الْخَيرِ مَا أواهُ مِنْ مُسْتَودَعِ نُورِنا ، وَ لَمْ يَزَل اللهُ تَعالى يخبأ النُورَ تَحتَ الزّمانِ إلى أَنَ فَضّلَ مُحَمّداً صَلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سَلمّ في ظَاهِرِ الفَتَرَاتِ .

فَدَعَى النّاسَ ظَاهِرًا وَ بَاطِنًا ، وَ نَدَبَهُمْ سِرّا و عَلَانِيّةً ، واسْتَدْعى عليه السّلامُ التّنْبيهَ عَلى العَهْدِ الّذي قدّمه الى الذّرِ قبلَ النسلِ .

فَمَنْ وَافَقَهُ و قَبَسَ مِنْ مِصباحِ النّورِ المُقْدِمِ ، اهْتدى إلى سِرّهِ و استَبانَ وَاضِحَ أمرِهِ ؛ و مَنْ أبلسته الغفلةُ ، استحقّ السّخطَ .

ثمّ انتقل النّورُ الى غَرائزِنا ، و لَمَعَ فِي أئمتِنَا ، فَنَحْنُ أنوارُ السّماءِ و أنوارُ الأرضِ فَبِنَا النّجاةُ ، و مِنّا مَكنونُ العِلمِ ، و إلينا مَصيرُ الْأُمُورِ ، و بمهديّنا تنقطعُ الحُججُ ، خَاتمةُ الأئمّةِ و مُنقذِ الأمّةِ ، وَ غَايَةِ النّورِ ، وَ مصدر الأمورِ .

فَنَحْنُ أَفْضَلُ الْمَخْلوقينَ ، و أَشْرَفُ الْمُوَحّدينَ ، وَ حُجَجُ رَبّ الْعالَمينَ .

فَلْيَهْنأ بالنّعمةِ مَنْ تَمَسّكَ بِولايَتِنا ، وَ قَبَضَ عَلَى عُرْوَتِنَا .

ثم يقول المسعودي : فهذا ما نروي عن أبي عبدالله جعفر بن محمّد ، عن أبيه محمّد بن عليّ ، عن أبيه عليّ بن الحسين ، عن أبيه الحسين بن عليّ، عن أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه (12) .

و يقول المسعودي أيضاً : و قد رأيت في كثير من كتب التواريخ والسيرة و الأنساب انّ ءادم أباالبشر حين سمع هاتفاً يُخبره عن مقتل ولده هابيل زاد حزنه و غمّه لما جرى و ما سيأتي .

فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ : إنّي مُخْرِجٌ نُوري الّذي بِهِ السّلوكُ فِي الْقَنَواتِ الطّاهِرةِ ، و الأُروماتِ الشّريفَةِ ، و أُباهِي بِهِ الأَنْوارَ ، و أَجْعَلُهُ خَاتَمَ الْأَنْبياءِ ، وَ أَجْعَلُ ءَالَهُ خِيارَ الْأَئِمّةِ الْخُلَفاءِ .

و أَخْتَمُ الزّمانَ بِمُدّتِهِمْ ، و أَغُصّ الْأَرْضَ بِدَعْوَتِهِمْ ، و أَنْشُرُها بِشيعَتِهِمْ .

فَشَمّرْ و تَطَهّرْ ، و قدّسْ ، و سَبّحْ ، وَ اغْشَ زَوْجَتَكَ عَلَى طَهَارَةٍ مِنْهَا ، فانّ وَدِيعَتي تَنْتَقِلُ مِنْكُما إِلَى الْوَلَدِ الْكائِنِ مِنْكُمَا (13) .

امّا الأن و قد اتّضح الموضوع ، فاننا نرجع الى تفسير الأية التي ذكرناها في مطلع كلامنا : ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَبَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .

و علينا أن نرى ما هو هذا الميراث ؟ و هذا البحث يتناول موضوعين :

1 . الموضوع الأوّل : ما هو المقصود من الكتاب ؟

2 . الموضوع الثاني : من هم العباد المصطفون الذين أورثهم الله الكتاب ؟

امّا الموضوع الأوّل ، فليس هناك من شكّ في انّ المقصود بالكتاب هو القرءان الكريم ، لأنّه يقول في الأية التي سبقتها :

وَ الّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَبِ هُوَ الْحَقّ مُصَدّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنّ اللهَ بِعِبَادَهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (14) .

و هذا الخطاب موجّه الى رسول الله صلّى الله عليه و ءاله ؛ كما انّ الكتاب الذي أوحي اليه هو القرءان الكريم .

و باعتبار انّه يقول بعد هذه الأية مباشرة :

ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَبَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا .

فقد اتّضح بأن المراد بهذا القرءان المورث ليس القرءان المكتوب ، بل انّ المراد بذلك هو حقيقة القرءان الذي نزل على قلوبهم . فقد تلقّى رسول الله . وفق نهجٍ معيّن . تلك الحقائق من جبرئيل الأمين ، و بنفس ذلك النهج تلقّى هؤلاء العباد المصطفون القرءان من رسول الله صّلى الله عليه وءاله و تلك الحقائق و الأسرار و اللطائف التي : لَا يَمَسّهُ إِلّا الْمُطَهّرُونَ (15) . و إِنّا جَعَلْنَهُ قُرْءانًا عَرَبِيّا لّعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَ إِنّهُ فِي أُمّ الْكِتَبِ لَدَيْنَا لَعَلِيّ حَكِيمٌ (16) ؛ حيث وردت على قلوبهم بمستو رفيع مختصّ بهم .

امّا فيما يخصّ الموضوع الثاني ، فحسب الروايات المستفيضة والمتظافرة التي وردت عن الامام محمد الباقر و الإمام جعفر الصادق عليهما السلام ، فانّ المراد بهؤلاء العباد المصطفين ، ذريّة الرسول الأكرم صلّى الله عليه و ءاله من أولاد فاطمة الزهراء سلام الله عليها ؛ الذين يقعون في ذريّة : (وءالَ إبراهيم) بمقتضى الأية المباركة : إِنّ اللهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحًا وَ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَ ءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَلَمِينَ (17) .

و علاوةً على ذلك ، فلم يدّعِ أحد منذ صدر الإسلام حتّى الأن أنّ هناك شخصاً أعلم بكتاب الله من أميرالمؤمنين و الأئمّة الطاهرين عليهم السلام ؛ بل انّ أميرالمؤمنين . حسب الروايات المتواترة الواردة عن كبار أهل السنّة . أعرف الأمّة و أعلمها بكتاب الله . و بناءً على هذا فانّ من المُسَلّم انّ المراد بالعباد المصطفين الذين أورثهم اللهُ القرءان هؤلاء الأئمّة الطاهرين .

و بغضّ النظر عن ذلك فانّه وفقاً للحديث المتواتر بين السّنّة و الشيعة الذي جعل فيه النبيّ عترته ملازمةً للقرءان و قرينةً له ، فانّه يتّضح أنّ المراد من العباد المصطفين عترة رسول الله :

إِنّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقلينِ كِتابَ اللهِ وَ عِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوضَ (18) .

علاوة على الروايات الكثيرة الواردة في علم أميرالمؤمنين عليه السّلام ، كالحديث الوارد عن أمّ سلمة حيث قالت : قال النبيّ :

عَلِيّ مَعَ الْقُرْءانِ و الْقُرْءانُ مَعَ عَلِيّ (19) .

و حديث : أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَ عَلِيّ بَابُهَا (20) .

و نظائرها من الروايات الواردة في علم أميرالمؤمين ، و التي تفيد انّه كان من وارثي كتاب الله من رسول الله صلّى الله عليه و ءاله .

امّا بشأن قوله تعالى :

فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ .

فمن الجلّي انّ المقصودَ بهم أصحاب الشمال و أصحاب اليمين والمقربّون ، و مسلّماً فانّ المراد بالعباد المصطفين هم الفئة الثالثة الذين سبقوا الى الخيرات .

و بناءً على هذا فانّ الضمير في (منهم) امّا ان يكون عائداً الى (عبادنا) بدون قيد الاصطفاء ، أي انّ مطلق عبادنا ينقسمون الى ثلاث مجاميع ، لكنّ من بينهم السابقون الى الخيرات الذين كانوا هم المصطفين وورثة الكتاب .

و امّا أن يعود الضمير في (منهم) الى (الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) ، اي انّ الطوائف الثلاث شركاء في وراثة الكتاب ، على الرغم من انّ الفئة الثالثة ستكون العالمة بالكتاب و المحافظة عليه و الوارث الحقيقيّ له .

و لا مانع هناك أن يكون القائمون بكتاب الله و المحافظون عليه فئةً خاصّة بينما تُنسب الوراثة الى الجميع ، كما في الأية الكريمة الشريفة :

وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَ ءِيلَ الْكِتَب [21] ، التي تنسب الوراثة الى بني إسرائيل مع انّ نزول التوراة كان على موسى (عليه السلام) لا عليهم جميعاً ، ولكن باعتبار انّ موسى كان يعيش في بني اسرائيل ، فانّ نسبة إعطاء التوراة لبني اسرائيل صحيحة تجوّزاً . و بناءً على هذا الاحتمال ، فسيكون المراد بعبارة (ظالمٌ لنفسه) أفراد المسلمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب السيئّات والمعاصي ، و ذلك لأنّه تبعاً لهذا الاحتمال فانّ فئة (ظالمٌ لنفسه) سيكونون من المصطفين ، لذا لا يمكن جعلهم من أصحاب الشمال ، بل هم من أصحاب اليمين ، غاية الأمر انّ فيهم بعض النقائص .

و على كلّ حال فلنعد الى أصل البحث ، و هو ان اميرالمؤمنين والأئمة الأطهار باعتبارهم عبادالله المصطفين . طبقاً للنصوص الصريحة التي نقلها أهل السنّة بأنفسهم عن كبار المحدّثين . فانّهم حارسو و حافظو كتاب الله . فالحافظ للقرءان و الوارث له هو الذي يمتلك مقامَ و منزلة رسول الله ، و يمتلك قلباً كقلب رسول الله في تحمّل تلك الحقائق واستيعابها .

و سنذكر هنا بعض الروايات التي أوردها علماء العامّة المعروفون في كتبهم ليتضّح مقام أميرالمؤمنين عليه السلام و منزلته في نظرهم .

فقد روى في (ينابيع المودّة) عن جابر بن عبدالله الأنصاري انّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه و ءاله قال : كَفّ عَلِيّ كَفّي [22] .

و من البيّن انّ المراد باليد الأثار المترتّبة على اليد من الأخذ و العطاء و الكتابة و الحرب و غير ذلك ، و اجمالاً فانّ المراد به كلّ ما تفعله اليد . ولأنّ هذه الأفعال مترتّبة على إرادة النفس و اختيارها ، فانّ تساوي الكفيّن سيلازم المساواة في جميع المبادئ و المراحل الفعليّة من الحالات النفسيّة و مكارم الأخلاق و الصفات الحسنة . و ورد أيضاً عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه و ءاله قال :

يَا أبابَكر كَفّي وَ كَفّ عَلِيّ فِي الْعددِ سَواءٌ [23] . و في رواية أخرى : يا أبابَكْر كَفِي و كَفّ عَلِيٍّ فِي العدلِ سَواءٌ [24] .

و بالطبع فانّ التساوى في العدل كما بيّنا يتلازم مع تساوي الصفات النفسيّة و مكارم الأخلاق و الإطّلاع على السرائر ، الذي سينجم عنه في مرحلة الفعل أن تكون أفعاله و سيرته كأفعال و سيرة النبيّ الأكرم .

و امّا التساوي في العدد فهو كناية عن التساوي في جميع مراتب القدرة و مراحلها ، فكلّ شي يستطيع الرسول صلى الله عليه و ءاله فعلَه فانّ أميرالمؤمنين هو الأخر يستطيع فعله ، لأنّ اليد في هذا التعبير الذي افتُرض لها عدد فيه معلولٌ للقدرة و ءالة لإجراء النوايا النفسانية و الإرادات الروحيّة .

و بناءً على هذا فانّ هذا التعبير يبيّن تساوي قدرة رسول الله مع قدرة عليّ عليه السلام ، و هكذا فانّ المعجزات العجيبة التي ظهرت على يد الرسول الأكرم موجودة كلّها في مركز إرادة و قدرة عليّ عليه السلام .

يروي محبّ الدين الطبري في (الرياض النّضرة) ، عن أنس بن مالك قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : مَا مِنْ نَبِيٍّ إلّا و لَهُ نَظيرٌ فِي أُمّته ، و عَليّ نَظِيري [25] .

و هذه الرواية تبيّن بأنّه لا يوجد أحدٌ في جميع أمّة رسول الله يُماثله في الصفات الروحيّة و الكمالات النفسيّة كعليّ بن أبي طالب ، فقد كان مولى الموحدين وحده نظيراً لرسول الله صلى الله عليه و ءاله .

و جاء نظير هذه الرواية في (ينابيع المودّة) عن أنس بن مالك برواية صاحب (الفردوس) : قالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليه [و ءالهِ] وسلّم : مَا مِنْ نَبِيٍّ إلّا وَ لَهُ نَظِيرٌ من أمّتي ... الى أن قال وَ عَلِيّ بنُ أَبِي طَالِبٍ نَظِيرِي [26] . و يقول في (صحيح البخاري) في باب مناقب عليّ :

قَال النبيّ صلّى اللهُ عليه [و ءالِه] و سَلّم لِعليّ : أَنْتَ مِنّي وَ أَنَا مِنْكَ [27] .

و هذا التعبير يبيّن غاية الإتحاد و التلاحم مع عليّ عليه السلام ، كأنّ وجودهما كان وجوداً واحداً تجلّى في جسميْن .

كما نقل ابن حجر الهيتمي المكيّ في (الصواعق المحرقة) [28] ، عن البراء بن عازب ؛ و نقل محبّ الدين الطبري في (الرياض النضرة) انّ رسول الله صلّى اللهُ عليه [و ءالِه] و سَلّم قال : عَليٌّ مِنّي بِمَنْزِلَةِ رَأْسِي مِنْ بَدَنِي [29] .

و هذا التعبير يدلّل على غاية الاتّحاد و التكاتف و التلاحم ، فرسول الله صلى الله عليه و ءاله يقول : كما انّ الجسم لا حياة له بدون الرأس ، فانّ حياتي مرتبطة و منوطة بحياة عليّ . و يروي في (ينابيع المودّة) عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله قال :

عَليّ مِنّي مثلُ رَأْسِي مِنْ بَدَنِي [30] .

و يروي في (ينابيع المودّة) عن أبي هُريرة أنّه قال :

كَانَ رَسُولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه [و ءَالِهِ] و سَلّم بَعَثَ بَعْثَيْنِ ، و بَعَثَ على أَحَدِهِما عَلِيّاً وَ عَلَى الآخَرِ خالِدَ بْنَ الْوَليدِ ،

و قالَ : إذَا الْتَقَيْتُمْ فَعَلِيٌّ عَلَى النّاس ، و إذا افْتَرَقْتُمْ فَكُلّ عَلَى جُنْدِهِ ، فَلَقينا بَني زُبيدة ، فاقْتَتَلْنا و ظَفَرْنا عَلَيْهم ، و سَبَيْنَاهُم ، فَاصْطَفَى عَليّ مِنَ السّبْى واحِدًا لِنَفْسِهِ .

فَبَعَثَني خالِدٌ الى النّبيّ صلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم حَتّى أُخْبِره ذلكَ ، فَلَمّا أَتَيْتُ و أَخْبَرْتُهُ فَقُلْتُ : يا رَسولَ الله بَلّغتُ ما أُرْسِلْتُ بِهِ ؟

فقالَ : لَا تَقَعُوا فِي عَليٍّ ، فَإنّهُ مِنّي و أَنَا مِنْهُ ، و هُوَ وَليّي وَ وَصِيّي مِنْ بَعْدِي [31] . رواه الإمام أحمد في مسنده .

و روى ابن الأثير في (أسد الغابة) [32] ، بسنده المتّصل عن عمران بن الحصين ؛ و القندوزي في (ينابيع المودّة) [33] عن (سنن الترمذي) عن عمران بن الحصين ؛ كما روى محبّ الدين الطبري عن عمران بن الحصين [34] قال :

بعث رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم جيشاً ، و استعمل عليهم عليّ بن أبي طالب ، فمضى في السريّة فأصاب جارية ، فأنكروا عليه ، وتعاهد أربعة من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم فقالوا : اذا لقينا رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم أخبرناه بما صنع عليّ . و كان المسلمون اذا رجعوا من السفر بدأوا برسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] وسلّم ، فلمّا قدمت السريّة فسلّموا على رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] وسلّم فقام أحد الأربعة فقال : يا رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ألم تَرَ الى عليّ بن أبي طالب صنع كذا و كذا ؟ فأعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، ثمّ قام الثاني فقال مثل

مقالته ، فأعرض عنه ، ثمّ قام الثالث فقال مثل مقالته ، فأعرض عنه ، ثم قام الرابع فقال مثل ما قالوا : فَأقبَلَ إليهِم رَسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه [و ءالِه] و سَلّم و الْغَضَبُ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ ، فقالَ : ما تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ ؟ مَا تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ ؟ ما تُرِيدُونَ مِنْ عَلِيٍّ ؟ إنّ عَلِيّا مِنِّي و أَنَا مِنْ عَلِيٍّ ، وَ هُوَ وَلِيّ كُلّ مُؤْمِنٍ بَعْدِي [35] .

بلى ، أنّى لأولئك الذين لم يتحمّلوا رؤية عليّ و هو يأخذ تلك الأَمَة بينما كان قوام الإسلام مرهوناً بتضحياته الفريدة ، أن يتحمّلوا رؤيته عليه السلام و هو يتزعّم جميع المسلمين في العالم و يُمسك بيده زمام أمور المسلمين ؟!

لذا فقد فعلوا معه ما فعلوا ، فقضى ثلاثين عاماً مُمتحناًيتجرّع الغصص ، الى أن انهالوا بالسيف على مفرقه الشريف و هو في محرابه ، ودفنوا تلك الروح الكليّة و الحياة السرمديّة تحت الأرض ، فبكى في عزائه قلوب الجنّ و الإنس و وحوشُ الفلوات و طيور السماء .

يكتب ابن الأثير : وَ أَنْبَأَنا جَدّي ، حَدّثَنا زَيْدُ بْنُ عَليّ عن عُبيدِاللهِ بنِ موسى ، حَدّثَنا الحَسنُ بنُ كثير عَنْ أبيه قالَ : خَرَج عَلِيّ لِصَلوةِ الفَجْرِ فَاسْتَقْبَلَهُ الأَوزُ يَصِحْنَ فِي وَجهِهِ ؛ قالَ : فجَعَلْنا نَطْرُدهنّ عَنْهُ .

فقالَ : دَعوهُنّ فإنّهُنَ نَوائحٌ ؛ وَ خَرَجَ فَأُصِيبَ [36] .

بلى لقد بكت طيور السماء و وحوش الفلوات في عزاء ابنه أيضاً ؛ يقول ابن شهر ءاشوب : و دفن جثثهم بالطفّ أهلُ الغاضريّة من بني أسد بعد ما قتلوه بيوم ، و كانوا يجدون لأكثرهم قبوراً ، و يرون طيوراً بيضاً [37] .

يروي المجلسي رضوان الله عليه عن بعض مؤلّفات الأصحاب انّه روي عن طريق أهل البيت :

أَنّهُ لَمّا استُشهِدَ الْحُسَيْنُ عليه السلامُ بَقِيَ فِي كَربَلا صَرِيعًا ، وَ دَمُهُ على الأرضِ مَسْفوحًا ، وَ إذا بِطايِرٍ أَبْيَض قَد أَتَى وَ تَمَسّحَ بِدَمِهِ ؛ وَ جَاءَ وَ الدّمُ يَقْطُرُ مِنهُ فَرَأى طُيُورًا تَحتَ الظّلاَلِ عَلَى الغُصُونِ وَالأَشْجارِ ، وَ كُلّ مِنهُم يَذْكُرُ الْحَبّ والْعَلَفَ و المَاءَ .

فَقَالَ لَهُم ذَلِكَ الطّيرُ المُلَطِخُ بالدّمِ : يَا وَيْلَكُمْ ! أَتشتغِلُونَ بِالمَلاَهي ، وَذِكْرِ الدّنيَا والمَناهي ، وَالحُسَيْنُ فِي أَرْضِ كَرْبَلاَ فِي هذَا الحَرّ مُلقًىَ عَلى الرّمضاءِ ظَامِئٌ مَذبُوحٌ وَ دَمُهُ مَسْفُوحٌ .

فَعَادَتِ الطُيورُ ، كُلّ مِنهُم قَاصِدًا كَرْبلاَ ؛ فَرَأُوا سَيّدَنَا الْحُسَينَ عَلَيْه السّلامُ مُلْقًىَ فِي الْأَرضِ جُثّةً بِلا رَأْسٍ وَ لاَ غُسلٍ وَ لاَ كَفَنٍ ، قَد سَفّتْ عَلَيهِ السّوافي ، وَ بَدَنُهُ مَرْضُوضٌ ، قَدْ هَشَمَتْهُ الْخَيلُ بِحَوَافِرِهَا ؛ زُوّارُهُ وُحُوشُ الْقِفَارِ ، وَ نَدَبَتْهُ جِنّ السّهُولِ و الأَوْعَارِ ، قَدْ أَضَاءَ التّرابُ مِن أَنوارِهِ ، وَ أَزْهَرُ الجَوّ مِن أَزهَارِهِ .

فَلَمّا رَأَتهُ الطّيورُ تَصَايَحْنَ ، وَ أَعْلَنّ بالْبُكاءِ والثّبورِ وَ تَوَاقَعْنَ عَلى دَمِهِ يَتَمَرّغْنَ فِيهِ ، وَ طارَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إلَى نَاحِيَةٍ يُعْلِمُ أَهْلَهَا عَنْ قَتْلِ أَبي عَبْدِاللهِ عليه السّلامُ [38] .

و نقرأ في زيارته عليه السّلام في أوّل رجب :

يَا أَبَا عَبدِاللهِ ، أَشْهَدُ لَقَدِ اقْشَعَرّتْ لِدِمَائِكُمْ أَظِلّةُ العَرْشِ مَعَ أَظِلّةِ الْخَلائِقِ ، وَ بَكَتْكُمُ السّمَاءُ و الْأَرضُ و سُكّانُ الجِنَانِ وَ البَرّ وَ البَحْرِ .

صَلّى اللهُ عَلَيْكَ عَدَدَ مَا فِي عِلْمِ اللهِ ، لَبّيْكَ دَاعِيَ اللهِ ، إنْ كَانَ لَمْ يُجِبْكَ بَدَنِي عِندَ اسْتِغاثَتِكَ ، وَ لِسَانِي عِنْدَ اسْتِنْصَارِكَ ، فَقَد أَجَابَكَ قَلْبِي وَ سَمْعِي وَبَصَرِي ، سُبحَانَ رَبّنَا ، إنْ كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولًا [39] .

(بدين وعده گر جان فشانم رواست.) [40]

فَبَشِيرِي لَوْ جَاءَ مِنكَ بِعَطْفٍ

وَ وُجُودِي في قَبْضَتِي قُلْتُ هَاكَا

بشكر ءانكه شكفتى بكام بخت اى گل

نسيم وصل ز مرغ سَحَر دريغ مَدار (41)

تعليقات:

1) الأية 32 ، من السورة 35 : فاطر .

و قد أورد ابن بابويه في تفسير هذه الأية الشريفة حديثًا عن الإمام الرضا عليه السلام بيّنه في مجلس المأمون في مرو ، و كان حاضرًا ءانذاك مع علماء العراق و خراسان فسأله المأمون عن تفسير هذه الأية . و هذا الحديث شيّق للغاية و حاوٍ لمطالب قيّمة . و قد ورد كذلك في كتاب (غاية المرام) ، ص 219 تحت عنوان : التاسع .

2) ذيل الأية 56 ، من السورة 11 : هود .

3) ذيل الأية 43 ، من السورة 35 : فاطر .

4) الأية 55 ، من السورة 54 : القمر .

5) الأيات 5 . 11 ، من السورة 53 : النجم .

6) صدر الأية 31 ، من السورة 2 : البقرة .

7) صدر الأية 30 من السورة 2 : البقرة .

8) صدر الأية 253 ، من السورة 2 : البقرة .

9) ينابيع المودّة) ، ص . 252

10) الرياض النضرة) ، ج 1 ، ص . 154

11) ينابيع المودّة) ، ص . 256

12) مروج الذهب) المجلّد الأول ، في طبعة مطبعة السعادة مصر ، 1367 هجرية ، ص 32 و 33 ؛ و في طبعة مطبعة دار الأندلس بيروت 1393 هجرية ، ص 42 و . 43 و ورد فيه لفظ (أراه) بدلاً من (أواه) .

13) مروج الذهب) المجلّد الأوّل ، في طبع مطبعة السعادة . مصر ، 1367 هجرية ، ص 37 ؛ و في طبع مطبعة دار الأندلس بيروت 1393 هجرية ، ص . 47

14) الأية 31 ، من السورة 35 : فاطر .

15) الأية 79 ، من السورة 56 : الواقعة .

16) الأية 3 و 4 ، من السورة 43 : الزخرف .

17) الأية 33 ، من السورة 3 : ءال عمران .

18) يروي أحمد بن حنبل هذا الحديث عن حديث زيد بن ثابت بطريقين صحيحين ، أوّلهما بداية ص 182 من الجزء الخامس من مسنده ، لكن العبارة هكذا : قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلم : انّي تارك فيكم خليفتين كتاب الله حبلٌ ممدود ما بين السمآء و الأرض او ما بين السماء الى الأرض و عترتي اهل بيتي و انّهما لن يفترقا حتّى يردا على الحوض . و ثانيهما في نهاية ص 189 من الجزء الخامس من مسنده ، لكنّ عبارته بهذه الكيفيّة : قال النبيّ : إنّي تارك فيكم نليفتين كتاب الله و أهل بيتي و انّهما لن يفترقا حتّى يردا على الحوض جميعاً . و يقول في تفسير (الدّر المنثور) ، ج 6 ، ص 7 : و أخرج الترمذي وحسن ابن الانباري في المصاحف عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم : إنّى تارك

فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي ، أحدهما أعظم من الأخر ، كتاب الله حبلٌ ممدودٌ من السماء الى الأرض و عترتي أهل بيتي ، و لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما .

19) كنز العمال) ، ج 12 ، ص 203 ، الحديث 1152 ، طبعة الهند . 1384

20) كنز العمال) ، ج 12 ، ص 201 ، الحديث 1130 ، طبعة الهند . 1384

21) الأية 53 ، من السورة 40 : المؤمن .

22) ينابيع المودّة) ، ص . 252

23) ينابيع المودّة) ، ص . 252

24) و لا يُستبعد أنّ الحديثين كانا كلاهما (في العدل) فصُحّف أحدهما الى (في العدد) .

25) الرياض النضرة) ، ج 3 ، ص 153

26) ينابيع المودّة) ، ص . 235

27) صحيح البخاري) ، ج 2 ، ص 299

28) الصواعق المحرقة) ، ص . 123

29) الرياض النضّرة) ، ج 3 ، ص . 149

30) ينابيع المودّة) ، ص . 236

31) ينابيع المودّة) ، ص . 233

32) أسد الغابة) ، ج 4 ، ص . 27

33) ينابيع المودّة) ، ص 53 و . 54

34) الرياض النضرة) ، ج 3 ، ص . 164

35) يبيّن في كتاب (عليّ و الوصيّة) من ص 352 الى 354 موارد عديدة شكى فيها البعضُ أميرالمؤمنين الى رسول الله فتغيّر صلوات الله عليه وءاله وردعهم وهدّدهم وسمّى عليّاً أخاً و وصيّاً و وليّ كلّ مؤمن .

36) أسد الغابة) ، ج 4 ، ص . 36

37) المناقب) ، ج 2 ، ص 224

38) بحار الأنوار) ، الطبعة الكمباني ، ج 10 ، ص . 241

39) ذكر ابن طاووس هذه الزيارة في ليلة النصف من شعبان في (الإقبال) ، ص 712 ، و قال انّها زيارة يُزار بها أوّل رجب ، ولكن لأن النصف من شعبان أعظم لذا فقد ذكرها فيه . كما ذكرها المحدّث القمّي في (هديّة الزائرين) ، ص . 113

40) يقول : لو نثرتُ روحي لهذا الوعد كان منّي حريّاً .

41) يقول : لكي تشكري أنّك أزهرتِ . ياوردةً . كما يتمنّى لك الحظّ ، فلا تبخلي عن طائر السَحَر بنسيم الوصال !

السَحَر بنسيم الوصال !

الدرس الثالث : في امتيازات العباد المصطفين

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلّا مَنِ ارْتَضَى مِن رّسُولٍ فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَلَتِ رَبّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلّ شَىْءٍ عَدَدًا (1) .

يمتلك الإنسان أعضاء و جوارح مختلفة ، كما يمتلك غرائز و صفات متفاوتة ، كالغضب و كالرغبة في الطعام ، و الدفاع عن النفس ، و حبّ الجاه و سائر اللذائذ ، و غريزة الإنتقام و العبوديّة و الإيثار و غير ذلك .

و من البيّن انّه يجب ان يستخدم كلّ واحد منها في محلّه المناسب ، ويصرفه بقدرٍ معيّن ، و الّا أصبح ذلك باعثاً على ضرره و هلاكه ، و السبب في ذلك عدم استخدامه لقوى العقل و الإدراك .

فلو أحبّ شخصٌ ما . مثلاً . عند تناول طعامه أن يتمتّع بشكل كامل وبلا حدٍّ معيّن بلذائذ الأطعمة ، فانّه سيموت نتيجة الإفراط في الأكل والشرب ؛ و لو انّ شخصاً لم يتبع عقله في إعمال غريزته الجنسيّة ، فانّه سيتهاوى في أحضان الموت بسبب الإفراط فيهلك .

انّ احدى الغرائز في الانسان هي حبّ الله و الوصول الى كمال الاطمئنان ، و الفوز بلقاء الله و الوصول الى مقام عزّه ؛ و ما لم يصل الإنسان الى هذه الغاية فانّه لن يهدأ و لن يستقرّ .

و يحتاج الانسان من أجل الوصول الى هذا المقام الى مجاهدة النفس الأمّارة ، أي الى أن يكون مراقباً لنفسه كلّ لحظة لئلاّ يرتكب أيّ عمل مخالف لرضا الله تعالى ، و لكي يكون عمله صالحاً حسناً ؛ فالإخلاص في العمل الصالح هو الوسيلة الوحيدة لإدراك المقصود ؛

فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَلِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبّهِ أَحَدًا (2) .

فيُعرض في كلّ خطوةٍ يخطوها عن نزوات النفس و تزيين إبليس ، ويتوكّل على الله و يُوكل قلبه اليه ، و يبعد الخواطر الشيطانيّة عن ضميره ، ويُسكّن نفسه المضطربة الجيّاشة بذكر الله تعالى .

و يحتاج هذا العمل الى مجاهدة النفس ، و الوصول الى منزل الإخلاص ليُصبح من المخلصين ، فلا يحسب له هدفاً في جميع الامور من العبادات و غيرها الاّ الله تعالى ، و يكون عمله خالصاً لوجهه الكريم .

و ذلك لأنّ قلب الإنسان لا يخلو من هجوم الأفكار و الخيالات الواردة على القلب ، حتّى حال السكون و الإستراحة ، إذ يهجم سيل الخواطر على قلب الإنسان بدون اختياره ، و لا تكفّ هذه الخواطر عنه حتّى حال نومه .

و لذلك ينبغي على الانسان من أجل تسكين القلب و تهدئته ، أن يقاوم هجوم الخواطر بذكر الله و المجاهدة القويّة للنفس ، و أن يحفظ قلبه عن أن تتصرّف فيه ، و أن يكفّ نفسه عن نواياه الشخصيّة كلّ لحظة ، فيرجحّ اختيار الباري و رضاه على اختياره و رضاه .

و اذا ما تمكّن الانسان ـ بعون الله و توفيقه ـ من الصمود في هذه المرحلة ، و في الاستمرار في مجاهدته ، فانّ جميع مراتب عبادة الشخصيّة و الإستكبار و النزعة الإستقلاليّة فيه ستودّع و تنصرف ، فيحلّ محلّها ذلّ العبوديّة نسبةً لساحة المعبود ، و روح طلب الله و الفاقة اليه سبحانه ، وسيخرج من عبادة نفسه الى عبادة الله و يشاهد في نفسه حقيقة العبوديّة ، فيسكن قلبه و يكفّ عن التقلّب و الجيشان ، و يُهدى من الإضطراب والحيرة الى الاطمئنان و السكينة ، و يصبح وجوده و سرّه منزّهاً و طاهراً ، لا تعرف الخواطر الشيطانيّة طريقها اليه ، و لا ترده سائر الخواطر الاّ بإذنه ، و لا تنفذ فيه الاّ بإجازته .

و ذلك لأنّ القلب سيصبح ءانذاك منزّهاً مصقولاً بصقل المحبّة والعبوديّة ، لذا فانّ الجمال و النور الالهي سيكونان مشهوديْن فيه ، وسيصبح مرءاةً يعكس ذات و أسماء و صفات المعبود ، و هذا هو مقام المخلصين الذي هو أعلى و أسمى المقامات .

و تبعاً للأيات القرءانية فانّ هذه الفئة تمتلك خصائص معيّنة هي :

أوّلًا : انّ الشيطان و النفس الأمّارة لا سلطان لهما عليهم ، فقد يأسا منهم يأساً تامّاً ، فلا يستطيعان النفوذ أو التأثير في نفوسهم و لو بأدنى قدر .

وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلّا عَبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (3) .

قَالَ فَبِعِزّتِك لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (4) .

انّ الشيطان يعترف هنا بعجزه عن حرفهم عن طريقهم ، لأنّ قلوبهم صارت محّلاً لله ، و جليّ أنّ مثل هذا المكان لا قدرة للشيطان على الاستيلاء عليه أو التصرّف فيه . و سيكون هؤلاء الافراد مصونين محفوظين دائماً في حرم الله من كلّ ذنب فعليّاً كان أو قوليّاً أو فكريّاً أو قلبياً أو سرّيّاً . كما انّهم سيخلون من كلّ خطأ و ذنب ، و سيكون فعلهم فعل الحقّ ، ولسانهم لسان الحقّ ، و أعينهم أعين الحق ، و ءاذانهم ءاذان الحقّ ؛ و في النهاية فانّ مركز وجودهم متعلّق بحضرة الحقّ ، و ستكون بيوت قلوبهم و أسرارهم كلّها مسلّمة خالصة لله المنّان .

و جليّ أنّ وارداتهم القلبيّة بإذن الحقّ و أمره ، و كلّ ما يتلقّاه ضميرهم من العوالم العلويّة ، سواءً في هيئة الوحي و تشريع الشريعة ، أو بعنوان إدراك المطالب الكليّة و العلوم الحقيقيّة و الاطّلاع على الأسرار والمغيّبات ، و ذلك من شأن الإمام و أولياء الله ؛ و على كلّ حال فانّ قلوبهم ستكون معصومة و عارية عن كلّ خطأ أو ذنب .

و ثانياً : باعتبار انّ أفكارهم و أسرارهم قد اتّسعت ، و انّهم قد اجتازوا جميع مراحل الوجود و تحقّقوا بذات الحقّ ، فانّهم ـ لذلك ـ يستطيعون أن يحمدوا الله و يُثنوا عليه كما يليق بذاته المقدّسة .

سُبْحَنَ اللهِ عَمّا يَصِفُونَ إلّا عِبَادَ اللهِ الْمُخلَصِينَ (5) .

ذلك لأنّ كلّ موجود يريد حمد الله فانّه يحمده حسب استعداده وظرفيّته ، و بقدر فكره و علمه ، و حضرة الحقّ أعلى من مقدار و مدى علمه و ظرفيّة وجوده ، لذلك فانّ أيّ موجود لن يستطيع أن يحمده كما يليق به و كما هو شأنه ؛ و عليه فانّ التسبيح ينبغي ان يقترن دوماً بالحمد ، أي اننّا في نفس اللحظة التي نحمدك فيها و نُثني عليك بجميع مراتب الجمال و الكمال ، فانّنا نُنزّهك و نقدّسك عن أن يكون حمدنا لائقاً بمقام عزّك و جلالك و عظمتك :

سُبْحَنَ رَبّيَ الأَعْلَى وَ بِحَمْدِهِ ـ سُبحَنَ رَبّيَ الْعَظِيمِ وَ بِحَمْدِهِ ـ وَ يُسَبّحُ الرّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ (6) .

فرعد السّماء و الملائكة يُسبّحون الله مع حمدهم له على الدوام ، وذلك خوفاً منه و إحساساً بحقارتهم أمام عظمته :

وَ إن مّن شَىْءٍ إلّا يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (7) .

إنّ جميع الموجودات بلا استثناء تعترف بتحميدها و تمجيدها بعدم وصول الحمد و الشكر الى ساحة قُدسه ، و لذا فانّها تقوم . مع حمدها . بالتنزيه و التقديس و تعتبر ذات الباري المقدّسة أعلى و أنزه من أمثال هذا الحمد . أمّا عباد‌الله المخلصين الذين لا يُشاهد فيهم أيّ جانب مستقلّ للوجود ، فقد صار وجودهم وجوداً للحقّ ، و قلوبهم عرشاً لذاته ؛ فانّهم يستطيعون أن يحمدوا الله كما يليق به . و في الحقيقة فانّ الله يحمد نفسه بنفسه .

و هذا التقريب لا يُنافي جملة (مَا عَرَفْنَاكَ حَقّ مَعْرِفَتِكَ) ، لأنّ مفاد هذه الجملة عرض الذلّ و الفقر في عالم الإمكان و الكثرة ، كما انّ مفاد :

سُبْحَنَ اللهِ عَمّا يَصِفُونَ إلّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (8) .

هو تحقّق الفناء الحقيقي في جميع مراتب الأسماء و الصّفات و ذات الحضرة الأحديّة ، و في ذلك المقام للفناء المطلق ، فانّ أدنى شائبة للوجود و لإظهار الأنانيّة هي الكفر و الشرك ، و ما أبعد ذلك عن ساحة إخلاص المخلصين !

و ثالثاً : فليس هناك مؤاخذة أو محاسبة و لا استجواب لهؤلاء ، وليس هناك سؤال في القبر و لا منكر و نكير ، و لا حشر و لا عرض ، و لا كتاب ولا ميزان و لا صراط :

فَإنّهُمْ لَمَحْضُرونَ إلّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (9) .

فكلّ بني الإنسان يحضرون امام عدل الله و يُسئلون و يُعرضون الّا عباد الله المخلصين الذين لا سؤال لهم و لا عرض ، لأنّهم تخطّوا محلّ المؤاخذة و السؤال بمجاهداتهم النفسانية و إخلاصهم في العمل و القول والفكر و السرّ ، و وردوا في حرم الله في المحلّ الرفيع المعدّ للمخلصين ، واستقرّوا هناك .

و في الحقيقة فانّ الإنسان الذي سلّم وجوده لله ، فلم يبقَ له شىء ليُسئل عنه ، بل انّ السؤال و الكتاب للذين فيهم شوائب من الربوبيّة ، والذين بدرت منهم أعمال تبعاً لتلك الشوائب ؛ امّا الّذي لم يبق فيه غير حقيقة العبوديّة المحضة ، و الذي تضجّ جميع مراتب وجوده بالنداء بفقره وحاجته و فاقته و ذلّ عبوديّته ، فكيف يُتصوّر له الحضور و السؤال ؟!

هؤلاء العباد لا يموتون ، بل هم أحياء دوماً بحياة الحقّ ، لأنّهم أصبحوا وجه الله و صاروا خلفاءه و مُظهري ذاته . و من الجليّ انّ الهلاك والبوار في المراحل التي يكون فيها الوجود غير وجود الحقّ و غير وجهه .

وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السّمَوَ تِ وَ مَنْ فِى الأَرْضِ إلّا مَن شَآءَ اللهُ (10) .

وَ نُفِخَ فِى الصّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السّمَوَاتِ وَ مَنْ فِى الأَرْضِ إلّا مَن شَآءَ اللهُ (11) .

و يُلاحظ في هاتين الأيتين أنّ الله سبحانه و تعالى قد استثنى فئةً ، وهم الذين تعلّقت بهم مشيئة الله فلا يريد لهم الهلاك ، فلا خوف و لا هلاك لهم .

و نشاهد من جانب ءاخر أنّ الله سبحانه و تعالى يقول انّ جميع الموجودات ستهلك بلا استثناء الاّ وجه الله .

كُلّ شَىْءٍ هَالِكٌ إلّا وَجْهَهُ (12) .

كُلّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَ يَبْقَى وَجْهُ رَبّكَ ذُو الجَلَلِ وَالإكْرَامِ [13] .

و نستنتج من هاتين الأيتين و اللتين قبلهما بأنّ نفس الأفراد الذين أخلصهم الله و الذين لا يموتون بواسطة النفخ في الصور ، هم الذين أصبحوا . بكلّ معنى الكلمة . وجه الله و مُظهري أمره ، أي أولياء الله والمقرّبين اليه .

و بضمّ هذه النتيجة الى الأية السابقة القائلة :

فَإنّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إلّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ .

فاننا نستفيد بأنّ عبادالله المخلصين ليس عليهم سؤال و لا استجواب و لا موت و لا إنعدام ، بل هم أحياء دوماً بحياة الحق ، حياةً سرمديّة دائمة .

رابعاً : انّ الله العليّ الأعلى لم يجعل لعباده المخلصين جزاءً محدوداً أو معيّناً ، لأن كلّ ما سيُعطيهم من الجنّة و نعيمها أقلّ من مقامهم و منزلتهم ، بل انّ جزاءهم نفس الذات الأحديّة و مشاهدة أنوار جمالها فقط .

وَ مَا تُجْزَوْنَ إلّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إلّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ [14] .

جزاؤهم لا يعدّ و لا يُحصى ، لأنّهم اجتازوا النفس و عالم المقدار ووصلوا الى بحر العظمة و الجلال ، لذا فانّ نفس التحقّق في ذلك المقام هو جزاؤهم اللامتناهي الذي لا حدّ له .

و الخلاصة فانّه يُستفاد من هذه الأيات التي وردت في شأن المخلصين و مقامهم و منزلتهم ، أنّ المخلصين من عبادالله هم غير سائر العباد من جميع الوجوه ، لأنّهم مصونون بصيانة الربّ ذي الجلال ، فليس فيهم أيّ ءافة من الذنب و المعصية التي تنجم عن سيطرة الشيطان و النفس الأمّارة . و هذا هو معنى العصمة من الذنوب التي يبيّنها الله تعالى في القرءان الكريم .

كَذَ لِكَ لِنَصْرِفُ عَنْهُ السّوءَ وَالْفَحْشَآءَ إنّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ [15] .

اي انّنا حفظنا يوسف عليه السلام من الابتلاء بالذنب مع زليخا ، لأنّه كان من عبادنا المخلصين ؛ فكلّ من ينال مرتبة و مقام المخلصين إذن سيكون محفوظاً و مصوناً من قبل الله تعالى من كلّ مُنكر و قبيح . يُضاف الى ذلك أنّ حياتهم باعتبارها قد أصبحت حياة الحقّ ، و انّهم قد اجتازوا عالم المقدار ، فليس فيهم بَعْدُ وجودٌ للخواطر المغيّرة و المبدّلة للنفس ، فانّهم سيمتلكون مقام العصمة في تلقّي المعارف الالهيّة و العلوم الكليّة وحفظها و إبلاغها ، و سيكونون مصونين بصيانة الحضرة الأحدية .

و يمكن الاستفادة من الأية الشريفة التي ذكرناها في مطلع الدرس في اثبات جميع المراتب الثلاثية للعصمة في الذين بُعثوا لهداية الناس وإرشادهم .

عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إلّا مَنِ ارْتَضَى مِن رّسُولٍ .

اي اولئك الذين يصبحون من جميع الجهات ، و من زاوية العقائد ، ومن زاوية الصفات النفسيّة و الروحيّة مورد رضا الله سبحانه ، و اولئك الذين نالوا مرحلة العبوديّة المحضة ، و خرجوا عن الغرور و العُجب والأنانيّة في جميع المراحل ، فأصبحوا مرضيّين من قبل الله .

و معلومٌ انّ الإنسان ما لم يصل الى هذه المنزلة ، فانّه لن يصبح مورداً للإرتضاء المطلق من ربّه [16] ، و هذه هي مرتبة المخلصين . و في هذه الحالة فانّ الله سيكشف له الستار و الحُجب القلبيّة و يُطلعه على علم غيبه و على كلّ ما هو خارج عن متناول يد جميع أفراد الجنّ و الإنس و الملائكة .

و بالطبع فلأنّ الله يُفهم الإنسان علمه الغيبيّ دون أي تغيير أو تبديل ، و دون أي نقص أو خلل ، فإن قلبه ينبغي أن يقع في مقام عصمة الله و صيانته ، و الّا لتصرّف بنفسه في تلقّي ذلك العلم و لأنحرف و بدّل في

أخذه ، و هذه هي مرحلة العصمة في تلقّي المعارف الحقّة :

فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَلتِ رَبّهِمْ وَ أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَ أَحْصَى كُلّ شَىْءٍ عَدَدًا (17) .

و لأنّ قلبه صافٍ و بعيد عن متناول يد الشيطان ، فانّه . بعد التلقّي الصحيح . سيحفظ كلّ تلك المعارف و العلوم الكليّة و يحوّلها و ينقلها كما أخذها ، و هذه هي مرحلة في تبليغ و إيصال الأحكام و المعارف .

فالله سبحانه و تعالى يجعل رصداً و حرّاساً في أطراف قلبه و جوانبه و بين يديه و من خلفه لكي لا تؤثّر فيه إلقاءات الجنّ و الإنس ، و لا تجد وساوس النفس و ابليس سبيلاً إلى قلبه ، و هذه هي المصونيّة الالهيّة ، لأن الله اذا وكلَ الإنسان الى نفسه و رفع يده عن حمايته و حفظه ، فانّه سيواجه ءالاف الأفات ، فذلك القلب محفوظ عن جميع الشرور ،

مِنْ شَرّ الْخَنّاسِ الّذِى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ

، و من شرّ جميع ما خلق ،

و من شَرّ النّفّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ و من شَرّ حَاسِدٍ إذَا حَسَدَ ؛

لا يؤثّر عليه سحرٌ و لا طلسمة ، و لا قدرة النفس الأمّارة بالسوء أبداً .

و لو اجتمعت المخلوقات و اتّحدت لحرفه عن مقصده و مسيره ، او لتتصرّف فيه خلافاً للعلوم الكليّة و المعارف الحقّة ، او لتغيّر معلوماته وإدراكاته ، فانّها لن تفلح و لن تستطيع ، و ذلك لأنّ قلب المؤمن تحت مصونيّة الله و رصده ، فقد عين الله موكّلين لحراسته و لحفظه من بين يديه و من خلفه ، و ذلك من أجل ان يقوم بتبليغ رسالات الله و أحكامه بصورة صحيحة و كاملة ، لكي لا يتخطّى هؤلاء المؤمنون وظيفتهم ؛ والله سبحانه محيطٌ بجميع أمورهم و مطّلع على جزئيّات و كليّات إنجازاتهم و أمورهم ؛ و هذه هي مرحلة العصمة في التبليغ و التحويل .

و امّا مرحلة العصمة من المعصية ، فهي أيضاً غير خارجة عن مدلول الأية بالتقريب السّابق ، و ذلك لأنّه اذا ما ارتكب رسولٌ ذنباً فانّه سيكون بفعله قد أعلن ترخيصه له ؛ و لأنّه قد أعلن حُرمة ذلك الذنب قبلاً بقوله وكلامه ، فانّه سيكون قد دعا الى متناقضين ؛ و المتناقضان ليسا حقّاً ، بل انّ من المسلّم انّ أحدهما باطل ، في حين انّ قلب رسول الله مُصان عن تلاعب الشيطان ، فقد كان و سيبقى متحقّقاً بالحق .

و تبيّن ملائكة الوحي هذه الحقيقة للرسول في سورة مريم :

وَ مَا نَتَنَزّلُ إلّا بِأَمْرِ رَبّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَ مَا كَانَ رَبّكَ نَسِيّا (18) .

و هكذا فانّ المطالب التي ذكرت تُثبت عصمة الأنبياء و الأئمّة عليهم السلام في جميع المراحل ، بل و تثبتها كذلك للخاصّين و المقرّبين من أولياء الله تعالى .

مقام أميرالمؤمنين عليه السلام :

أمّا بالنسبة الى أميرالمؤمنين عليه السلام ، فهو قائد للمعارف الحقّة وصاحب لواء الحمد ، و السابق في مراحل التوحيد ؛ فقد جاء به الله سبحانه في بيته و حرمه (الكعبة) بعد أن حفظ نوره المقدّس في الأصلاب نسلاً بعد نسل ، من ءادم الى أبي طالب .

اسمه المبارك : عليّ ؛ و كُنيته : أبوالحسن ؛ و والده : أبوطالب بن عبدالمطّلب بن هاشم بن عبد مناف ؛ و أبوطالب أخو عبدالله والد الرسول ، و على هذا فانّه ابن عمّ رسول الله ، تجتمع نسبتهما في جدّهما

عبدالمطلب .

و كان أبوطالب من أكابر أهل مكّة و ممّن خدموا رسول الله ، فقد كان يحامي عنه بحيث أنّ أحداً من مشركي قريش لم يستطع أن ينال الرسول بأذى في حياة أبي طالب و كان أبوطالب يحفظ النبيّ و يحرسه و سائر بني هاشم لمدّة ثلاث سنوات في الشعب المعروف بشعب أبيطالب ، و كان يفدي رسول الله بنفسه و يحميه حتّى رحل عن هذه الدنيا ، و عندها تطاولت الأيادي المتجاوزة و المتجاسرة على رسول الله من قبل المشركين ، فأُجبر النبيّ الأكرم على الهجرة الى المدينة .

و كان أبوطالب من المؤمنين الواقعيين و المسلمين الحقيقيين برسول الله [19] ، و أشعاره التي نظمها في مدح رسول الله كثيرة و مثبتة في كتب الأحاديث و التاريخ ، لكنّه كان يكتم إيمانه عن قريش لأسباب ، من أهمها المحافظة على رسول الله و حراسته ، و كان الرسول كثير المحبّة له وكان يخاطبه ب (أبي) .

اسم والدته : فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ؛ و لأنّ أسد كان أخاً لعبد المطّلب ، لذا فانّ أباطالب و فاطمة كانا ابني عمّ بعضهما . وكانت فاطمة بنت أسد والدة أميرالمومنين من أعلام النساء المسلمات ، وهي أوّل امرأة ءامنت برسول الله بعد خديجة ؛ و كانت تحبّ رسول الله كثيراً ، و كان الرسول يخاطبها ب (أمّي) .

فاطمة بنت أسد أوّل امرأة هاجرت من مكّة الى المدينة :

يقول ابن الجوزي : وَ هِيَ أَوّلَ امْرَأَةٍ هَاجَرَتْ مِن مَكّةَ إلَى الْمَدِينَةِ مَاشِيَةً حَافِيةً ، وَ هِيَ أَوّلُ امْرَأَةٍ بَايَعَتْ رَسُولَ اللهِ صَلّى اللهُ عليه [و ءَالِه] وَسَلّم بِمَكّةَ بَعْدَ خَدِيجَةَ [20] .

و يقول ابن الصبّاغ المالكي : فاطمة بنت أسد ، أسلمت و هاجرت مع النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، و كانت من السابقات الى الإيمان بمنزلة الأم من النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ... فلمّا ماتت كفنّها النبيّ صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم بقميصه ، و أمر أسامة بن زيد و أبا أيّوب الأنصاري فحفرا قبرها ، فلمّا بلغا لحدها حفره رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم بيديه و أخرج ترابه ، فلمّا فرغ اضطجع فيه و قال :

اللهُ الّذِى يُحْيِي و يُمِيتُ وَ هُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ اللّهُمَ اغْفِرْ لِأُمِيّ فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ وَ لَقّنْهَا حُجّتَهَا وَ وَسّعْ عَلَيهَا مُدْخَلَهَا بِحَقّ نِبِيّكَ مُحَمّدٍ وَالأنبياءِ الّذِينَ مِن قَبْلِي فَإنّكَ أَرْحَمُ الرَاحِمِينَ [21] .

فقيل [22] : يا رسول الله ! رأيناك وضعت شيئاً لم تكن وضعته بأحد قبلها ؟!

فقال صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : ألبستُها قميصي لتلبس من ثياب الجنّة ، و اضطجعتُ في قبرها ليخفّ عنها من ضغطة القبر ، انّها كانت من أحسن خلق الله صُنعاً اليّ بعد أبي طالب رضي الله عنهما و رحمهما [23] .

يقول سبط ابن الجوزي : و كانت وفاة فاطمة بنت أسد في السنة الرابعة للهجرة [24] .

و قد أنجب أبوطالب و فاطمة بنت أسد أربعة أولاد هم بالترتيب : طالب ، و عقيل ، و جعفر ، و عليّ ، و كان كلّ واحد منهم أسنّ من الأخر الذى يسبقه بعشر سنين ، كما انجبا بنتاً واحدة تسمّى فاختة و تكنّى ب (امّ هاني) [25] .

و ليس هناك من شكّ في أنّ عليّاً عليه السلام ولد في جوف الكعبة بيت الله ، و في ذلك يقول السيّد الحميري :

وَلَدتُهُ فِي حَرَمِ ءالإلَهِ وَ أَمْنِهِ
وَالْبَيتِ حَيثُ فِنَائُهُ والْمَسْجِدُ
بِيضَاءُ طَاهِرَةُ الثّيابِ كَرِيمَةٌ
طَابَت وَ طَابَ وَلِيدُهَا وَالْمَولِدُ
فِي لَيْلَةٍ غَابَت نُحُوسُ نُجُومِهَا
وَ بَدَت مَعَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ الأَسْعَدُ
مَالُفّ فِي خِرَقِ الْقَوابِلِ مِثلُهُ
إلّا ابنُ ءامِنَةَ النَبِيّ مُحَمّدُ (26) .

يقول المستشار عبدالحليم الجُندي ، أحد أركان المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية في مصر في كتابه القيّم (الإمام جعفر الصادق) ص 31 :

و عليّ في كثير من الأمور هو الأوحد ، فالنبيّ هو الذي ربّاه ، و ءاخاه ، و أعدّه للعظائم فصنعها ، و عَهِد اليه في تبليغ ءاي القرءان ... و هي جميعها خصوصيّات لا يرقى رقيّه فيها أحد ؛ أما ما لم يشركه فيه بشر فهو ما أجمعت عليه كتب الشيعة و شاركها فيه كثيرون من علماء اهل السنّة منذ القرون الاولى . كالمسعودي و الحاكم و الكنجي . حتى القرون الحديثة . كالآلوسي . و هو أَنّ عَلِيّا وُلِدَ بِالْكَعْبَةِ .

كما يقول عبدالباقي عمر في هذا الشأن:

أَنتَ العَلِيّ الّذِي فَوقَ العُلَى رُفِعَا
بِبَطنِ مَكّةَ وَسط الْبَيتِ إذ وُضِعا (27)

و يقول الحاكم النيسابوري : لَم يُولَدْ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ قَبْلَ عَلِيٍّ وَ لاَ بَعدَهُ مَوْلُودٌ إكرامًا لَهُ وَ إجلاَلًا لِمَحَلّهِ .

كما يقول ابن الصبّاغ المالكي : وُلِدُ عَلِيّ عَليه السلام بِمَكّةَ الْمُشَرّفَةِ بِدَاخِلِ الْبَيتِ الْحَرَامِ فِي يَومِ الْجُمُعَةِ الثّالِثِ عَشَرَ مِن شَهْرِ اللهِ الأصمّ ، رَجَبِ الْفَردِ سَنَةَ ثَلاثِينَ مِن عَامِ الْفِيلِ ، قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِثلاثٍ و عِشرِينَ سَنَةً ، وَ قِيلَ بِخَمْسٍ وَ عِشرِينَ ، وَ قَبْلَ الْبَعثِ بِاثنَتَى عَشَرة سَنَةً ، وَ قِيلَ بِعَشرِ سِنِينَ ، وَ لَمْ يُولَد فِي الْبَيتِ الْحَرَامِ قَبْلَهُ أَحَدٌ سِوَاهُ ، وَ هِيَ فَضِيلَةٌ خَصّهُ اللهُ تَعَالَى بِهَا إجْلاَلًا لَهُ وَ إعْلاَنَاً لِمَرتَبَتِهِ وَ إظْهَارًا لِتَكْرِمَتِهِ ، وَ كَانَ عَلِيّ هَاشِمِيّا مِن هَاشِمِيّينِ وَ أَوّل مِن وَلَدَهُ هَاشِمُ مَرّتَينِ (28) و (29) و (30)

كيفيّة ولادة أميرالمؤمنين في الكعبة :

أمّا في كيفيّة ولادته فقد ورد أنّه :

أتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أمّ أميرالمؤمنين عليه السّلام ، و كانت حاملة بأميرالمؤمنين عليه السلام لتسعة أشهر ، و كان يوم التمّام ، قال : فوقفت بإزاء البيت الحرام و قد أخذها الطلق ، فرمت بطرفها الى السماء وقالت : أي ربّ ، إنّي مؤمنة بك و بما جاء من عندك الرسولُ ، و بكلّ نبيّ من أنبيائك ، و بكلّ كتابٍ أنزلتَه ، و انّي مصدّقة بكلام جدّي ابراهيم الخليل وانّه بنى بيتك العتيق . فأسألك بحقّ هذا البيت و مَن بناه ، و بهذا المولود الذي في أحشائي الذي يكلّمني و يؤنسني بحديثه ، و أنا موقنةٌ أنّه إحدى ءاياتك و دلائلك لمّا يسّرتَ عَلَيّ ولادتي .

قال العبّاس بن عبدالمطّلب و يزيد بن قعنب (و كانا يشهدان ذلك) : لمّا تكلمّت فاطمة بنت أسد ودعت بهذا الدعاء ، رأينا البيت قد انفتح من ظهره (في موضع المُستجار) و دخلت فاطمة فيه و غابت عن أبصارنا ، ثمّ عادت الفتحة و التزقت بإذن الله (تعالى) ، فرُمنا أن نفتح الباب ليصل اليها بعضُ نسائنا فلم ينفتح الباب ، فعلمنا أنّ ذلك أمر من أمر الله (تعالى) .

و بقيت فاطمة في البيت ثلاثة أيّام . قال : و أهلُ مكّة يتحدّثون بذلك في أفواه السكك و تتحدّث المخدّرات في خدورهنّ .

قال : فلمّا كان بعد ثلاثة أيّام انفتح الباب من الموضع الذي كانت دخلت فيه ، فخرجت فاطمة و عليّ على يديها [و هي تقول : مَن مثلي يلد ولداً كهذا في جوف الكعبة؟!] (31) .

و امّا ما نقله ابن الصبّاغ المالكي عن كتاب المناقب لأبي المعالي الفقيه المكّي فهو :

روى خبراً يرفعه الى عليّ بن الحسين [عليهما السلام] انّه قال : كنّا عندالحسين (رض) في بعض الأيّام و اذا بنسوة مجتمعين فأقبلت امرأة منهنّ علينا ، فقلتُ لها : مَنْ أنتِ يرحمك الله ؟ قالت : أنا زيدة ابنة العجلان من بني ساعدة .

فقلتُ لها : هل عندك من شيء تحدّثينا به ؟! قالت : أي والله ، حدّثتني أم عمارة بنت عبادة بن فضلة بن هالك بن عجلان الساعدي انّها كانت ذات يوم في نساء من العرب ، إذ أقبل أبوطالب كئيباً حزيناً ، فقلتُ له : ما شأنُك ؟ قال : إنّ فاطمة بنت أسد في شدّة من الطلق . ثمّ انّه أخذ بيدها وجاء بها الى الكعبة فدخل بها و قال : اجلسي على إسم الله ، فطلقت طلقةً واحدة فولدت غلاماً نظيفاً منظّفاً لم أرَ أحسن وجهاً منه ، فسمّاه أبوطالب عليّاً ، وقال شعراً :

سُمّيْتُهُ بِعَلِيّ كَيْ يَدُومَ لَهُ
عِزّ الْعُلُوّ وَ فَخْرُ الْعِزّ أَدْوَمُهُ

و جاء النبيّ صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم فحمله معه الى منزل أمّه . قال عليّ بن الحسين : فواللهِ ما سمعتُ بشيء حسن قطّ الّا و هذا من أحسنه (32) .

و يروي الشيخ سليمان القندوزي عن كتاب (مودّة القربى) عن العبّاس بن عبدالمطّلب قال : لمّا ولدت فاطمة بنت أسد عليّاً سمّته بإسم أبيه أسد و لم يرضَ أبوطالب بهذا الإسم فقال : هلمّ حتّى نعلو أبا قبيس ليلاً وندعوا خالق الخضراء ، فلعلّه أن ينبئنا في إسمه ، فلمّا أمسيا خرجا و صعدا أباقبيس و دعيا الله تعالى ، فأنشأ أبوطالب شعراً :

يَا رَبّ يَا ذَا الْغَسَقِ الدّجِيّ
وَالْفَلَقِ الْمُبتَلِجِ الْمُضِيّ
بَيّنْ لَنَا عَن أَمْرِكَ الْمَقضِيّ
بِمَا نُسَمّي ذَلِكَ الصّبِيّ

فإذا خشخشة من السماء ، فرفع أبوطالب طرفه فإذا لوح مثل زبرجد أخضر فيه أربعة أسطر ، فأخذه بكلتا يديه و ضمّه الى صدره ضمّاً شديداً ، فاذا مكتوب :

خُصِصْتُمَا بِالْوَلَدِ الزّكِي
وَالطّاهِرِ الْمُنَتَجَبِ الرّضِيّ
وَ إسْمُهُ مِن قَاهِرِ العَلِيّ

عِلِيّ اشتُقّ مِنَ الْعَلِيّ

فسُرّ أبوطالب سروراً عظيماً و خرّ ساجداً لله تبارك و تعالى ، و عقّ بعشرة من الإبل ، و كان اللوح معلّقاً في بيت الحرام يفتخر به بنوهاشم على قريش حتىّ غاب زمان قتال الحجّاجِ ابنَ الزبير [33] .

تعليقات:

1) الأية 26 الى 28 ، من السورة 72 : الجنّ .
2) ذيل الأية 110 ، من السورة 18 : الكهف .
3) الأية 39 و 40 ، من السورة 15 : الحجر .
4) الأية 82 و 83 ، من السورة 38 : ص .
5) الأية 159 و 160 ، من السورة 37 : الصافّات .
6) صدر الأية 13 ، من السورة 13 : الرعد .
7) ذيل الأية 44 ، من السورة 17 : الإسراء .
8) الأية 159 و 160 ، من السورة 37 : الصافّات .
9) الأية 127 و 128 ، من السورة 37 : الصافّات .
10) صدر الأية 87 ، من السورة 27 : النمل .
11) صدر الأية 68 ، من السورة 39 : الزّمر .
12) مقطع من الأية 88 ، من السورة 28 : القصص .
13) الأية 26 و 27 ، من السورة 55 : الرحمن .
14) الأية 39 و 40 ، من السورة 37 : الصّافّات .
15) ذيل الأية 24 ، من السورة 12 : يوسف .
16) . و يرد هنا هذا السؤال : كيف يكون المراد بالإرتضاء هو الإرتضاء المطلق ، بينما المراد بالإرتضاء في الأية 28 من سورة الأنبياء : (وَ لَا يَشْفَعُونَ إلّا لِمَن ارْتَضَى) ارتضاءً في الدين و العقيدة ؟

و الجواب : لأنّ الشفاعة عائدة لأهل المعصية ، و هي الكبائر ، بدليل الأية 32 من سورة النجم : لِيَجْزِيَ الّذِينَ أَسَؤُا بِمَا عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الّذِين يَجْتَنِبُونَ كَبَئِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ إلاّ اللّمَمَ ؛ التي تعدّ من المحسنين الذين يجتنبون الكبائر فقط . و قد قال الرسول صلّى الله عليه و ءاله : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي ، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل) . و جاء في سورة النساء ، الأية 30 :

إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ؛ و على ذلك فانّ نفس الاجتناب عن الكبائر مكفّر للسيّئات و المعاصي الصغيرة .

و على هذا الأساس فانّ المراد بالإرتضاء في ءاية الشفاعة لابدّ ان يكون . بمناسبة الحكم و الموضوع . الإرتضاء في الدين و العقيدة لا الإرتضاء في السرّ و الذات و العمل ، لأنّ الذي تصبح ذاته و سرّه مورداً للإرتضاء فليس هناك من معنى للشفاعة له . و يؤيّد هذا المعنى الروايات الواردة عن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ، التي يفسّر فيها الإمام الإرتضاء في ءاية الشفاعة بالإرتضاء في الدين (في تفسير الميزان ، المجلّد الاول ، ص 171 فما بعد ، و المجلّد الرابع عشر ، سورة الأنبياء الأية 28 ، روايات تدلّ على هذا المقصود) . وتبقى ءاية الإرتضاء تلك حول علم الغيب باقيةً على إطلاقها بمناسبة الحكم و الموضوع ؛ امّا بشأن الشفاعة فانّها سيكون لها كذلك إطلاق في الدين و العقيدة .

17) الأية 27 و 28 ، من السورة 72 : الجنّ .

18) الأية 64 ، من السورة 19 : مَريم .

19) يُرجع الى كتاب (أبوطالب مؤمن قريش) تأليف عبدالله الخنيزي ، و كتاب (الحجّة على الذاهب الى تكفير أبي طالب) تأليف فخار بن سعد بن فخار الموسويبن معد الموسوي الحائري الذي يروي عن ابن ادريس الحلّي ، و يروي عنه المحقّق الحلّي ، و يرجع كذلك الى كتاب (أبوطالب حامي الرسول و ناصره) تأليف العلّامة نجم الدين الشريف العسكري .

20) الفصول المهمّة) لابن الصبّاغ ، هامش الصفحة 13 ؛ و (تذكرة السبط) ابن الجوزي ، ص . 6

21) الفصول المهمّة) ، ص . 13

22) و ينقل ابن الأثير ذيل كلام ابن الصبّاغ في (أسد الغابة) ، ج 5 ، ص . 517

23) الى هنا كلام ابن الصبّاغ .

24) تذكرة الخواص) ، ص . 6

25) الفصول المهمّة) لابن الصبّاغ ص 12 نقلاً عن ضياء الدين أبي المؤيد الموفّق بن أحمد الخوارزمي في كتابه (المناقب) .

26) ديوان الحِمْيَري) ، ص 155 ، و يقول جامع الديوان ان تخريج هذه الأبيات من (أعيان الشيعة) ، ج 12 ، ص 240 ؛ و (المناقب) ، ج 2 ، ص 175 ؛ و (دلائل الصدق) ، ج 2 ، ص . 328

27) تعليقة أشعار الحميري في ديوان الحميري ، ص . 155

28) الفصول المهمّة) ، ص 12 ؛ و كذلك قال ابن الأثير في (أسد الغابة) ج 4 ، ص 14 : و هو أوّل هاشمي ولد بين هاشميين . ل

29) ل . عليّ أميرالمؤمنين عليه السّلام ليس أوّل هاشمي ولد من هاشيميّين ، اذ انّ أخاه الأكبر له هذه الصفة .

30) ل . ذكر في كتاب الغدير ، ج 6 ، من ص 21 الى 38 الروايات الواردة في ولادته عليه السلام في جوف الكعبة مع أسنادها و أسماء علماء أهل السنّة الذين أوردوها في كتبهم والشعراء الذين أنشدوا فيها قصائداً .

31) غاية المرام) ، ص 13 ، عن كتاب (الأمالي) للشيخ الطوسي . و العبارة بين القوسين المعقوفين ترجمة النصّ كما ورد بالفارسيّة .

32) الفصول المهمّة) ، ص 12 ؛ و (غاية المرام) ، ص 13 نقله عن طريق العامّة عن كتاب (المناقب) لابن المغازلي الشافعي .

33) ينابيع المودّة) ، ص . 255

33) ينابيع المودّة) ، ص . 255

الدرس الرابع : لزوم عصمة الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدّين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

وَ كَذَ لِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَبُ وَ لَا الإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَن نّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا (1) .

الصفات المعتدلة في الإنسان :

يوجد في الإنسان صفات حسنة مثل الشجاعة و السخاء و العفّة وغيرها ، إذا ما أعمل كلّاً منها في موقعه المناسب و بالمقدار المعيّن الضروري ، فانّ هذه الصفات ستكون صحيحة و مُفيدة ، امّا إذا جاوزت حدودها و عَمِل بخلافها فانّها ستكون خطأ و باعثاً على الضرر .

و يُقال لعكس هذه الصفات صفات الرذيلة ، و هي الإفراط والتفريط في حدود هذه الصفات ؛ فالشجاعة مثلاً ، و هي ملكة حسنة ، تمثّل الحدّ المتوسّط و المعتدل و الممدوح بين الطرفين المذمومين ، ففي ناحية التفريط و النقص في تلك المَلَكة عنوان الجُبن و الخوف و هو من الصفات الرذيلة ، بينما هناك في ناحية الإفراط و التطرّف عنوان التهوّر و اللامبالاة وهو أيضاً أمر خاطىء و غير حسن . و على الإنسان أن يحافظ في نفسه دائماً على هذه الصفة في حدّ الإعتدال ، و لا يسمح لها أن تنزل عن حدّها فتسقط الى مرحلة الجُبن ، و لا أن تصعد حتّى تبلغ مرحلة التهوّر واللامبالاة .

و الأمر كذلك في العفّة و هي من الصفات الحسنة جداً ، لكنّها اذا تنزّلت عن حدّها فانّها ستنجرّ الى مرحلة الخمود ، أي عدم الإحساس والكسل ، و حينذاك تصبح قبيحة غير مقبولة ، و اذا صارت أقوى من حدّها فانّها ستنجرّ الى مرحلة الهتك و الشَرَه ، و هي أيضاً من القبائح و الذمائم .

و ينبغي على الإنسان أن يكون دوماً مواظباً و مراقباً لتحيى فيه الملكة المعتدلة بإسم العفّة ، فلا تسقط . لا سامح الله . الى مرحلة الخمود أو تصل الى مرحلة الهتك و الشَرَه ، حيث ان تلك الملكة الحسنة ستموت في تلك الحالتين ، فتحيا في الإنسان بدلها إحدى هاتين الحالتين غير الممدوحتين ، فتصبح حياته حياة النفس الأمّارة .

و السّخاء أيضاً هو الحدّ الأوسط و الدرجة الحسنة ، و ما لم يُصرف في موقعه أو مكانه لترتّب عليه عنوان البُخل ، امّا اذا جاوز حدّه لترتّب عليه عنوان التبذير و الإسراف ، و من المعلوم انّ كلّاً من هاتين الحالتين فاسد وغير حسن . و يجب على الإنسان ان يسعى لتوجد عنده حالة التعادل بإسم ملكة السخاء ، و أن يمتنع عن الإفراط و التفريط اللذين هما مرتبة التبذير والبخل . و سيكون الإنسان في هذه الحال إنساناً صحيحاً و متعادلاً .

انّ تلك القوّة الموجودة في الإنسان ، و التي يحافظ بواسطتها على هذه الصفات متعادلة هي العقل ؛ و بسبب دراية العقل بالمصالح و المفاسد و تمييزه منافع الأشياء و مضارّها ، فانّه سيكون مقيّدًا لتلك الصفات

المذمومة كالسلسلة و مانعاً من حركتها و بروزها ؛ و ما دامت القوة العقليّة تعمل بوظيفتها في انتظام هذه القوى ، فانّ أيّاً منها لن يستطيع التجاوز عن حدّه و الظهور ، ولكن لأنّ أصل هذه الصفات و جذورها موجود في جميع أفراد الإنسان بلا استثناء ، حتّى في الأخيار و الرجال المتّقين و أصحاب الفضيلة و العلم ، و لأنّ بذورها موجودة في القلب في انتظار الفرصة ، فانّها لن تتوانى . عندما تتهيّأ لها هذه الأرضيّة المناسبة و عندما تسمح لها الفرصة . عن الهجوم لتسحق ملكة التقوى و العلم و الفضيلة و البصيرة ، لتطلع في الإنسان و تبرز من جديد .

و يحصل كثيراً انّ المريض الذي يمنعه الطبيب من أكل الطعام سيمتنع عن تناول ذلك الطعام ، بسبب عقله و إدراكه لمنافع الإحتراز عن الأكل ؛ و لكن اذا ما توفّرت الأرضيّة المناسبة أحياناً كالجوع و اشتهاء الطعام ، و كان هناك طعامٌ لذيذ يجري طبخه في البيت تحرّك رائحته المتصاعدة من بعيد قوّة الاشتهاء لدى المريض ، و اذا اتّفق عدم وجود أحد في البيت ليستحيي المريض منه و يتمالك نفسه ، فانّه كثيراً ما يحصل ان تتصاعد رغبة اشتهاء الطعام في وجوده الى حدّها الأقصى فينهض فجأةً ويأكل من ذلك الطعام حتّى يشبع .

و عندما يشبع و يسقط في سريره فانّه سيعضّ على اصبعه ندماً أن : أيّ عملٍ ارتكبتُ مع وجود عملية جراحية في المعدة او الأمعاء ؟!! من المسلّم أنّ عليّ الإستعداد لاستقبال المقبرة بعد ساعات .

و كذلك الأمر اذا عملت التقوى بوظيفتها و أمسكت زمام الشهوة بيدها و أسرتها تحت سيطرتها ، فانّ من المستحيل على الشخص أن يرتكب الزنا أو أن يعمل عملاً منافياً للعفّة ؛ ولكن و بسبب وجود الشهوة الجنسيّة في كيان ا لإنسان ، فانّها كثيراً ما تكسر هذا الطوق عند وجود الأرضيّة المناسبة ، فحين تشتدّ هذه القوّة في محلّ الخلوة و عند انعدام أيّ رادعٍ و مانع خارجي ، و عند عدم وجود المؤاخذة ، و خاصّة اذا اقترن ذلك برغبة الطرف الأخر أو دعوته و طلبه لذلك ؛ فانّ هذه القوّة ستطلع فجأة وسيرتكب هذا الشخص مثل هذا العمل القبيح .

و من المؤكّد أنّه في حال طلوع الشهوة و بروزها ، فانّها ستسبّب النكبة للعقل و المعرفة و التقوى و العلم بمفاسد هذا العمل و أضراره ، بحيث انّها ستعجز عن الوقوف بوجهها . و من المسلّم ان لا وجود للتقوى والعقل في تلك الحال ، و لا للعلم و المعرفة ؛ و الاّ فكيف سيمكن لهذه الغريزة . مع وجود هذه الأمور . أن تتخطّى حدودها ؟!

فقد روي عن رسول الله صلّى الله عليه و ءاله : لَا يَزنِي الزّانِي حِينَ يَزْنِي وَ هُوَ مُؤمِنٌ وَ لَا يَشْرَبُ الشّارِبُ حِينَ يَشْرَبُ وَ هُوَ مُؤمِنٌ (2) .

كما انّه كثيراً ما تبدر من العلماء و أهل البصيرة كلمة قبيحة في مواقع معيّنة أثناء مباحثاتهم و حينما يُغلبون ، أو من أجل التنكيل بخصمهم والغلبة عليه في مقام المناظرة و المجادلة ؛ إذ يتفوّهون بعبارة غير لائقة يندمون بعدها و يقولون مع أنفسهم : لقد كنّا أصحاب ملكة العفّة ، و لقد قررّنا مع أنفسنا ألاّ نكذب و لا نغتاب و لا نَسُبّ و لا نشتم و لا تصدر منا كلمة تدلّ على عيب خصمنا أو نقصه ، فما بالنا نتفوّه بمثل هذه الكلمة بلا تأمّل أو تفكير بعاقبة الأمر ؟ ما بالنا هتكنا ستار عفّة لساننا ؟

انّ هذه و أشباهها جميعاً مسبّبة عن وجود صفة الرذيلة في القلب وتقييدها بقيد العقل و حفظ المصالح الخارجيّة ، فتبقى دائماً بالمرصاد لتقتنص صيدها في الوقت المناسب و تحقّق رغبتها.

و كما قد ذُكر ، فاننّا نشاهد أحياناً مثل هذه البروزات و الظهورات في جميع أفراد البشر بلا استثناء . يقول العالم الشهير فيلسوف الشرق أبوعلي بن سينا : أُلَخّصُ لك الطبّ في جملتين :

اِسْمَعْ جَمِيعَ وَصِيّتِي فَاعْمَلْ بِهَا
فَالطّبّ مَجْمُوعٌ بِنَظْمِ كَلاَمِي
أَقْلِلْ جِمَاعَكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنّهُ
مَاءُ الْحَيَاةِ تَصُبّ فِي الأَرْحَامِ
إِجْعَلْ غِذَائَكَ كُلّ يَومٍ مَرّةً
وَاحْذَرْ طَعَاماً قَبْلَ هَضْمِ طَعَامِ (3)

قيل انّه سُئل : ما دمت تعرف مضارّ الإفراط في الجماع ، فلماذا صرت تفرط فيه ؟ فأجاب : أحبّ أن استفيد من كيفيّة عمري لا من كميّته .

كما انّ أكثر الأطبّاء يعلمون جيّداً أضرار المشروبات الكحوليّة ، وكانت لهم مؤتمراتهم و خطاباتهم في هذا المجال ، أو مقالاتهم التي كتبوها و ألّفواها ، لكنّهم ابتلوا في نفس الوقت بهذا العمل الشيطاني .

بلى ، لو اقتنع الإنسان بهذا الحدّ من العلم و التقوى بحيث صار يمتنع عن الجناية و الجريمة بسبب ملاحظة المصالح الخارجيّة فقط ، و ما لم يستطع القضاء على أصل مادّة الفساد في نفسه ، أو قطع جذور و ميكروبات الصفات الرذيلة كالشره والخمود و الجُبن و التهوّر و البُخل و التبذير ونظائرها عن سويداء ضميره ، فانّه لن يكون قد أدرك مقام الإنسان الواقعي ، وسيكون مثل الحيوان المقيّد بسلسلة مستسلماً مُطيعاً ، ولكن حالما يكسر هذه السلسلة فانّه سيجترح الأفاعيل .

و اذا ما اجتنب من الكذب و البَخس في البيع و الظلم و الزنا و أشباه ذلك حال اليقظة ، فانّ هذه الصفات ستظهر حال النوم الذي ليس فيه وجود للمصالح الخارجيّة ، فتوجِد المشاهد المفجعة .

سيرى في النوم انّه يزني ، و يربح ، و يعزّز شخصيّته ، و يظلم ويجني ؛ و حين يستفيق هذا المسكين سيعجب من هذه الأحلام و يستبعد أن يناسبه مثل هذه الأمور ، غافلاً عن انّ أصل و جذور هذه المفاسد لا يزال في قلبه لم يغادره بعدُ ، بل موجود فيه كامنٌ في زواياه و خرائبه ينتظر الجوّ المساعد ليبرز و يحقّق هدفه .

الأنبياء و الأئمّة عليهم السلام و الأولياء المقرّبون عند الله هم الذين أخرجوا هذه الصفات الرذيلة و جراثيم الفساد من قلوبهم ، و الذين قضوا على بذور هذه الصفات في مزرعة قلوبهم ، فقد أعطاهم الله سبحانه وتعالى بعنايته نوعاً من العلم و المعرفة بحيث لا مجال معه لمثل هذه الرذائل .

ذلك العلم و المعرفة الذي يُحرق ببريقه جميع الصفات الرذيلة ويمحيها و يهدمها ، و يقطع أصول و جذور البخل و الشره و التهوّر كي لا تبدر منهم أبداً أمثال هذه الرذائل في أيّ لحظة من العمر ، و مع أكثر الظروف ملائمةً ، و لو لمرّةٍ واحدة . فيوسف الصدّيق مع توفّر جميع الشرائط و الإمكانات ، و مع وجود جميع المقتضيات و مع مواجهته للمخاطر العظيمة بسبب هجره للذنب ، فانّ قلبه . مع ذلك كلّه . لم يسمح له بارتكاب الذنب ؛ و هذه خاصّة و جوهرة القلب في مثل هؤلاء الأشخاص التي لا تسمح لهم حتّى بأن يحلموا في النوم بارتكاب الذنب ، و لا أن يتخيّلوا ارتكابه في اليقظة . فليس هناك للمقرّبين و أولياء الله طوال عمرهم لحظة واحدة يفكّرون فيها بالذنب ، حتى لو عاشوا سنوات كثيرة دون زوجة ، و مهما توفّرت لهم جميع الإمكانات

بأعلى درجاتها ، حتّى لو تهيّئت وسائل الذنب بعيداً عن انظار الناس و اطّلاعهم ، فانّهم لن تخطر على قلوبهم فكرة الذنب أبداً .

و هؤلاء الأفراد قد استثنوا لوحدهم من كليّة بروز غرائزهم ، كما انّ ذلك العلم الذي أعطاهم الله تعالى اثر مجاهداتهم النفسيّة و استقامتهم في طريق عبوديّته الحقّة ، فوصلوا بنور القلب الى هذا المقام ؛ ليس من العلوم البسيطة ، بل هو علمٌ خاصّ و كيفيّة مخصوصة يعبّر عنها لسان القرءان الكريم ب (روح الله) أو (روح القدس) :

و كَذَ لِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَبُ وَ لَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا (4) .

لقد جعلنا هذا الروح نوراً لكي نهدي به من نشاء من عبادنا ؛ و هذا النور هو روح الله أو روح القدس الذي دخل في قلب الإنسان و حوّل حالة القلب و صَرَفَه عن غير الله تماماً ، و جعله يرتبط كليّاً بالله تعالى ، و هذا هو مقام عصمة الأنبياء و الأئمة الأطهار .

و يجب أن نعلم في هذا المقام أنّ النفس لن تضمحلّ كليّاً ، بل انّها ستكون مُنقادة و مُطيعة بصورةٍ محضة ، فلا مجال لها للتخطّي و التجاوز قيد شعرة .

و قد قال رسول الله صلّى الله عليه و ءاله يوماً : ما منكم من أحد الّا وقد وكّل به قرينه من الشياطين . قالوا : و أنت يا رسول الله ؟! قال : نَعَمْ ، وَلَكِن اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ (5) .

و في هذه الحالة فانّ هذه النفس هي أحسن نعمة و أغلى موهبة الهيّة لأولياء الله ، لأنّها استحالت نفساً مطمئنّة و وجدت لياقة خطاب الرجوع الى حرم الله تعالى .

انّ الله تعالى يذكر في سورة الأنعام سبعة عشر نبيّاً من الأنبياء في عدّة ءايات متعاقبة ، من نوح و ابراهيم و لوط و اسحق و يعقوب و اسماعيل و اليسع و موسى و هارون و عيسى و يحيى و داود و سليمان و زكريّا وأيّوب و يونس و الياس ؛ فيمجّدهم ، حتّى انّه أثنى على بعض ءابائهم وإخوانهم و ذريّاتهم فدعاهم بالعباد الصالحين و المهتدين ، ثم يقول :

ذَ لِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ (6) .

استفادة عصمة المقرّبين من الله من مجموع ثلاث ءايات قرءانيّة :

انّ هداية الله التي وصلت اليهم ، نوع من الهداية التي يهدي بها الله مَن يشاء من عباده الخاصّين ؛ ثم يقول بعد الأية التي ذكرناها سابقاً :

أُوْلَئِكَ الّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَبهُمُ اقْتَدِهْ (7) .

و نستفيد من هاتين الأيتين انّ هداية الله قد وصلت الى الأنبياء . ثم أنّه من جانب ءاخر يقول :

وَ مَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُضِلّ (8) .

و يقول أيضاً :

مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ (9) .

و نستفيد من هاتين الأيتين أيضاً انّ الذين يهديهم الله هم الذين اهتدوا الى الطريق ، فلن تؤثّر أيّ وسوسة شيطانيّة من تسويلات الجنّ والإنس ، و لو اجتمع الناس على أن يُضلّوهم فانّهم لن يستطيعوا التصرّف في إرادتهم و علومهم و اختيارهم و لا على زعزعتهم أو زلزلتهم .

و من جانب ءاخر يقول تعالى :

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبَنِى ءَادَمَ أَن لّا تَعْبُدُوا الشّيْطَنَ إِنّهُ لَكُمْ عَدُوّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَ طٌ مُسْتَقِيمٌ وَ لَقَدْ أَضَلّ مِنْكُمْ جِبِلّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ .

و في هذه الأية يعتبر الله سبحانه أنّ اتّباع الشيطان هو الضلالة بعينها ؛ و بمقتضى الأيات التي مرّ ذكرها فانّ الله هو الذي يهدي الأنبياء ، وانّ مَن يهدي الله فما له من مُضِلّ .

و الضلالة حسب مفاد هذه الأية هي اتّباع الشيطان و المعصية والذنب و الإثم و الالتفات الى غير الحقّ ، و هي التأثّر بإلقاءات النفس الأمّارة .

و لأنّ الأنبياء ليس لهم مُضِلّ . كما مرّ . فليس إذن من إلقاءات شيطانيّة و لا تسويلات نفسيّة و لا إثم لهم ، و هذا هو معنى العصمة .

و بجمع هذه المجاميع الثلاث من الأيات القرءانية ، فقد أثبتت العصمة للمهتدين و بُرهن عليه بشكل جليّ و الحمد لله .

عصمة أميرالمؤمنين عليه السلام :

و هذا الإستدلال راجع لعموم المقرّبين من الله سبحانه ، لكنّه بالنسبة لأميرالمؤمنين عليه السلام و هو يعسوب الدين و وليّ المؤمنين و قائد الغرّ المحجّلين . له دلالة أوفى و أتمّ على عصمته عليه السّلام .

فلقد تربّى ذلك الإمام في احضان رسول الله منذ الطفولة ، و كان تحت تربيته و تعليمه ؛ يقول محمّد بن طلحة و هو شافعيّ المذهب توفّى سنة 654 هـ [10] ، و ابن الصبّاغ المالكي المذهب المتوفّى سنة 855 هـ : [11] و [12] لمّا نشأ عليّ بن أبي طالب [عليه السلام] و بلغ سنّ التمييز ، أصاب أهل مكّة جدبٌ شديد و قحطٌ أجحف بذوي المروة و أضرّ بذوي العيال الى الغاية ؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم لعمّه العبّاس . و كان من أيسر بني هاشم . يا عمّ إنّ أخاك أباطالب كثير العيال و قد أصاب الناس ما ترى ، فانطلق بنا الى بيته لنخفّف من عياله فتأخذ أنت رجلاً واحداً و ءاخذ أنا رجلاً فنكفلهما عنه .

قال العبّاس : أفعلُ . فانطلقا حتّى أتيا أبا طالب فقالا : إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فقال لهما أبوطالب : اذا تركتما لي عقيلاً و طالباً فاصنعا ما شئتما . فأخذ رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم عليّاً و ضمّه اليه ، و أخذ العبّاسُ جعفراً فضمّه اليه ؛ فلم يزل عليّ مع رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم حتّى بعث الله عزّوجل محمّداً نبيّاً فاتّبعه عليّ عليه السلام و ءامن به و صدّقه و كان إذ ذاك في السنة الثالثة عشر [13] من عمره لم يبلغ الحلم و قيل غير ذلك . و أكثر الأقوال و أشهرها انّه لم يبلغ الحلم ، و أنّه أوّل من أسلم و ءامن برسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم من الذكور [14] ،...

قاله الثعالبي [15] في تفسير قوله تعالى : السّبِقُونَ الْأَوّلُونَ مِنَ الْمُهَجِرِينَ وَ الْأَنصَار [16] ، و هو قول ابن عبّاس و جابر بن عبدالله الأنصاري و زيد بن أرقم و محمّد بن المنكدر و ربيعة المرائي ؛ و قد أشار عليّ بن أبي طالب [عليه السلام] الى شيء من ذلك في أبيات قالها رواها عنه الثقاة الأثبات ، وهي هذه الأبيات :

مُحَمّدٌ النّبِيُ أَخِي وَ صِنْوِي
وَ حَمْزَةُ سَيّدُ الشّهَداءِ عَمّي
وَ جَعْفَرٌ الّذِي يُضْحِي وَ يُمْسِي

يَطِيرُ مَعَ الْمَلَئِكَةِ ابْنُ أُمّي
وَ بِنْتُ مُحَمّدٍ سَكَنِي وَ عِرْسِي
مَنُوطٌ لَحْمُهَا بِدَمِي وَ لَحْمِي
وَ سِبْطَا أَحْمَدٍ وَلَدَايَ مِنْهَا
فَأَيّكُمُ لَهُ سَهْمٌ كَسَهْمِي
سَبَقْتُكُمُ إِلَى الإِسْلاَمِ طُرّاً
غُلاَماً مَا بَلَغْتُ أَوَانَ حُلْمِي
وَ أَوْجَبَ لِي وِلاَيَتَهُ عَلَيْكُمْ
رَسُولُ اللهُ يَوْمَ غَدِيرِ خُمّ
فَوَيْلٌ ثُمّ وَيْلٌ ثُمّ وَيْلٌ
لِمَن يَلْقَى الإِلَهَ غَدَاً بِظُلْمِي (17)

(والعجب من هذين العالمين السنيّين كيف يعدّان هذه الأشعار لأميرالمؤمنين عليه السلام يقيناً و كيف سيعترفان و يقرّان بدخول ظالميه الى جهنّم تبعاً لقوله عليه السلام!!)

و قد نُقل عن جابر بن عبدالله الأنصاري انه قال : سمعتُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام يُنشِد و رسول الله يسمع :

أَنَا أَخُو الْمُصطَفَى لاَ شَكّ فِي نَسَبِي
بِهِ رُبّيتُ وَ سِبْطَاهُ هُمَا وُلْدِي
جَدّي وَ جَدّ رَسُولِ اللهِ مُنْفَرِدٌ
وَ فَاطِمٌ زَوْجَتِي لاَ قَوْلَ ذِي فَنَذِ
صَدّقْتُهُ وَ جَمِيعُ النّاسِ فِي بُهَمٍ
مِنَ الضّلاَلَةِ وَ الإِشْرَاكِ وَ النّكَدِ (18)

قال (19) : فَتَبَسّمَ رَسُولُ اللهُ وَ قَالَ : صَدَقْتَ يَا عَلِيّ !

و يشرح أميرالمؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة) ضمن خطبته (القاصعة) فترة صباه في صُحبته لرسول الله :

وَ قَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه و ءاله بِالقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَ الْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَ أَنَا وَلَدٌ وَ يَضُمّنِي إِلَى صَدْرِهِ ، وَيَكْنُفُنِي إِلَى فِرَاشِهِ وَ يَمُسّنِي جَسَدَهُ ، وَ يَشُمّنِي عُرْفَهُ ، وَ كَانَ يَمْضَغُ الطّعَامَ ثُمّ يُلَقّمنِيهِ ، وَ مَا وَجَدَ لِي كِذْبَةً فِي قَوْلٍ ، وَ لَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ .

وَ لَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ صَلّى اللهُ عَليه و ءاله مِن لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَتِهِ ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَ مَحَاسِنِ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتّبِعُهُ اتّبَاعَ الْفَصِيلِ اَثَرَ أمّهِ ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عِلْمًا وَيَأْمُرُنِي بِالإِقْتِدَاءِ بِهِ .

وَ لَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلّ سَنَةٍ بِحَرَاءَ ، فَأَرَاهُ وَ لاَ يَرَاهُ غَيْرِي ، وَ لَمْ يَجْتَمِعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإِسْلاَمِ ، غَيْرَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عليه وءاله وَ خَدِيجَةَ ، وَ أَنَا ثَالِثُهمَا ، أَرَى نُورَ الْوَحيِ وَ الرّسَالَةِ ، وَ أَشُمّ رِيحَ النّبُوّةِ ، وَ لَقَدْ سَمِعْتُ رَنّةَ الشّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحي عَلَيْهِ صلّى اللهُ عليه وءاله ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ! مَا هَذِهِ الرّنّةُ ؟

فَقَالَ : هَذَا الشّيطَانُ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِهِ ، إنّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَ تَرَى مَا أَرَى ، إلاّ أَنّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ولَكِنّكَ وَزِيرٌ وَ إنّكَ لَعَلَى خَيْرٍ (20) .

والعجب انّه مع هذا المقام و المنزلة و الوصايا التي أكّد عليها الرسول و جعلِهِ عليّاً وصيّاً و وزيراً و وليّاً للمؤمنين و خليفته من بعده ، فانّهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة قبل أن يُدفن جسد الرسول المطهّر ، ففعلوا ما فعلوا ، و لم يكتفوا بسلب الخلافة ، بل عمدوا الى مصادرة بُستان الصدّيقة الطاهرة فاطمة بنت رسول الله ، فسلبوا نِحلة رسول الله و كسروا فؤاد بنت رسول الله .

ثمّ انّ فاطمة ذهبت بعد ذلك الى المسجد لإثبات حقّها ، فتحاججت مع أبي بكر ؛ يقول ابن شهر ءاشوب : و لمّا انصرفت من عند أبي بكر أقبلت على أميرالمؤمنين عليه السلام فقالت له :

يَابْنَ أَبِي طَالِبٍ ! إشتَمَلْتَ شَمْلَةَ الْجَنِينِ ، وَقَعَدتَ حُجْرَةَ الظّنِينِ ، نَقَضْتَ قَادِمَةَ الأَجْدَلِ فَخَانَكَ رِيشُ الأَعْزَلِ .

هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ، قَد ابْتَزّنِي نُحَيْلَةَ أَبِي ، وَ بُلَيْغَةَ إبْنِي .

وَاللهِ لَقَد أَجَدّ فِي ظُلاَمَتِي ، وَ أَلَدّ فِي خِصَامِي ، حَتّى مَنَعَتنِي الْقَيْلَةُ نَصْرَهَا ، وَ الْمُهَاجِرَةُ وَصْلَهَا ، وَ غَضّتِ الْجَمَاعَةُ دُونِي طَرْفَهَا ؛ فَلاَ مَانِعَ وَلاَ دَافِعَ .

خَرَجْتُ وَاللهِ كَاظِمَةً ، وَعُدْتُ رَاغِمَةً .

أَضْرَعْتَ خَدّكَ يَوْمَ أَضَعْتَ حَدّكَ ، افتَرَسْتَ الذّئَابَ وَافْتَرَسَكَ الذّبَابُ ، مَا كَفَفْتَ قَائلًا ، وَ لاَ أَغْنَيْتَ بَاطِلًا ، وَ لَا خِيَارَ لِي لَيْتَنِي مِتّ قَبْلَ ذُلّتِي ، وَ تُوفّيتُ دُونَ مُنْيَتِي (21) .

عَذِيرِي وَاللهِ فِيْكَ حَامِيَاً ، وَ مِنْكَ دَاعِيَاً ، وَيْلاَيفِي كَلّ شَارِقٍ ، مَاتَ الْعَمَدُ وَ وَهَنَ الْعَضُدُ .

شَكْوَايَ إلى رَبّي وَ عُدْوَايَ إلَى أَبِي .

اللّهُمّ أَنْتَ أَشْدّ قُوّةً وَ أَحَدّ بَأساً وَ تَنْكِيلاً .

فَأجابها عليه السّلام :

لَا وَيْلَ لَكِ ! بَلِ الْوَيْلُ لِشَانِئِكِ ، نَهنِهِي عَنْ عِربِكِ يَا بِنْتَ الصّفْوَةِ وَبَقِيّةَ النّبوّةِ .

فَوَاللهِ مَا وَنَيْتُ فِي دِينِي ، وَ لَا أَخْطَأتُ مَقْدُورِي ، فَإن كُنْتِ تُرِيدِينَ الْبُلْغَةَ فَرِزْقُكِ مِضَمُونٌ وَ كَفِيلُكِ مَأمُونٌ ، وَ مَا أُعِدّ لَكِ خَيْرٌ مِمّا قُطِعَ عَنْكِ ، فَاحْتَسِبِي !

فَقَالَت : حَسْبِيَ اللهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ ! (22)

يقول ابن أبي الحديد : وَ قَدْ رُوِى عَنْهُ عليه السّلام إنّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السّلاَمُ حَرّضَتْهُ يَوْمَاً عَلَى النّهُوضِ وَ الْوُثُوبِ ، فَسَمِعَ صَوْتَ الْمُؤَذّنِ : أَشْهَدُ أَنّ مُحَمّداً رَسُولُ اللهُ .

فَقَالَ لَهَا : أَيَسُرّكِ زَوَالَ هَذَا النّدَاءِ مِنَ الأرضِ ؟

قَالَت : لاَ .

قَالَ : فَإنّهُ مَا أَقُولُ لَكِ ! (23) .

تعليقات:

1) صدر الأية 52 ، من السورة 42 : الشّورى .

2) وسائل الشيعة) ، ج 14 ، ص . 233

3) الكنى و الألقاب) ، ج 1 ، ص 322 ، طبع مكتبة الصدر . وقد أورد في (ريحانة الأدب) ، طبع مكتبة (خيّام) ، ج 7 ، ص 280 أحد عشر بيتاً هي مجموع هذه الأبيات الثلاثة مع ثمانية أبيات أخرى عن أبي

المؤيد محمد بن محمّد العنتري صاحب (قرابادين) ، و هو من فلاسفة و حكماء و مشاهير أطبّاء و أدباء أوائل القرن السادس :

احْفَظْ بُنَىّ وَصِيّتِى وَاعْمَلْ بِهَا
فَالطّبّ مَجْمُوعٌ بِنَصّ كَلاَمِي
قَدّمْ عَلَى طِبّ الْمَرِيضِ عِنَايَةً
فِي حِفْظِ قُوّتِهِ مَعَ الأَيّامِ
بِالشّبْهِ يُحْفَظُ صِحّةٌ مَوْجُودَةٌ
وَالضّدّ فِيهِ شِفَآءُ كُلّ سِقَامِ
قَلّلْ نِكَاحَكَ مَااسْتَطَعْتَ فَإنّهُ
مَآءُ الْحَيَوةِ يُرَاقُ فِي الْأَرْحَامِ
وَاجْعَلْ طَعَامَكَ كُلّ يَوْمٍ مَرّةً
وَاحْذَرْ طَعَامَكَ قَبْلَ هَضْمِ طَعَامِ
لاَ تُحْقِرَ الْمَرَضَ الْيَسِيرَ فَإِنّهُ
كَالنّارِ تُصْبِحُ وَ هِي ذَاتِ ضَرامِ
لاَ تَهْجُرَنّ الْقَىءَ شَهْرَكَ إِنّمَا
كَيْمُوسُهُ سَبَبٌ إِلَى الْأَسْقَامِ
إنّ الحِمَى عَوْنُ الطّبِيعَةِ مُسْعِدَاً
شَافٍ مِنَ الْأَسْقَامِ وَالْأَلاَمِ
لاَ تَشْرَبَنْ بِعَقِيبِ أَكْلٍ عَاجِلاً
لاَ تَأكُلَنْ بِعَقِيبِ شُرْبِ مُدامِ
وَ خُذِ الدّوَآءَ إِذَا الطّبِيعَةُ كدرَتْ
بِالْإِحْتِلاَمِ وَ كَثْرَةِالْأَحْلاَمِ
والطّبّ جُمْلَتُهُ إِذَا حَقّقْتَهُ
حَلّ وَ عَقْدُ طَبِيعَةِ الْأَجْسَامِ

وقد نسب بعضُ أصحاب التراجم هذه القصيدة ذات السبعة عشر بيتاً الى (ابن بطلان) ، الاّ انّه نقل في (نامه دانشوران) عن المؤرّخ الخزرجي انّ هذه القصيدة لأبي المؤيد ، أوردها في كتاب (نور المجتنى) .

4) صدر الأية 52 ، من السورة 42 : الشّورى .

5) مجمع الزوائد) ، ج 8 ، ص 225 ، طبع بيروت . و قد أورد في هذا الباب خمسة أحاديث ، و العبارة الواردة في المتن مضمون هذه الأحاديث الخمسة .

6) صدر الأية 88 ، من السورة 6 : الأنعام .

7) صدر الأية 90 ، من السورة 6 : الأنعام .

8) ذيل الأية 36 و صدر الأية 37 ، من السورة 39 : الزّمَر .

9) مقطع من الأية 17 ، من السورة 18 : الكهف .

10) مطالب السؤل في مناقب ءال الرسول) ، ص . 11

11) الفصول المهمّة) ، ص . 14

12) و قد أورد الطبرى هذه القصّة في تاريخه (تاريخ الامم و الملوك) ، ص . 58

13) أكثر علماء الشيعة يقولون بأن السنّ المبارك لأميرالمؤمنين زمن بعثة رسول الله كان عشرة سنوات .

14) روى الطبري في ج 2 ، ص 57 عن ابن اسحق قال : كان أوّل ذَكَر ءامن برسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم و صدّق بما جاء به من عندالله عليٌّ بن أبي طالب ، و هو يؤمئذٍ ابن عشر سنين . و كان ممّا أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب أنّه كان في حجر رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم قبل الإسلام . كما يقول ابن الأثير في (أسد الغابة) ، ج 4 ، ص 16 : و هو اوّل الناس إسلاماً في قول كثير من العلماء على ما نذكره . و ينقل في (غاية المرام) ، ص 499 في انّ أميرالمؤمنين كان اوّل من أسلم 47 حديثاً من طريق العامة ، و في ص 504 الباب 22 يورد 18 حديثاً من طريق الخاصة .

15) النقل عن الثعالبي في (الفصول المهمّة) فقط ، و ليس موجوداً في (مطالب السؤل) .

16) صدر الأية 100 ، من السورة 9 : التوبة .

17) يذكر في (الفصول المهمّة) أربعة أبيات فقط من الأشعار أعلاه (1 و 3 و 5 و 7) .

18) مطالب السؤل) ، ص 11 ؛ و ينقل كذلك في (ينابيع المودّة) ، ص 57 هذه ل

19) ل الأشعار عن الموفق بن احمد بسنده عن جابر بن عبدالله قال : سمعتُ عليّاً يقول ... الخ

20) نهج البلاغة) عبدة ، ج 1 ، ص 392 ، الخطبة 190 القاصعة .

21) دُون مُنيتي ، و في بعض النسخ (دون هَيْنتي) اي قبل ذلّي و هواني ، و (مُنْيتي) بمعنى موتي ، أي ليتني متّ قبل أوان موتي (اي الاجل المسمى) .

22) مناقب ابن شهر ءاشوب) ، ج 1 ، ص 382 ، الطبعة الحجريّة ، و الطبعة الحروفية ج 2 ، ص 208 ؛ و (الاحتجاج) للطبرسي ج 1 ، ص . 145

23) شرح نهج البلاغة) (الطبعة ذات 20 مجلّداً) ، ج 11 ، ص . 113

23) شرح نهج البلاغة) (الطبعة ذات 20 مجلّداً) ، ج 11 ، ص . 113

الدرس الخامس : العصمة أمرٌ موهبيّ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

وَ لَوْلَا فَضْلُ اللهُ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمّت طّآئِفَةٌ مّنْهُمْ أَنْ يُضِلّوكَ وَ مَا يُضِلّونَ إِلّآ أَنْفَسَهُمْ وَ مَا يَضُرّونَكَ مِنْ شَىْءٍ وَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَ عَلّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (1) .

عصمة الأنبياء حتميّة :

انّ قوّة العصمة في الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام موهبةٌ إلهيّة ، و هي نوعٌ من المعرفة و الحالة القلبيّة لديهم لا تماثل سائر العلوم البشريّة ، كما انّها لا تغلبها و لا تقهرها الواردات الطبيعيّة و لا الخيالات الخسيسة الماديّة في النوم أو اليقظة ، في اليُسر أو العُسر ، في الرخاء أو الشدّة ، بل تشرق في القلب دائماً كالشمس المنيرة فتخرج النقاط السوداء المظلمة من زواياه . وهذا النوع من العلم ليس فقط قويّاً بحيث لا تغلبه القوى الشعوريّة و لا ينكبه طغيانُ الإحساسات ، بل انّه يُصيّرها جميعاً تحت سيطرته ، ويستخدمها في مصالحه ، و يأمرها بأمره و نهيه ، فلا قدرة لها على التخطّي و التجاوز .

و بناءً على هذا فانّ قوّة العلم و النور المضيء تصون صاحبها عن الضلالة و المعصية و الخطأ دائماً .

و قد ورد في الروايات انّ هناك روحاً لدى الأنبياء و الأئمة تسمّى ب (روح القدس) تحفظهم في مقام الإنسانيّة الرفيع ، و تصونهم عن الإنزلاق و الإثم و الخطأ .

و قد وردت في الأية المباركة التي ذُكرت سابقاً في مطلع الحديث كلمةُ الكتاب ، و المقصود بها الوحي الذي نزل على قلب النبيّ بواسطة جبرئيل ، و المتعلّق بقوانين الشريعة ؛ كما ان المراد بالحكمة العلم بالمعارف الكليّة و الأسرار الالهيّة ، و المراد من العلوم التي تعلّمها سائر العلوم من الإدراكات الجزئية و تشخيص المطالب الحقّة .

و لأنّ جملة (وَ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَبَ) امّا ان تكون حاليّة ، و امّا بمنزلة تعليل للجملة السابقة ؛ لذا نستفيد انّ العلّة لعدم تأثير كلام المنافقين في الرسول يعود الى تلك الملكة القلبيّة التي يكون قادراً بها على تلقّي الوحي بواسطة الأمين جبرئيل بالنسبة الى أحكام الشريعة و قوانينها ، وبالنسبة الى المعارف الالهيّة ، و يكون قادراً أيضاً على تلقّي الإلهامات نسبةً الى الاطّلاع على الأسرار و المغيّبات ، و تبيّن واقعيّة الأمور و التفريق بين الحقّ و الباطل .

و بناء على هذا فاننا نستفيد من الأية بأنّ العلّة لعدم انحراف النبيّ أو ضلاله حتّى في بعض الامور الجزئّية تستند الى ذلك العلم الخاصّ الذي وهبه الله سبحانه له بعنايته ، فهو يتلقّى الوحي بواسطته ، و هو ذلك العلم الخاصّ الذي يُعبّر عنه في الروايات ب (روح القُدس) الذي يحفظ الأنبياء ويصونهم عن الإثم و الخطأ في كلّ مرحلة من مراحل التشخيص .

استدلال ءاخر من القرءان على عصمة الأنبياء :

و من الاستدلالات [2] الأخرى على عصمة الأنبياء ضمّ ءايتين من ءايات القرءان الكريم ، الاولى قوله تعالى :

وَ مَن يُطِعِ اللهَ وَ الرّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النّبِيّنَ وَ الصّدّيقِينَ وَ الشّهَدَآءِ وَالصّلِحِينَ وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [3] .

و الثانية قوله تعالى :

إهْدِنَا الصّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضّالّينَ [4] .

و نستفيد من الأية الاولى انّ الله قد أنعم على الأنبياء و الشّهداء والصّديقين و الصّالحين ، و من الأية الثانية انّ الذين أنعم اللهُ عليهم لن يضلّوا و لن ينحرفوا . و بناءً على هذا فانّ الأنبياء و الشهداء و الصدّيقين والصالحين لن يضلّوا . و لأنّ كلّ معصيةٍ و ذنب ضلالة ، لذا فان المعصيّة والذنب لا يصدران منهم ، أي انّ شأنهم و مقامهم في أنهم يمتلكون مَلَكةً حافظة عن المعصية و الإثم ، و هذا هو معنى العصمة من الذنب .

و كذلك لأنّ الخطأ في تلقّي الأحكام و الوحي الالهي ، و في المعارف الالهيّة الكليّة ، و في تشخيص الأمور الجزئية ، و الخطأ في التبليغ هو ضلالٌ أيضاً ، فانّهم لا يُخطئون و لا يزلّون في أيّ مرحلة من هذه المراحل ، و بهذا البيان فانّ عصمتهم ستكون أيضاً في مرحلتين : مرحلة تلقّي الوحي والمعارف الالهيّة ، و مرحلة التبليغ و الترويج .

حيازة أميرالمؤمنين لمقام العصمة :

لقد حاز أميرالمؤمنين عليه السلام من الله سبحانه مقامَ العصمة وكونه وصيّ رسول الله و وارثه و خليفته ، و أوّل من ءامن برسول الله و صلّى معه .

يروي الطبري بسنده عن ابن عباس قال : أوّلُ مَن صَلّى عَلِيّ [5] .

و يحدّث ايضاً عن زيد بن أرقم قال : أوّلُ مَنْ أَسْلَمَ مَعَ رَسُولِ اللهُ صَلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم عَلِيّ [عليه السلام] [6] .

و يروي عنه أيضاً قال : أَوّلُ رَجُلٍ صَلّى مَعَ رَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم عَلِيّ ابنُ أَبِي طَالِبٍ [7] .

و يروي أيضاً بسنده عن عبّاد بن عبدالله قال : سَمِعْتُ عَلِيّاً يَقُولُ : أَنَا عَبْدُ اللهِ وَ أَخُو رَسُولِهِ وَ أَنَا الصّدّيقُ الأَكْبَرُ لَا يَقُولُهَا بَعْدِي إلاّ كَاذِبٌ مُفْتَرٍ ، صَلّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ قَبْلَ النّاسِ بِسَبْعِ سِنِينَ [8] .

و يقول ابن الصبّاغ المالكي و محمّد بن طلحة الشافعي :

وَ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم قَبلَ بَدْوِ أَمْرِهِ إذَا أَرَادَ الصّلَوةَ خَرَجَ إلَى شِعَابِ مَكّةَ مُسْتَخفِياً وَ أَخْرَجَ عَلِيّاً مَعَهُ ، فَيُصَلّيَانِ مَا شَاءَ اللهُ فَإذَا قَضَيَا رَجَعَا إلَى مَكَانِهِمَا [9] .

و يروي الطبري بسنده عن يحيى بن عفيف الكندي (عفيف الكندي هو أخ الأشعث بن قيس ، و كان رفيقاً للعباس بن عبدالمطّلب ، وكان يأتي الى مكّة للتجارة فيسكن في بيت العبّاس) ؛ يقول : حدّثني أبي قال : كنتُ جالساً مع العبّاس بن عبدالمطّلب بمكّة بالمسجد قبل أن يظهر أمر رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ،

فجاء شابّ فنظر الى السماء حين حلقت الشمس ثمّ استقبل الكعبة فقام يصلّي ، فجاء غلامٌ فقام عن يمينه ، ثم جاءت امرأة فقامت خلفهما ، فركع الشاب فركع الغلام و المرأة ، ثمّ رفع فرفعا ، ثمّ سجد فسجدا ؛ فقلتُ : يا عبّاس أمرٌ عظيم ! فقال العبّاس : أتعرف هذا الشابّ ؟

فقلتُ : لا . فقال : هذا محمّد بن عبدالله بن عبدالمطّلب ابن أخي ؛ أتدري من هذا الغلام ؟ هو عليّ أبي طالب بن عبدالمطّلب ابن أخي ؛ أتدرى من هذه المرأة ؟ هذه خديجة بنت خويلد . انّ ابن أخي هذا حدّثه أنّ ربّه ربّ السموات و الأرض أمره بهذا الدين و هو عليه ، و لا واللهِ [ما أعرفُ] على ظهر الأرض اليوم على هذا الدين غير هؤلاء (10) .

بلى ، لقد انشغل النبيّ و أميرالمؤمنين و خديجة بالصلاة و عبادة الله سنوات عديدة ، بينما لم يكن أحد من أهل مكّة مؤمناً ءانذاك أو عالماً برسالته صلى الله عليه و ءاله ، حتّى نزلت عليه ءاية الإنذار من قبل الله تعالى .

ءاية الإنذار و حديث العشيرة :

وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّى بَرِىء مِمّا تَعْمَلُونَ وَ تَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ الّذِى يَرَبكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقَلّبَكَ فِى السّجِدِينَ إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ (11) .

فدعى رسول الله أقرباءه و عشيرته و أعلن لهم نبوّته كما هو معروف في حديث العشيرة الذي ورد عن طائفة كبيرة من أعلام المحدّثين والمؤرّخين المسلمين .

يقول العلاّمة الأميني : أخرجه (أي حديث العشيرة) غير واحد من الأئمّة و حفّاظ الحديث من الفريقين في الصحاح و المسانيد ، و مرّ عليه ءاخرون ممّن يُعتدّ بقوله و تفكيره مخبتين به من دون أيّ غمز في الإسناد أو توقّف في متنه . و تلقّاه المؤرّخون من الأمّة الإسلامية و غيرها بالقبول ، و أُرسل في صحيفة التأريخ إرسال المسلّم ، و جاء منظوماً في أسلاك الشعر و القريض ، و سيوافيك في شعر الناشيء الصّغير المتوفّى 365 هـ و غيره (12) .

و سننقل أوّلاً نصّ الحديث عن تاريخ الطبري ثم نناقش جوانبه المختلفة ؛ فقد أخرج الطبري عن ابن حميد ، عن سلمة ، عن محمّد بن اسحق ، عن عبد الغفّار بن قاسم ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطّلب ، عن عبدالله بن العبّاس ، عن عليّ بن أبي طالب قال : لمّا نزلت هذه الأية على رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم : وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ؛ دعاني رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم فقال : يا عليّ ! انّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقتُ بذلك ذرعاً و عرفتُ أنّي متى أبادئهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره ، فصمتّ عليه ، حتّى جاء جبريل فقال : يا محمّد ! إنّك إلاّ تفعل ما تؤمر به يُعذّبك ربّك . فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رِجل شاة و املأ لنا عسّاً من لبن ، ثم اجمع لي بني عبدالمطّلب حتّى أكلّمهم و أُبلّغهم ما أُمرتُ به . ففعلتُ ما أمرني به ، ثمّ دعوتهم له و هم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، فيهم أعمامه : أبوطالب و حمزة و العبّاس و أبولهب ، فلّما اجتمعوا اليه دعاني بالطّعام الذي صنعتُ لهم فجئتُ به ، فلمّا وضعتُه تناول رسولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم حذية من اللحم فشقّها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحى الصحفة ثم قال : خذوا بسم الله . فأكل القوم حتى ما لهم بشيءٍ حاجة و ما أرى الاّ موضع أيديهم ، و أيم اللهِ الذي نفس عليّ بيده وإن كان الرجلُ الواحدُ منهم ليأكل ما قدّمت

لجميعهم . ثم قال : إسقِ القوم . فجئتهم بذلك العُسّ فشربوا حتّى رووا منه جميعاً ، و أيم الله إن كان الرجلُ الواحد منهم ليشرب مثله ، فلمّا أراد رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] وسلّم أن يكلّمهم بَدَره أبولهب الى الكلام فقال : لَقدماً سحركم صاحبُكم . فتفرّق القوم و لم يكلّمهم رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، فقال الغد : يا عليّ ! انّ هذا الرجل سبقني الى ما قد سمعتَ من القول فتفرّق القوم قبل أن أكلّمهم ، فعُد لنا من الطعام بمثل ما صنعتَ ثمّ اجمعهم اليّ . قال : ففعلتُ ثمّ جمعتُهم ، ثمّ دعاني بالطعام فقرّبتُه لهم ، ففعل كما فعل بالأمس ، فأكلوا حتّى ما لهم بشيءٍ حاجة ، ثمّ قال : إسقهم ، فجئتُهم بذلك العُسّ ، فشربوا حتّى رووا منه جميعاً ، ثمّ تكلّم رسولُ الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم فقال : يا بني عبدالمطّلب ! إنّي واللهِ ما أعلم شابّاً في العرب جاءَ قومَه بأفضل ممّا جئتُكم به ، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا و الأخرة ، و قد أمرني الله تعالى أن أدعوكم اليه ، فأيّكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم ؟ قال : فأحجم القوم عنها جميعاً و قلتُ و إنّي لأحدثهم سنّاً ، و أرمصهم عيناً ، و أعظمهم بطناً ، و أحمشهم ساقاً ؛ أنا يا نبيّ الله ! أكون وزيرك عليه [13] .

فأخذ برقبتي ثمّ قال : إِنّ هذَا أخِي وَ وَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ فَاسْمَعُوا لَهُ وَ أَطِيعُوا ، قال : فقام القوم يضحكون و يقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك و تُطيع [14] .

صحّة اسناد حديث العشيرة :

يقول العلاّمة الأميني : و بهذا اللفظ أخرجه أبوجعفر الإسكافي المتكلّم المعتزلي البغدادي المتوفّى 240 هـ في كتابه (نقض العثمانيّة) [15] ، وقال : إنّه روي في الخبر الصحيح . و رواه الفقيه برهان الدين في (أنباء نجباء الأبناء) ، ص 46 . 48 ؛ و ابن الأثير في (الكامل) ج 2 ، ص 24 ؛ وأبو الفداء عماد الدين الدمشقي في تاريخه ، ج 1 ، ص 116 ؛ وشهاب الدين الخفاجي في (شرح الشفا) للقاضي عياض ، ج 3 ، ص 37 (و بتر ءاخره) وقال : ذكر في دلايل البيهقي و غيره بسند صحيح ؛ والخازن علاء الدين البغدادي في تفسيره ، ص 390 ؛ والحافظ السيوطي في (جمع الجوامع) كما في ترتيبه ، ج 6 ، ص 392 نقلاً عن الطبري ، و في ص 397 عن الحّفاظ الستّة : ابن اسحق ، و ابن جرير ، و ابن أبي حاتم ، و ابن مردويه ، وأبي نعيم ، والبيهقي ؛ وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج 3 ، ص . 254 وذكره المؤرّخ جرجي زيدان في (تاريخ التمّدن الحديث) ج1 ، ص 31 ؛ والاستاذ محمّد حسين هيكل في (حياة محمّد) ص 104 من الطبعة الاولى .

و رجال السند كلّهم ثقات الاّ أبو مريم عبدالغفّار بن القاسم ، فقد ضعّفه القوم و ليس ذلك الاّ لتشيّعه ، فقد أثنى عليه ابن عقدة و أطراه و بالغ في مدحه كما في (لسان الميزان) ج 4 ، ص 43 ، و أسند اليه و روى عنه الحفّاظ المذكورون و هم أساتذة الحديث ، و أئمّة الأثر ، و المراجع في الجرح و التعديل ، و الرفض و الإحتجاج ، و لم يقذف أحدٌ منهم الحديث بضعف أو غمز لمكان أبي مريم في إسناده ، و احتجّوا به في دلايل النبوّة والخصايص النبويّة . و صحّحه أبو جعفر الإسكافي و شهاب الدين الخفاجي كما سمعت ، و حكى السيوطي في (جمع الجوامع) كما في ترتيبه (ج 2 ، ص 396) تصحيح ابن جرير الطبري له . على انّ الحديث ورد بسند ءاخر رجاله كلّهم ثقاتٌ كما يأتي ، أخرجه أحمد في مسنده (ج 1 ، ص 111) بسندٍ ، رجاله كلّهم من رجال الصحاح بلا كلام ، و هم : شريك ، الأعمش ، المنهال ، عبّاد [16] .

بلى ، نقل حديث العشيرة الكثير من الأعلام أمثال ابن مردويه والسيوطي و ابن أبي حاتم و البغوي و الحلبي في (السيرة النبويّة) ، و نقله غيرهم بألفاظ أخرى ، مثل : أَيّكُمْ يُبَايِعُني عَلَى أَنْ يكونَ أَخِي وَصَاحِبِي وَوَارِثِي ؟ فَلَمْ يَقُمْ إلَيه أَحَدٌ ، فَقُمْتُ إلَيْهِ وَ كُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ ... الى أن قال : فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ بِيَدِهِ عَلَى يَدِهِ . و مثل : مَن بَايَعَنِي عَلَى أنْ يَكُونَ أَخِي وَ صَاحِبِي وَ وَلِيّكُمْ مِنْ بَعْدِي ؟ فَمَدَدْتُ يَدِي وَ قُلْتُ : أَنَا أُبَايُعَكَ ! ومثل : أَنَا أَدْعُوكُمْ إلَى كَلِمَتينِ خَفِيفَتَيْنِ عَلَى اللّسَانِ ثَقِيلَتَيْنِ فِي الميزانِ : شَهادَةُ أنْ لاَ إلَهَ إلاّ اللهُ وَ أَنّي رَسُولُ اللهِ ، فَمَنْ يُجِيبُني إلَى هَذا الأَمْرِ وَيُوَازِرُني يُكُنْ أَخِي وَوَزِيرِي وَ وَصِيّي وَ وَارِثِي وَ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، فَقَامَ عَلِيّ وَ قالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ! قالَ : إجلِس ! ثُمّ أَعادَ القولَ عَلى القومِ ثَانياً فَصَمَتُوا ، فَقَامَ عَلِيّ و قال : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ! فَقَالَ : إجلِس ! ثُمّ أَعَادَ القولَ عَلى القومِ ثَالِثاً ، فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، فَقَامَ عَلِيّ وَ قَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ! فَقَالَ : إجلِسْ فَأَنْتَ أَخِي وَ وَزِيرِي وَوَصِيّي وَ وَارِثِي وَ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي .

و مثل : أَيّكُمْ يَنْتَدِبُ أَنْ يَكُونَ أَخِي وَ وَزِيرِي وَ وَصِيّي وَ خَلِيفَتِي فِي أُمّتِي وَ وَلِيّ كُلّ مُؤمِنٍ بَعْدِي ؟ فَسَكَتَ الْقَوْمُ ، حَتّى أَعَادَهَا ثَلاثاً ، فَقَالَ عَلِيّ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ !

فَوَضَعَ رَأسَهُ فِي حِجرِهِ وَ تَفَلَ فِي فِيهِ ، وَ قَالَ : اللّهُمّ امْلأْ جَوْفَهُ عِلْماً وَفَهْماً وَ حُكْماً ، ثُمّ قَالَ لِأَبِي طَالِبٍ : يَا أَبَا طَالِبٍ اسْمَعِ الأنُ لِابنِكَ وَ أَطِعْ فَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ مِنْ نَبِيّهِ بِمنزلَةِ هَرونَ مِن مَوسَى .

و مثل : مَنْ يُؤَاخِينِي وَ يُوَازِرُني وَ يَكُونَ وَلِيي وَ وَصِيّي بَعْدِي وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي يَقْضِي دَيْنِي ؟ الى أن قال رسول الله لِعَلِيّ : أَنْتَ ، فَقَامَ الْقَومُ وَ هُمْ يَقُولُونَ لِأَبِي طَالِبٍ : أَطِعْ ابْنَكَ فَقَدْ أُمّرَ عَلَيْكَ .

و مثل : فَأَيّكُمْ يَقُومُ فَيُبَايِعُنِي عَلَى أَنّهُ أَخِي وَ وَزِيرِي وَ وَصِيّي وَيَكُونُ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَرونَ مِنْ مُوسَى ، إلّا أَنّهُ لاَ نَبِيّ بَعْدِي ، إلَى أَن قَالَ : فَقَامَ عَلِيّ فَبَايَعَهُ وَ أَجَابَهُ ، ثُمّ قَالَ : أُدْنُ مِنّي ، فَدَنَا مِنْهُ ، فَفَتَحَ فَاهُ وَ مَجّ فِي فِيهِ مِنْ رِيقِهِ وَ تَفَلَ بَيْنَ كِتْفَيهِ وَ ثَدْيَيْهِ ، فَقَالَ أَبُولَهَبٍ : بِئسَ مَا حَبَوتَ بِهِ ابنَ عَمّكَ أَن أَجَابَكَ فَمَلاَتَ فَاهُ وَ وَجْهَهُ بُزَاقاً .

فَقَالَ صَلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم : مَلَأْتُهُ حِكْمَةً وَ عِلْمًا .

و قد نقل مؤخّراً الاستاذ حسن أحمد لطفي في كتابه (الشهيد الخالد الحسين بن عليّ) ذيل الحديث وفق رواية الطبري ، كما أورده أيضاً توفيق الحكيم ذيل كتاب (محمّد) وفقاً للطبري ، و أورده المحرّر القدير [شاعر الغدير] عبدالمسيح الأنطاكي المصري و أنشد فيه قصيدةً غرّاء (17) .

يقول أبوجعفر الإسكافي (بعد ذكر الحديث مفصّلاً) : فهل يُكلّف عمل الطعام ودعاء القوم صغيرٌ غير مميّز ؟! و غرّ غير عاقل ؟! و هل يؤتمن على سرّ النبوّة طفلٌ ابن خمس سنين أو ابن سبع سنين ؟! و هل يُدعى في جملة الشيوخ و الكهول الاّ عاقلٌ لبيبٌ ؟! و هل يضع رسولُ الله صلّى عليه و ءاله يده في يده و يُعطيه صفقةَ يمينه بالأُخوّة و الوصيّة والخلافة الاّ و هو أهلٌ لذلك ؟! بالغٌ حدّ التكليف ، محتملٌ لولاية الله وعداوة أعدائه ، و ما بالُ هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ؟! و لم يلصق بأشكاله ؟! و لم يُرَ مع الصبيان في ملاعبهم بعد إسلامه ؟! و هو كأحدهم في طبقته ، كبعضهم في معرفته ، و كيف لم ينزع إليهم في ساعةٍ من ساعاته ؟! فيُقال : وعاه بعضُ الصبا ، و خاطرٌ من خواطر الدنيا ، و عملته الغرّة والحدثة على حضور لهوهم ، و الدخول في حالهم ، بل ما رأيناه إلّا ماضياً على إسلامه ، مصمّماً على أمره ، محقّقاً لقوله بفعله ، قد صدّق إسلامه بعفافه وزهده ، ولصق برسول الله صلّى الله عليه و ءاله من بين جميع مَن بحضرته ، فهو أمينه وأليفه في دنياه و ءاخرته ، و قد قهر شهوتَه ، و جاذب خواطره ، صابراً على ذلك نفسَه ، لما يرجو من فوز العاقبة و ثواب الأخرة (18) .

بلى ، لقد كان حديث العشيرة و تنصيب أميرالمؤمنين عليه السلام في ذلك اليوم في منصب الخلافة واضحاً و مسلّماً بحيث نقله بعض المستشرقين ، و منهم : جورج سيل«~ JEORGE SALE ~» في كتابه (قرءان محمّد)«~ ALCORAN OF MOHAMMAD ~» يقول فيه : لقد أظهر محمد ءانذاك محبّة و مودّة كبيرة لعلي ، فقد ضمّه الى صدره و أمر الحاضرين في المجلسى أن يسمعوا له و يعتبروه خليفته و أن يطيعوا أمره ، فتفرّق اولئك القوم عن المجلس و هم يقولون لأبي طالب : صار عليك الأن أن تُطيع ابنك !

و يقول جوف دون بُرت«~ JOHN DAVEN PORT ~» في كتاب (محمد و القرءان)«~ MOHAMMAD AND CORAN ~» ص 21 ضمن هذه القصّة : فنهض النبيّ و أظهر أخلاقه الحميدة و شمائله الكريمة ، ووهب لمن يتبعه كنزاً أبديّاً (كناية عن السعادة الأبديّة) ، و أورد في الختام خطبةً اشتهرت ببلاغتها و فصاحتها ضمّنها الأسئلة التالية : أيّكم يوازرني على هذا الأمر ؟ أيّكم يكون وصيّي و وزيري كما كان هرون وصيّ موسى ووزيره ؟ فكان السكوت مخيّماً على جماعة الحاضرين ، فلم يجرؤ أحد منهم على قبول تلك المهمّة الخطرة التي عرضها عليهم ، الى أن قام ابن عمّ الرسول عليّ ، ذلك الشاب الشجاع فصاح : أنا اؤازرك يا ايّها النبيّ ! . الى أن يقول . فطوّق محمّدٌ بيديه ذلك الفتى الكريم و ضمّه اليه و صاح : هاكم فانظروا الى أخي و وزيري !

و قد كتب و اشنجتن ارونيك الامريكي هذه القصّة في («الكتاب المقدّس» ترجمة الميرزا ابراهيم خان الشيرازي من الانجليزية الى الفارسيّة ، ص 60) ضمن شرحه أحوال النبيّ الى أن يقول :

قال النبيّ : من يتقدّم منكم فيؤاخيني ؟ من منكم يكون وزيري ووصيّي و خليفتي ؟ فصمت اهل المجلس مدّةً و لم يجبه أحد ، و ظلّوا ينظرون الى بعضهم و يتبسّمون في وجوه بعضهم تعجبّاً او سخرية ، الى أن قام عليّ أبي طالب بجرأة الشباب و قوّته غير مُبالٍ بأحد ، فتقدّم بقدم صادقة و قال : أنا غلامك و خادمك يا رسول الله ، و لو انني لا زلت طفلاً لا أصلح للخدمة .

فألقى النبيّ يده الى عنق ذلك الشاب الصادق و جذبه اليه فاحتضنه وهو يقول بصوتٍ عال : هاكم فانظروا الى أخي و وزيري و وصيّي وخليفتي !

و لقد أضحكت جرأة و جسارة و تفاخر طفل كمثل علي في محفلٍ كهذا قريشاً و أثارت استهزاءهم ، فالتفتوا الى أبي طالب و هم يقولون في سخرية : و أنتَ بالطبع تنتظرُ منّا ان نركع في حضور ولدك و نقوم بتعظيمه (19) .

و اجمالاً فانّ علينا ان نتحدّث عن هذا الحديث من جهتين : الاولى في السند ، و الثانية في الدلالة .

فأمّا من جهة السند ، فانّه . و كما ذكر . لا توجد أي شبهة أو شك تعتريه ، لأن سنده في نظر أهل السنّة في غاية القوّة و الإتقان ، لم يضعّفه منهم أحد الّا ابن تيمية حيث قال بأن هذه الحديث موضوع و مفتعل . وليس لكلام ابن تيمية اي اعتبار ، لأن الكلّ يعلم انّه كان رجلاً متعصّباً معانداً و معادياً لأهل البيت ، و كان يُنكر الأحاديث المسلّمة لمجرّد تضمّنها لفضيلةٍ من فضائل أهل بيت رسول الله . بل انّ من المسلّم عند أهل الفنّ ان ميزان ابن تيمية في ردّ و قبول الروايات هو تضمّنها لفضائل أهل البيت أم عدم ذلك .

يقول اليافعي في (مرءاة الجنان) : و لابن تيمية فتاوى عجيبة وغريبة عُدّ بسببها مُبعداً عند أهل السنّة ، حيث قاموا بسجنه لهذه العلّة ، و من أقبح نظريّاته الحكم بحرمة زيارة قبر الرسول محمّد صلى الله عليه [و ءاله] وسلّم . و العجب من الحلبي الذي نقل رواية العشيرة عن ابن تيمية ، الى قوله : فقال رسول الله : فَمَنْ يُجِيبُنِي إِلَى هذَا الأَمْرِ وَ يُوَازِرُنِي ، أَي يُعَاوِنُنِي عَلَى الْقِيَامِ بِهِ .

قَالَ عَلِيّ : أَنَا يَا رَسُولِ اللهِ وَ أَنَا أَحْدَثُهُمْ سِنّا ، وَ سَكَتَ الْقَومُ .

ثم يختم الحديث الى هذا الحدّ و لا يتطرّق الى شيء من مقامات أميرالمؤمنين في سؤال النبي و جوابه عليه السلام ، فيُسقط كلمة (عَلَى أن يَكونَ أَخِي وَ وَصِيّي وَ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي) و جواب النبيّ : (فَأَنْتَ أَخِي وَوَصِيّي وَ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي) . و الأعجب من ذلك قوله : و أضاف البعض كلمة (أَخِي وَ وَصِيّي وَ وَارِثِي وَ وَزِيرِي وَ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي) [20] .

جنايات الطبري في حديث العشيرة :

يقول العلّامة الأميني تحت عنوان (جنايات على الحديث) : منها ما ارتكبه الطبري في تفسيره (ج 19 ، ص 74) ، فإنّه بعد روايته له في تاريخه كما سمعت ، قلّب عليه ظهر المجنّ في تفسيره فأثبته برمّته حرفيّاً متناً وسنداً ، غير أنّه أجملَ القول فيما لهج به رسول الله صلّى الله عليه و ءاله في فضل من يُبادر الى تلقّي الدعوة بالقبول ، قال : فَقَال : فَأَيّكُمْ يُوَازِرُنِي عَلَى هَذَا الأَمْرِ عَلَى أَن يَكُونَ أَخِي وَ كَذَا وَ كَذَا ؟

و قال في كلمته صلّى الله عليه و ءاله الأخيرة : ثُمّ قَالَ : إنّ هَذَا أَخِي وَكَذَا وَ كَذَا . (و يلاحظ مدى الجناية الفاضحة التي ارتكبها حين عمد ، من أجل اخفاء الحق و طمسه و من اجل اخفاء مقامات و فضائل أميرالمؤمنين ، الى إجمال لفظ (وَصِيّي وَ خَلِيفَتِي فِيكُم) و إيراده على نحو الإبهام!)

جناية ابن كثير في نقل حديث العشيرة : و تبعه على هذا التقلّب ابن كثير الشامي في البداية و النهاية (ج 3 ، ص 40) و في تفسيره (ج 3 ، ص 351) . فعل ابن كثير هذا و ثُقُل عليه ذكرُ الكلمتين (وصيّي و خليفتي فيكم) و بين يديه تاريخ الطبري و هو مصدره الوحيد في تأريخه و قد فصّل فيه الحديث تفصيلاً ، لأنّه لا يروق اثبات النصّ لأميرالمؤمنين بالوصيّة و الخلافة الدينية ، والدلالة عليه و الإرشارة اليه . و هل هذه الغاية مقصد الطبري حينما حرّف الكلم عن مواضعه في التفسير بعد ما جاء به صحيحاً في التأريخ على حين غفلة عنها ؟! أنا لا ادري ، لكنّ الطبري يدري ، و أحسبك أيّها القارىء جِدّ عليم بذلك .

جناية هيكل في نقل حديث العشيرة :

و منها خزاية فاضحة تحمّلها محمد حسنين هيكل [21] ، حيث أثبت الحديث كما أوعزنا اليه في الطبعة الاولى من كتاب (حياة محمّد) ص 104 بهذا اللفظ (يذكر الحديث كما ورد ثم يختمه بهذه الكيفيّة) :

فَأَيّكُمْ يُوَازِرُنِي هَذَا الأَمْرَ وَ أَن يَكُونَ أَخِي وَ وَصِيّي وَ خَلِيفَتِي فِيكُمْ ؟ فَأَعْرَضوا عَنْهُ وَ هَمّوا بِتركِهِ ، لَكِنّ عَلِيّاً نَهَضَ وَ مَا يَزَالُ صَبِيّاً دُونَ الْحُلُمِ وَ قَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ عَوْنُكَ ، أَنَا حَربٌ عَلَى مَنْ حَارَبْتَ . فَابْتَسَمَ بَنُو هَاشِمٍ وَ قَهْقَهَ بِعضُهُمْ وَ جَعَلَ نَظَرُهُمْ يَنْتَقِلُ مِنْ أَبِي طَالِبٍ إلَى ابنِهِ ثُمّ انْصَرَفُوا مُسْتَهزِئِينَ [22] .

فانّه أسقط من الحديث اوّلاً ما فرّع به رسولُ الله صلى الله عليه و ءاله كلامَه من قوله لعليّ : فَأَنْتَ أَخِي وَ وَصِيّي وَ وَارِثِي .

ثم نسب الى أميرالمؤمنين ثانياً انّه قال : (أَنَا يا رسول الله عَوْنُكَ ، أَنا حَربٌ عَلى مَن حَارَبْتَ) ليته دلّنا على مصدر هذه النسبة في لفظ أي محدّث أو مؤرخّ من السلف ؟ وراقه أن يحكم في الحضور في تلك الحفلة بتبسّم بني هاشم و قهقة بعضهم ، و لم نجد لهذا التفصيل مصدراً يُعوّل عليه . ومهما لم يجد (هيكل) وراءه ممّن يأخذه بمقاله ، و لم يَرَ هناك من يُناقشه الحساب في تقوّلاته و تصرّفاته ، أسقط منه ما يرجع الى أميرالمؤمنين

عليه السلام في الطبعة الثانية [23] سنة 1354 ، ص . 139 و لعلّ السرّ فيه لفتةٌ منه الى غاية ابن كثير و أمثاله بعد النشر ، أو انّ اللغط و الصخب حول القول قد كثرا عليه هناك من مناوئي العترة الطاهرة ، فأخذته أمواج اللوم و العتب حتى اضطرّته الى الحذف و التحريف ، أو انّ العادة المطّردة في جملة من المطابع عاثت في الكتاب فغضّ عنها الطرف صاحبه لاشتراكه معها في المبدء أو عجزه عن دفعها . و على أيّ فحيّ الله الشعور الحيّ ، و الأمانة الموصوفة ، و الحقّ المضاع المأسوف عليه [24] .

و أمّا الجهة الثانية من البحث التي تتناول مفهوم و دلالة الحديث ، فقد جاء في هذا الحديث باختلاف المضامين التي نُقل بها جملة (أَنْتَ أَخِي وَ وَصِيّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ ، و اسْمَعُوا لَهُ وَ أَطِيعُوا) وهو نصّ من رسول الله ، بل هو نصّ جليّ و مُبين على خلافته بلا فصل و على وصايته عليه السلام ، مثل حديث غدير خم ، غاية الأمر انّ هذا التنصيص كان في بدء النبوّة والدعوة ، و حديث الغدير في نهايتها ، حيث وقع عند نزول جبرئيل واخباره النبيّ بقرب حلول أجله ، هذا اذا ما أعرضنا عن بعض الروايات المذكورة ءانفاً ، و التي ورد فيها أيضاً عنوان : وَارِثِي وَ وَزِيرِي ، وَ وَلِيّ كُلّ مُؤمِنٍ بَعْدِي ، وَ هُوَ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسىَ ، وَ يَقْضِي دَيْنِي ، و لفظ (اسمَعُوا لَهُ وَ أَطِيعُوا) ، التي يدلّ كلّ منها على ولايته و خلافته صراحةً .

و لو فرضنا انّه لا يوجد في مجموع هذه الأحاديث غير جملة (أَخِي وَوَصِيّي وَ خَلِيفَتي فِيكُم) ، فانّ هذه الجملة . مع ذلك . ستدلّ بوضوح وصراحة على تنصيبه عليه السلام في مقام الخلافة و الوصاية .

ولاية أميرالمؤمنين كانت توأماً مع توحيد الله و نبوّة رسول الله منذ اليوم الأوّل .

يمكن القول يقيناً بأنّ ولاية أميرالمؤمنين قد بدأت منذ اليوم الأوّل مع شهادة (لاَ إلهَ إلّا اللهُ وَ مُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ) ، و بأنّ جملة (عَلِيّ وَلِيّ اللهِ) هي جملة متّصلة و غير قابلة للإنفكاك عن الشهادتين ؛ لأنه و منذ اليوم الأوّل الذي دعا فيه رسول الله قومه الى الاسلام و أمرهم بإقرار الشهادتين ، فانّه أمرهم في نفس اليوم و في نفس المجلس بإطاعة مولى الموالي أميرالمؤمنين و اتّباعه [25] ، و أعلنَ ولايتَه و خلافته .

و بناءً على ذلك فانّ الاسلام قد طلع منذ اليوم الأوّل بهذه الجمل الثلاث :

الشهادةُ بالله ، و الشهادة بنبوّة رسول الله ، و الشهادة بولاية عليّ وليّ الله ، و ما تقوله الشيعة من وجوب اتّباع أميرالمؤمنين هو واحد من المسائل القطعيّة في الإسلام ، فحقيقة التشيّع هي حقيقة الاسلام . و اولئك الذين اكتفوا بالشهادتين و رفضوا ولاية و خلافة أميرالمؤمنين قد رفضوا بذلك جزءاً من الاسلام ، و في الحقيقة فانّهم قد رفضوا الاسلام .

كما انّ الذين يشهدون بالتوحيد و لا يشهدون بالنبوّة قد أقرّوا بجزءٍ من الحقيقة و أنكروا الجزء الأخر ، بل قد أنكروا الحقيقة بأجمعها .

لقد أُسّس التشيّع و التبعيّة لأهل البيت و أوصياء رسول الله منذ اليوم الأوّل للإسلام ، و على هذا الأساس فقد أضيفت للولاية تدريجاً النصوصُ الصريحة للآيات القرءانيّة و لكلام رسول الله صلى الله عليه و ءاله ، كما أضيف للتوحيد و النبوّة تدريجاً نصوص صرحية من الأيات القرءانية وكلام حضرة الرسول .

و إضافة الى ذلك فانّه يُستفاد من هذا الحديث انّ أميرالمؤمنين كان شريكاً و مساهماً في تحمّل أعباء النبوّة و القيام بوظيفة التبليغ الخطيرة وإبلاغ الأحكام و الجهاد ، و إيصال أهل العالم الى المقصود الذي هو واجب الرسالة ، لأنّ مضمون الرواية ليس (كلّ من ءامن بي هو وصيّي و خليفتي) بل مضمونها (كلّ من يعاونني و يعاضدني يكون خليفتي) ، لأن جملات الرسول التي رُويت عنه كانت : أيّكُمْ يُوازِرُني على هَذا الأَمرِ ؟ و أَيّكُمْ يُبَايِعُني عَلَى أَنْ يَكُونَ أَخِي وَ صَاحِبي وَ وَارِثِي ؟

من منكم يُبايعني ، اي من منكم يوطّن نفسه على الموت ، و من يشري نفسه فيضع اختياره جانباً فيؤاخيني و يلازمني و يصاحبي و يكون وارثي في كلّ مراحل النبوّة و في مواجهة ءالاف المشاكل و تحمّل مشاقّ رسالتي الخطيرة ، بحيث يتحمّل بعدي لوحده هذه المسؤوليّة ، و يقف وحيداً في مواجهة دنيا الكفر ليبلّغ رسالتي ، فيقوم بذلك على خير وجه .

و أَيّكُم يُؤاخيني و يُوازِرُني وَ يَكُونَ وَلِيّي وَ وَصِيّي بَعْدِي وَ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي يَقْضِي دَيْنِي ؟

وَ أَيّكُمْ يَنْتَدِبُ أَن يَكُونَ أَخِي وَ وَزِيرِي وَ وَصِيّي وَ خَلِيفَتِي فِي أُمّتِي وَوَلِيّ كُلّ مُؤمِنٍ بَعْدِي ؟

و يُستفاد من كلّ هذه الأحاديث انّ الرسول صلّى الله عليه و ءاله كان يبحث عن الصاحب و المعين و الناصر الذي يُعاضده . و هذه الجملات صريحة في التساؤل : مَن منكم يأتي في وضعي هذا و حالتي هذه ، فلا يدعني وحدي ، و يقوم بنُصرة دين الله ، و يُعينني في حياتي و بعد مماتي في تحمّل هذه المسؤولية ، و يصاحبني في حياتي ، و يقوم بوظائف الرسالة خير قيام بعد مماتي ، و يؤدّي عنّي دَيني و عهدي تجاه ربّي ؟

و بناءً على هذا فانّ أميرالمؤمنين بقبوله لمثل هذا الأمر كان سهيماً مع الوجود المقدّس لرسول الله في جميع مراحل أداء الرسالة و إيصال الناس الى منزل السعادة ، و في الالتزام بالقيام بأعباء الخلافة و مشكلاتها .

صَلّى اللهُ علَيْكَ يَا أَبَا الْحَسَن ، و يجب ان لا يُتصوّر انّ المقام الذي منحه رسول الله لذلك الوجود العزيز بعنوان الأخ و الوزير و الخليفة والوارث كان أمراً تشريفيّاً ، او نتيجةً و استفادةً حصل عليها مقابل موافقته ، و كأنه كان يريد أن يجزيه بإعطائه مثل هذه المناصب ، بل انّه قد طلبه بهذه الجملات و ندبه لتحمّل المشاق في جميع الأمور .

مَن يتحمّل هذا الجبل العظيم الذي ينوء به الظهر ؟ من يقف معي كتفاً الى كتف في مواجهة المشركين و دنيا الكفر و الشرك ، فلا يدعني أتحمّل لوحدي كلّ تلك الضغوط ؟

مَن ينهض معي و يقف الى جانبي بروحه و قلبه بكلّ معنى الكلمة في جميع الحروب و الغزوات لإعلاء كلمة الحقّ ؟

من يهيّىء نفسه للوقوف بشجاعة امام المخالفات الشديدة لقريش ولكلّ طوائف الكفر ؟ من يستعدّ للهجرة و التشرّد في الجبال و القفار ؟

من يرضى بالنوم في فراشي ليلة المبيت ، فيرى جسده تحت سيوف شجعان العرب مقطّعاً إرباً إرباً ؟

مَن و من لا يهاب مواجة منافقي أمّتي حتّى بعد موتي ، و لا يسمح لذرّةٍ من الهوى بالدخول الى قلبه ، و يتحمّل ءالاف المشاكل و جبال الحزن و الغمّ ، و لا يتخطّى الرسول قيد أنملة ، لا تحرّكهُ صرخات ابنتي الزهراء ولا أنينها ، و لا تثير فيه الإحساسات القبليّة أو القوميّة ، فيبقى عاملاً بوظيفته في وقار و مهابة أشبه بالبحر الخضّم العظيم ، فيُعلّم و يُربّي ، ليس فقط ذلك العصر بمفرده ، بل جميع عالم البشريّة و الإنسانيّة الى يوم القيامة ، بالعلم و الحلم و العظمة و الوفاء و الصفاء و الصدق و الزهد و عدم الاعتناء بغيرالله سُبحانه .

فاعلموا يا أهل الدنيا انّ أميرالمؤمنين ، ذلك الطفل الصغير في ذلك اليوم ، قد ردّ بالإيجاب على الرسول الأكرم مقابل تلكم المشكلات ، و أبعد بجوابه هذه الأمواج العاصفة للخطرات بصدرٍ منشرح و قلب قويّ ، و أعدّ نفسه للفداء في أحرج اللحظات و أصعبها ، و كان يرى متجليّاً أمامه كالمرءاة المصاعب و المصائب خلال ثلاث و عشرين سنة تمثّل فترة رسالة النبيّ ، و المصائب والمحن على مدى ثلاثين سنة بعد رحلة الرسول . لكنّه نهض وصاح : أنَا يَا رَسُولَ اللهِ ! أنا يا رسول الله الذي يُعينك ويصاحبك و يلازمك و ينصرك ؛ لا أغفل عنك لحظة واحدة ، أنثر تحت قدمك المباركة روحي و مالي و شخصيّتي و حيثيّتي و عزّي و دنياي .

مستعدّ أنا لأراهم يُلقون الحبل في عنقي فيقودونني الى المسجد للبيعة [26] ، فلا أدعُ لساني يتخطّى جادّة العفّة و الصواب ، و لا الإحساسات أن تحرّكني وتُثيرني .

مستعدّ أنا لرؤية المشركين و هم يجمعون الحطب جوار بيت ابنتك فيحرقونه [27] ، و لسماع صوت (ويلاه وا محمّداه !) من قرّة عينك ؛ لكنّني لن أفدي ألأهم للمهّم و لن اتخطّى واجبي و وظيفتي حفظاً على الشريعة و بقاء القرءان و إعلاء الإسلام .

أنا الذي اختارَ السكوت و لم يُجب في أدقّ أوقات الامتحان ، و في اللحظات التي جاء فيها كبيرا قريش أبوسفيان و العباس يقولون : ابسط يدك يا عليّ لنبايعك فلا يستطيع أحد مخالفتك [28] فواللهِ إن شئت لأملأنّها على أبي فضيل . يعني أبابكر . خيلاً و رجلاً [29] .

أنا الذي لجأتُ الى قبرك منتحباً محزوناً من الظلم الذي لحق بابنتك ، فقلتُ : يَا ابنُ أُمّ إِنّ القَوْمَ استَضعَفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي [30] .

لذا فانّ عدم قيام أحد من المدعوّين في مجلس العشيرة لقبول هذا المعنى ، مع علمهم بصدق الرسول الأكرم ، لم يكن بغير سبب ، فلقد ترعرع رسول الله بينهم منذ طفولته ، و لم يكن غريباً أو مجهولاً في قومه ، لكنّهم كانوا يشعرون انّ القبول بهذا المعنى يعني تحمّل ءالاف المشاكل والغُصص و المصاعب ، لذا قاموا و تركوا مجلس رسول الله ساخرين مقهقهين . و قد اشار المرحوم السيّد الحميري في بعض قصائده الى حديث العشيرة ، كهذه القصيدة :

بأَبي أَنْتَ وَ اُمّي
يَا أَمِيرَ الْمُؤمِينَنا
بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمّي
وَ بِرَهْطِي أَجْمَعِينَا

الى أن يقول :

كُنْتَ فِي الدّنْيَا أَخَاهُ
يَوْمَ يَدْعُو الأَقْرَبِينَا [31]

و يقول أيضاً :

مِنْ فَضْلِهِ أَنّهُ كَانَ أَوّلَ مَنْ
صَلّى وَ ءامَنَ بِالرّحْمَنِ إذ كَفَرُوا
سِنِينَ سَبْعَاً وَ أَيّامَاً مُحَرّمَةً
مَعَ النّبِيّ عَلَى خَوْفٍ وَ مَا شَعروا
وَ يَوْمَ قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ قَدْ عَلِموا
أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَدْنَيْنَ إن بَصُرُوا

الى أن يقول :

مَنِ الّذِي قَالَ مِنْهُمْ وَ هُوَ أَحْدَثُهُمْ
سِنّاً وَ خَيْرَهُمْ فِي الذّكْرِ إذ سَطُرُوا
ءامَنْتُ بِاللهِ قَدْ أَعْطَيْتَ نَافِلَةً
لَمْ يُعْطِهَا أَحَدٌ جِنّ وَ لاَ بَشَرُ

وَ إنّ مَا قُلْتَهُ حَقّ وَ إنّهُمْ
إنْ لَمْ يُجِيبُوا فَقَد خَانُوا وَ قَدْ خَسِرُوا
فَفَازَ قِدْماً بِهَا وَ اللهُ أكْرَمَهُ
وَ كَانَ سَبّاقَ غَايَاتٍ إذَا ابتَدَرُوا [32] .

و يقول أيضاً في قصيدة أخرى :

عَلِيّ عَلَيْهِ رُدّتِ الشّمسُ مَرّةً
بِطَيبَةَ يَوْمَ الْوَحيِ بَعْدَ مَغِيبِ

الى أن يقول :

و قِيلَ لَهُ أَنذِر عَشِيرَتَكَ الأُولَى
وَ هُمْ مِن شَبَابٍ أَرْبَعِينَ وَ شِيبِ

الى أن يقول :

فَفَازَ بِهَا مِنْهُمْ عَلِيّ وَ سَادَهُمْ
وَ مَا ذَاكَ مِن عَادَاتِهِ بِعَجِيبِ [33]

تعليقات:

1) الأية 113 ، من السورة 4 : النساء .
2) تفسير الميزان) ، ج 2 ، ص 140
3) الأية 69 ، من السورة 4 : النساء .
4) الأية 6 و 7 ، من السورة 1 : الفاتحة .
5) تاريخ الطبري) ، ج 2 ، ص . 55
7.6) الطبري ، ج 2 ، ص 56 ؛ و يروي الحديث الرابع كذلك في (ينابيع المودّة) ص 60 عن ابن ماجة القزويني و أحمد في المسند و أبي نعيم الحافظ و الثعلبي و الحموييني بأدنى أختلاف في اللفظ .
8) المصدر السابق .
9) الفصول المهمّة) ص 14 ، و (مطالب السول) ص 11 ، و (تاريخ الطبري) ج 2 ، ص . 58
10) تاريخ الطبريج 2 ، ص 56 ؛ و (الفصول المهمّة) ، ص 16 ؛ و (مطالب السؤل) ، ص 11 الطبعة الحجريّة .
11) الأيات 214 الى 220 ، من السورة 26 : الشّعراء .
12) الغدير) ، ج 2 ، . 278
13) يقول السيّد اسماعيل الحميري في ديوانه ص 73 :

أبو حسن غلام من قريش
أبرّهم و أكرمهم نصابا
دعاهم أحمد لمّا أتتهُ
من الله النبوةُ فاستجابا
فأدّبه و علّمه و أملى
عليه الوحي يكتبه كتابا

فأحصى كلّما أملى عليه

و بيّنه له باباً فبابا

و تخريج هذه الأشعار عن (أعيان الشيعة) ج 12 ، ص 216 ؛ كما أورد الحميري في ص 213 فما فوق ثلاثة عشر بيتاً مفصّلاً عن حديث العشيرة .

14) تاريخ الطبري) ، ج 2 ، ص 62 و . 63

15) شرح نهج البلاغة) ابن أبي الحديد ، ج 3 ، ص 263 ،

و يقول العلّامة ءاية الله السيّد شرف الدين العاملي في كتاب (المراجعات) الطبعة الاولى ، هامش ص 111 بعد نقله هذا المطلب عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : و كتاب (نقض العثمانية) من الكتب التي لا نظير لها ، و يجب على كلّ شخص باحث ان يرجع اليه ، و هو موجود في ص 257 الى ص 281 من المجلد الثالث من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد في نهاية الخطبة القاصعة .

16) الغدير) ، ج 2 ، ص 279 . . 280

17) ملخّص لمطالب (الغدير) ، ج 2 ، ص 280 . . 284

18) الغدير) ، ج 2 ، ص . 287

19) نقلاً عن كتاب (شيعه در اسلام) سبط ، الجزء الاول ، ص 5 . . 7

20) السيرة الحلبية) ، المجلد الاول ، ص . 322

21) وزير الثقافة الأسبق في مصر ، و رئيس تحرير مجلّة الأهرام .

22) يذكر في كتاب (عليّ و الوصيّة) ، من ص 4 الى ص 19روايات كثيرة بطرق مختلفة مع ذكر اسنادها و العلماء الذين نقلوها في كتبهم ، ثم يقوم في ص 337 ببيان اسناد هذا الحديث بالتفصيل . ثم انّه يذكر في ص 374 (و هي مستدركات الكتاب) تحت عنوان : الحديث الرابع ، روايةً عجيبة في هذا الشأن عن أبيبكر يخاطب بها العبّاس بن عبدالمطلب ، ورد فيها انّ أبابكر قال : فجمع رسول الله عشيرته و قال : فمن يقوم منكم يُبايعني على أن يكون أخي و وزيري و وصيّي و خليفتي في أهلي ؟ فلم يقم ... الخ ؛ و ينقل فى ص 375 نظير هذا الحديث ؛ ينقل هذين الحديثين عن التاريخ المخطوط لابن عساكر الذي توجد له صورة فوتوغرافيّة في مكتبة الامام اميرالمؤمنين العامّة في النجف الأشرف . كما ينقل هذا الحديث عن أبي بكر في (المناقب) لابن شهرءاشوب ، ج 1 ، ص . 544

23) يقول الشيخ محمّد جواد مغنية في كتاب (الشيعة و التشيّع) ص 14 :

و نقل الشيخ محمد حسن المظفّر في كتاب (دلائل الصدق) ، ج 2 ، ص 233 عن كتاب (كنز العمال) ج 6 ، ص 397 انّ النّبيّ قَالَ لِعَشِيرَتِهِ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدّنْيَا وَ الْأُخِرَةِ ، وَ قَدْ أَمَرَنِي رَبّي أَنْ أَدْعُوكُمْ إِلَيهِ ؛ فَأَيّكُمْ يُوَازِرُنِي عَلَى أَمْرِي هَذَا ؟ قَالَ عَلِيّ : أَنَا يَا نَبِيّ اللهِ أَكُونُ وَزِيرَكَ عَلَيْهِ . فَأَخَذَ النّبِيّ بِرَقَبَتِهِ وَ قَالَ : إِنّ هَذَا أَخِي وَ وَصِيّي وَ خَلَيفَتِي فِيكُمْ ؛ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا ! فَقَامَ الْقَوْمُ يَضْحَكُونَ وَ يَقُولُونَ لَأَبِي طَالِبٍ : قَدْ أَمَرَكَ أَن تَسْمَعَ وَتُطِيعَ لِوَلَدِكَ عَلِيّ .

ثمّ يقول في التعليقة : ذكر هذه الحديث محمد حسين هيكل في كتاب (حيوة محمّد) الطبعة الاولى ، ثمّ حذفه في الثانية لقاء 500 جنيه (الجُنيه هو العُملة المتداولة في مصر) ودليلُنا المقابلة بين الطبعتين . انظر التعليق ص 114 من (أعيان الشيعة) ج 1 ، القسم الأول ، طبعة 1960 انتهى .

24) خلاصة ما جاء في (الغدير) ، ج 2 ، ص 287 الى . 289

25) من الجدير بالذكر في هذه الرواية ، انّه لم يعيّن أميرالمؤمنين عليه السلام وليّا وإمامًا واجب الطاعة بعد رحلته فقط ، بل انّه عيّنه كذلك في حياته أيضًا . ذلك لأنّه يقول فَاسمعوا له و أطيعوا . و هذه العبارة تثبت وجوب السمع و الطاعة له عليه السلام في زمان رسول الله و تدل على عصمته عليه السلام منذ ذلك اليوم ، لأن هناك ملازمة بين العصمة وبين وجوب الاتّباع ، كما انّه كان من رسول الله منذ ذلك اليوم بمنزلة هرون من موسى الّا انّه ليس بنبيّ . و يَدلّ على هذه المقولة ، كلام العلّامة ءاية اللهالسيّد شرف الدين العاملي في كتاب (النّص و الاجتهاد) ، الطعبة الثانية ، مطبعة دار النهج . بيروت ، ص 376 في التعليقة الاولى .

26) شرح نهج البلاغة ابن ابي الحديد) ، ج 2 ، ص 19 ؛ و ج 1 ، ص 134 ؛ و (الإمامة و السياسة) ، ج 1 ، ص . 12

27) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد) ، ج 2 ، ص 19 ؛ المختصر في أخبار البشر و(تاريخ أبوالفداء) ، ج 1 ، ص 156 ؛ و (العقد الفريد) ابن عبد ربّه ، ج 3 ، ص . 63

28) شرح نهج البلاغة) ابن أبي الحديد ، ج 1 ، ص 131 ، نقلاً عن كتاب (السقيفة) .

29) و هذا هو كلام أبي سفيان . (شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد) ، ج 1 ، ص . 130

30) الإمامة و السياسة) ، ج 1 ، ص . 13

31) هذه القصيدة مذكورة في (ديوان الحميري) ، ص 436 ؛ و قد نقل أصلها من (الغدير) ، ج 2 ، ص 250 و (أعيان الشيعة) ، ج 12 ، ص 268 ؛ و (المناقب) ، ج 2 ، ص 26 و176 ، و ج 3 ، ص . 55

32) ديوان الحميري) ، ص 203 ؛ و قد ذكر أصل القصيدة من (اعيان الشيعة) ج 12 ، ص 248 ؛ و (الغدير) ، ج 2 ، ص 250 ، و (المناقب) ، ج 2 ، ص . 26

33) ديوان الحميري) ، ص 117 ، و قد ذكر أصل القصيدة من (الغدير) ج 2 ، ص 251 ، و (المناقب) ص 26 ، و ص . 318

ص 26 ، و ص . 318

الدرس السادس : عصمة الأنبياء لا تتنافى مع اختيارهم في فعل أفعالهم

بسم الله الرحمن الرحيم

و صلى الله على محمد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدآئهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوة إلّا بالله العلي العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

رُسُلًا مّبَشّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللهِ حُجّةٌ بَعْدَ الرّسُلِ [1] .

عصمة الأنبياء عن طريق إتمام الحجّة من قبل الله :

تبيّن هذه الأية المباركة السبب من إرسال الأنبياء الى الناس و الغاية من التبشير و الإنذار ، و هي إتمام الحجّة على الناس لئلاّ يكون لديهم عذر في ارتكاب الأخطاء و الذنوب ، و لئلاّ يُقيموا الحجّة على الله يوم القيامة بأنّهم لم يكونوا يدركون شيئاً و أن أحداً لم يوجد ليقوم بهدايتهم .

و من الجلّي انّ قاطعيّة العذر و كون أفعال الأنبياء و أقوالهم حجّة سيكون حين لا يعصون و لا يرتكبون أي زلل في أقوالهم و أفعالهم ، و لا يُبتلون بالخطأ عند تلقّي الأحكام من قبل الله أو عند تبليغها ، و الاّ فانّ حجّة الناس و عذرهم سيكونان باقيين .

و سيقولون انّنا قد عملنا بالمعاصي لأنّنا شاهدنا الأنبياء يرتكبونها ، ولقد بدرت منّا الأخطاء و المعاصي بسبب أخطاء النبيّ في قوله و فعله ، فلقد أخطأ النبيّ و لم يتلقّ الوحي بصورة صحيحة ، او انّه تلقّاه بصورة صحيحة لكنّه أخطأ واضطرب في تبليغه ، لذا فقد قمنا بأفعالنا نتيجة لذلك خلافاً للحقّ .

و لذا فانّ الأنبياء الذين بُعثوا لهذا الهدف ينبغي أن لا يقعوا في الزلل و الخطأ ، و الاّ لما تحقّق الهدف من بعثتهم ، و هذا هو معنى العصمة .

إثبات العصمة من ءاية أخرى :

كما يمكن استفادة العصمة من ءاية اخرى :

وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن رّسُولٍ إلّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ . [2]

فكما أنّ الأنبياء يصبحون مُطاعين بإذن الله ، فانّ من يتبعونهم سيكونون بالملازمة مطيعين بإذن الله ، و ستتعلقّ إرادة الله و إذنه بأفعالهم ، و من المعلوم انّ النّبي لو أخطأ في تبليغه او ارتكب ذنباً فتجاوز الحقّ في النتيجة في قوله و فعله الّذين هما وسيلتان لإبلاغ الأحكام ، فانّ الناس الذين يتبعونه سيكونون بالتأكيد قد تجاوزوا الحقّ و عملوا خلافه .

و وفقاً للأية المباركة السابقة في تعلّق إذن الله بأفعالهم ، فإنّ إرادة الله و إذنه ستتعلّق أيضاً بالأفعال الباطلة . و باعتبار انّ إرادة الله هي حقّ على الدوام و متعلّقة بالحقّ ، فانّه ينبغي الّا يرتكب نبيّ من الأنبياء أيّ خطأ أو معصية ، ليكون إذن الله الذي يتعلّق بفعل من يُتابعهم في العمل متعلّقاً بفعل الحق .

وَاللهُ يَقُولُ الْحَقّ وَ هُوَ يَهْدِى السّبِيلَ [3] .

و إضافة الى ذلك فانّ النبّي اذا ارتكب معصية إمّا في القول أو الفعل ، في حين ان المعصية مبغوضة من قبل الله و مورد نهيه سُبحانه ، فانّ تلك المعصية ستكون مبغوضة و منهيّاً عنها من قبل الله كما ستكون محبوبةً مأموراً بها من قبله تعالى . فمورد البُغض و النهي من جهة انّ عمله كان . حسب الفرض . معصيّةً ، و كلّ معصية مبغوضة منهيّ عنها ؛ و امّا مورد حبّ الله و أمره ، فمن جهة انّ فعله و قوله كان . حسب الفرض . بإذن الله . و ان الهدف من الرسالة هو اطاعة الله ، و بناءً على ذلك فانّ قوله و فعله هذا قد نشأ بإذن الله و رخصته و إرادته . و لأنّ اجتماع البُغض و الحبّ في شيء واحد من جهة واحدة ، و كذلك اجتماع الأمر و النهي في فعل واحد من جهة واحدة أمر مستحيل ، لذا فانّ المعصية و الإثم من قبل الأنبياء أمر مستحيل ، و هذا هو معنى العصمة .

ملكة العصمة ليست سبباً في جعل الأفعال اضطراريّة اجباريّة :

يظنّ كثير من الناس انّ الأفعال التي تصدر من الأنبياء و الأئمّة الذين يمتلكون ملكة العصمة تصدر بدون قوّة علميّة و لا إرادة اختياريّة ، و انّ ملائكة السماء التي جعلها الله لحفظ و حراسة قلوبهم عن الخطأ و المعصية هي كالرصد الدائم في مقام المصونيّة و المحافظة الدائمة تحذّرهم من أي اختيار أو تصرّف .

و بناءً على هذا فانّه لا يجب قياس عبادتهم و مجاهدتهم مع سائر أفراد البشر ، لأنّ أفراد البشر يسلكون طريق الله اثر مجاهدتهم النفسيّة ويواجهون المشاكل و المشاقّ ؛ في حين أن الأنبياء يُهْدَون باطمئنان بواسطة جبرئيل و سائر الملائكة ، فهم لهذه الجهة طاهرون و طيّبون ذاتاً ، ولا يرد في سيرتهم شيء غير الطهارة و الطيب . و بناءً على ذلك فانّ كلّ ما فعلوه من التبليغ و الترويج و الإستقامة و العبوديّة و المجاهدة و الصدق لا ينبغي توقّعه و انتظاره من سائر الناس ، لأن سنخ وجودهم يغاير سائر أفراد البشر . و بالنتيجة فانّ أفعالهم و أقوالهم تغاير أقوال و أفعال أفراد البشر ، ونتيجة لذلك فانّ عصمتهم ليست منهم ، بل من الله الذي يُسيرّهم بين يديه فيتحركون بتحريكه دون أي يكون لهم أيّ اختيار أو أي قوّة علميّة قلبيّة .

و هذا الظنّ خاطىء جدّاً و لا محلّ له ، علاوةً على انّه سيفتح لأفراد الأمّة طريق التثاقل و التهاون ، لأنّه من الواضح ان الأنبياء مع وجود مقام العصمة و الطهارة لديهم ، و مع وجود مصونيّتهم و حفظهم بإرادته واختياره و ملائكته ، ولكن في نفس الوقت فانّ الله و إرادته تلك ليست خارجة عن وجودهم ، و أن أعمالهم لا تصدر بدون قوّة علميّة و إدراكيّة ، وبدون إرادة قلبيّة و اختيار .

و لإيضاح هذا المطلب نقول انّ جميع الحوادث التي تحدث والموجودات التي توجد في العالم ، مرتبطة كلّها و منوطة بالسبب و العلّة التي نشأت عنها ، و انّها تتحقّق في الخارج بعلّة الصدور عن تلك العلّة .

و بناءً على هذا فانّ جميع الأفعال و الأقوال التي يفعلها النبيّ على ميزان واحد ، و هي كلّها على صواب و حقّ و طاعة ، و معلولة لسبب موجود في نفس النبي ، و هو نفس الملكة و القوّة الرادعة التي توجد في النبيّ .

تماماً مثل حالنا حين نعمل عملاً ، فاننا لانفعله دون ان نتصوّر صورته أولاً ، و نميل اليه ثانياً ، ثم نصدر إرادة تحقّقه . كما انّه يجب علينا . من اجل أن نفعل شيئاً . ان نتصوّر في الوهلة الاولى شكله و منظره ، ثم نجد رغبة الى ذلك العمل في الوهلة الثانية ، ثم نوجد في الوهلة الثالثة في أنفسنا إرادة القيام بذلك العمل .

والحال كذلك لدى الأنبياء أيضاً ، فانّ الأفعال التي تصدر عنهم تكون بعد تصوّرهم للصورة العلميّة ، و بعد ميلهم و إرادتهم لتحقّق ذلك العمل .

و لإيضاح هذه المسألة نضيف : قد تصدر منّا نحن البشر أعمال حسنة أو سيّئة ، فالأعمال الحسنة ينبغي علينا أوّلاً ان نتصوّر صورتها العلمية ، ثمّ نقدم على فعلها بعد أن نجد لها في أنفسنا ميلاً و إرادة ، و الأمر كذلك بالنسبة للأعمال السيّئة . و لو فرضنا انّ هناك أفراداً لا تخطر في أذهانهم صور يميلون اليها الاّ و كانت صوراً جميلة و حسنة ، لذا فانّه بعد تعلّق الإرادة بهذه الأفعال فانّه سيظهر من هؤلاء على الدوام اعمال حسنة . وعلى العكس فاذا ما وجدت على الدوام في أذهان بعض الناس صور قبيحة و مناظر للخيانة و الجناية و المعصية مع توفّر الإرادة أيضاً ، فانّه ستصدر منهم على الدوام أفعال قبيحة ، و هؤلاء هم أهل الشقاء ، كما أن الفئة الاولى هم أهل السعادة .

انّ الأنبياء هم من اولئكم الفئة التي تنعكس في أذهانهم دوماً صور الخيرات و الأفعال الحسنة فيميلون اليها ، ثم يفعلونها بعد تحقّق إرادتهم . ولأن تلك الصور تظهر في أذهانهم بشكل متعاقب ، فانّ حصول تلك الصور يتحوّل لديهم الى ملكة مثل ملكة العفّة و الشجاعة و السخاء و غيرها . وهذا عبارة عن ملكة العصمة فيهم . و بناءً على هذا فانّ صدور أفعال الأنبياء بوصف الطاعة سيكون دائماً و باستمرار مسبّباً عن الصورة العلميّة الحسنة الدائميّة ، و ذلك هو إذعانهم القلبي بالعبوديّة ، و المراد من الملكة هو رسوخ و عدم تغيّر الصورة العلمية في النفس .

أفضليّة الأنبياء بسبب وجود الاختيار في أفعالهم :

و هذا هو سبب مزيتّهم و أفضليّتهم على سائر أفراد البشر ، لأن ملكتهم النفسانية و قوّتهم العلميّة عالية جداً ، بحيث يختارون دائماً الخيرات و الطاعات بعلمهم و إرادتهم غير المنفكّة عنهم ، و الّا فاذا فُرض انّ العمل الحسن يصدر منهم بدون العلم و الاختيار المرتبط بوجودهم ، فانّهم سيكونون أشبه بالساعة التي تُنصب فتتحرّك دون اختيار ، او كمثل مفتاح الباب الذي يفتح الباب دون اختيار و إرادة ، بل بسبب حركة اليد .

فأي فضيلة و شرف سيكون لهم في مثل هذه الحالة ؟!!

و إضافة الى ذلك فانّنا نعلم انّ الأنبياء يتلقّون الوحي فلا يُخطئون في التلقّي و التبليغ ، و لو كان هذا التلّقي و التبليغ غير مستند الى القوّة النفسانيّة و الملكة الموجودة فيهم ، و بدون الأسباب الموجودة بوجود الأنبياء والمقترنة بواقعيّتهم و وجودهم ، لاستلزم ذلك انّ هذه الأفعال ستصدر بدون علم النبيّ و إرادته ، و بذلك فانّ أفعال النبيّ ستخرج عن الاختيار ، وهو ما يتنافى مع افتراضنا بأن النبيّ مختار كسائر أفراد البشر .

و بناءً على هذا فانّ كلّ الأفعال التي تصدر عن الأنبياء قولاً و فعلاً ، والمعجزات التي تظهر على يدهم ، كانت كلّها بسبب علمهم و اختيارهم ، ومستنده الى ملكتهم و كيفيّتهم و حالتهم القلبيّة ، و ذلك كلّه مستند أيضاً الى إذن الله و حفظ الملائكة الذين يحفظون بهذا الطريق حالاتهم القلبيّة والاختياريّة و صورهم العلمية و ملكاتهم النفسيّة .

و ينتهي هنا بحثنا عن عصمة الأنبياء ، و يتضّح بشكل كامل كيفيّة إفاضة هذه الموهبة الالهية ، و يتعيّن فضلهم و شرفهم بالنسبة لسائر البشر ، فلا بدّ . من أجل توضيح مقاماتهم و درجاتهم التي ذكرناها في الدروس السابقة . أن نبحث عن كيفيّة الخلقة و عن كيفيّة حصول ملكة العصمة فيهم ، و هذا مايحتاج الى عدّة أبحاث .

الخلقة عبارة عن الظهور لا الولادة و الخروج :

البحث الأوّل : انّ عالم الخلقة بما فيه الموجودات المجرّدة والماديّة ، هو ظهورٌ لنور وجود الباري تعالى شأنه ، و جميع الممكنات هي مظاهر وتجليّات لتلك الذات المقدّسة ، و لذلك فانّ كلّ ممكن يقتبس بقدر سعة ماهيّته و قابليّته من نور وجود الحقّ تعالى ، فينعكس شعاع ذلك النور الطاهر في مرءاة وجوده ، فيتخلّع بخلعة وجوده .

و ليس معنى الخلقة خروج شيء من ذاته المقدّسة و إيجاد شيء مستقلّ في الخارج ، بحيث يقوم بنفسه و يستند الى نفسه في أصل الوجود ، أو في استمراره أو في الصفة و الفعل .

و بناءً على هذا فانّ جميع عالم الوجود . عدا ذات الربّ . قائمٌ به ومستند اليه و معتمد عليه ، بحيث انّه لو فُصل عن هذا الإتّكاء و القيام والاعتماد لحظةً واحدة لا نغمر عالم الخلقة في ظلمة الفناء و العدم .

يَأَيّهَا النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ وَ اللهُ هُوَ الْغَنِىّ الْحَمِيدُ (4) .

و على هذا الأساس فانّ اظهار الأنبياء لعجزهم و مسكنتهم مقابل ساحة الله سُبحانه ، و مشاهدتهم فاقتهم و فقرهم أمام الذات القدسيّة ، وتعفيرهم سيماء التذلّل في التراب في مناجاتهم ، لم يكن تصنّعاً أو مُجاملة ، بل كان حاكياً عن أمر حقيقيّ واقعيّ ، و لذلك فاننا لا نفرّق من هذه الجهة بين الأنبياء و الأئمة و سائر الناس من أيّ صنف أو طبقة ، فكلّ ما يمتلكه أحد يمتلكه بالله و مع الله ، امّا بدون الله فانّ الجميع لا يمتلكون شيئاً .

أساس عالم الوجود مبني على اختلاف الموجودات :

البحث الثاني : انّ اساس عالم الوجود مبنيّ على الاختلاف في الظهورات و التجليات ، و هذه المسألة كانت مشهودة في الفلسفة تحت عنوان (الوَاحدُ لاَ يَصْدُرُ مِنْهُ إلّا الوَاحِدُ) و في العرفان تحت عنوان (لَا تِكْرَارَ فِي التَجَلّي) من قبل العرفاء الأجلاّء من الأولياء ذوي العزّة والمقدار ، كما كانت مورد بحث الحكماء الراشدين المسلمين .

اي انّه يستحيل في جميع عالم الخلقة وجود موجودين متساويين من جميع الجهات . نعم ، يوجد بعض الموجودات المتشابهة في بعض الجهات ، ولكن وجود موجودين متشابهين متماثلين من جميع الجهات أمرٌ يمتنع تحقّقه .

و قد أقرّت العلوم التجريبيّة اليوم بهذا الأساس ، و أثبتت على ضوء القياس و الإستقراء و التجارب المستمرّة بأنّه لا يوجد تشابه من جميع الجهات بين موجودين اثنين ، و انّ لكلّ موجود مميّزات منحصرة به . حتّى انّه لا يوجد بين أفراد الإنسان منذ خلقة ءادم أبي البشر الى يوم القيامة انسانان متشابهان من جميع الجهات ، لا من جهة الذاتيّات و الصفات ، و لا من جهة الأعراض الزمانية و المكانيّة و الكيفيّة و الكميّة و غيرها ، حتّى انّه لا يوجد انسانان متشابهان في الخطوط الموجودة في بنان أصابعهما و في الخطوط المنقوشة على بدنيهما ، و يُستفاد من هذا الاختلاف في أمر تشخيص هويّة المجرمين .

بل انّ خطوط الجلد الموجودة في أيّ نقطة من جسم الإنسان تختلف عن غيرها في جزء ءاخر من نفس الجسم ، فالخطوط الموجودة على أصابع الكفّ الأيمن مثلاً تختلف عن الخطوط الموجودة على أصابع الكفّ الأيسر ، و خطوط سبّابة اليد اليمنى تختلف عن خطوط بقيّة الأصابع في نفس الكف .

و لذلك ، و على أساس هذا الأصل الكلّي و الدائمي فانّ كلّ فرد من أفراد الإنسان يختلف في تشكيل الخلقة عن الأخر ، و كما يتفاوتان في السيماء و الشكل و الشمائل ، فانّهما يتفاوتان أيضاً الى حدّ كبير في الملكات و الغرائز .

و يلاحظ في مرحلة الطفولة انّ بعض الاطفال يتفاوتون في مقدار السخاء و الايثار ، و في الحياء و العفّة ، و في المتانة و الأصالة ، و في الشجاعة و الذكاء و الفهم و النباهة ، لذا فان الأنبياء و الأئمة يتفاوتون مع سائر البشر ، بل انّ الانبياء في نفس الوقت الذي بُعثوا فيه بأجمعهم من قبل الله و أُوكلت اليهم مهمّة ابلاغ الرسالة ، و مع اتّفاقهم على دعوة الناس الى مقام التوحيد ، و بعبارة مختصرة ، مع انّهم كلّهم من مبدأ واحد و يرجعون الى مرجع واحد ، و ان مجيئهم و ذهابهم من مكان واحد و الى مكان واحد ، يشهد على ذلك قوله تعالى على لسان المؤمنين :

لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رّسُلِهِ (5) .

فانّهم في نفس الوقت يختلفون و يتفاوتون من جهة سعتهم الوجودية ، التي يتبعها تفاوتهم في الغرائز و الصفات و المواهب الالهيّة .

تِلْكَ الرّسُلُ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مّنْهُمْ مّن كَلّمَ اللهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَتٍ وَ ءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيّنَتِ وَ أَيّدْنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (6) .

و هذا الاختلاف واضح و مشهود في هذه الأيات المباركة التي تشرح قصص الأنبياء و صفاتهم .

جميع الموجودات التي تحمل القوّة و الاستعداد تتحرّك باتّجاه الكمال :

البحث الثالث : انّ هناك حركة نحو الكمال في جميع الموجودات التي تمتلك قوّةً و استعداداً ، و التي ينبغي ان توصل قابلياتها الى مرحلة الفعليّة . و نتيجة هذا السير و الحركة هي العبور من مراحل الكمون والاستعداد و الوصول الى مراحل ظهور الكمال و الفعليّة . و هذه الحركة موجودة في جميع موجودات عالم الطبع ، بما فيها الانسان و الحيوان والنبات و الجماد ، كما انّ السير و العبور من المراحل البدويّة الى المراحل النهائيّة أمر مشهود .

و لأنّ الأنبياء و الأولياء هم كسائر أفراد البشر غير مستثنين من هذه القاعدة ، فاننا نرى انّ مراحل تكوينهم تبدأ في هذا العالم من سُلالة من ماء مهين ، ثم تطوي مراحل استعدادها و فعليّاتها المختلفة ، و تتخطّى مراحل الاستعداد واحداً بعد ءاخر ، من نطفة و علقة و مضغة و تشكّل العظام وإكسائها باللحم ، ثم انشاء خلقة الروح و تبديل المادة الى النفس المجرّدة الناطقة ، فتستقبل مراحل الفعلية واحدةً بعد اخرى ، الى أن تصل الى مرحلة الفعليّة التامة :

يَأيّهَا الْإِنْسَنُ إِنّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبّكَ كَدْحًا فَمُلَقِيهِ (7) .

كما انّ الأنبياء هم ـ من جهة السير و الحركة الطبيعية و الطبعيّة والماديّة ـ كسائر أفراد البشر في حركة من الصِغر الى الكبر ، و من الضعف الى القوّة ، و من صغر الجسم الى كبره ، يدلّ عليه قوله تعالى :

قُلْ إِنّمَا أَنَاْ بَشَرٌ مّثْلُكُمْ (8) .

و قوله تعالى في ءاية أُخرى :

وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَآءِ الْأَخِرَةِ وَ أَتْرَفنَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدّنْيَا مَا هَذَا إلّا بَشَرٌ مّثْلُكُمْ يَأكُلُ مِمّا تَأكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمّا تَشْرَبُونَ (9) .

كما انّهم من وجهة نظر الكمالات الروحيّة و بروز القابليّات و الغرائز و الصفات الباطنيّة و الملكات في سير و حركة ، شأنهم شأن سائر أفراد البشر ، حيث يقومون مدّة عمرهم بإيصال تلك الجواهر المكنونة الى مرحلة الظهور و الفعليّة التامّة .

كمال كلّ موجود هو فعليّة القابليات الموجودة فيه

البحث الرابع : انّ حصيلة و نتيجة إيصال القابليات الى مرحلة الفعليّة أمرٌ يتبع مباشرة للقابليات نفسها ، ففعليّة الانسان مثلاً تابعة للقابلية الانسانيّة ، و فعليّة الحيوان تابعة لقابلية ذلك الحيوان ؛ فالنعامة لن تصل في سيرها التكاملي أبداً الى فعليّة صقر الصيد ، كما انّ فعليّة و كمال الخروف لن تظهر قابليات الجمل و الحصان . فكلّ واحد من هذه الانواع المختلفة والأصناف المتفاوتة من الحيوانات يتحرك في جهة تلك الغريزة و القابلية ، و يُظهر تلك القوة و القابلية الكامنة في ذاته ، و يوصلها الى مقام الظهور والبروز و الفعليّة و التماميّة .

على انّ جميع البشر ، كما انّهم من وجهة نظر المادّة و الطبع و من جهة تكاملهم و تماميّتهم في سير و حركة ، فانّهم إلزاماً في حركة و سير من وجهة نظر الكمالات الروحية ، و وفقاً للغرائز و الصفات التي وُهبت لهم ، من أجل اكمال أنفسهم و إيصالها الى الفعليّة المحضة . لذا يستحيل ان تكون فعليّة فردين من افراد البشر متساوية و متماثلة من جميع الجهات .

و هكذا فانّ عيسى لن يكون موسى ، و موسى لن يكون عيسى ، لكنّهما في حال النبوّة و في حال الموت غيرهما في حال النطفة أو في حال الجنين او في حال الطفولة . و عيسى على نبيّنا و ءاله و عليه السلام مع انّه قد بُعث نبيّاً بينما كان طفلاً يتكلّم في المهد ، فانّه في حال نزول الانجيل وبروز المعجزات الالهيّة و دعوة بني اسرائيل ، من شفاء الأبرص و إحياء الموتى و شفاء العُمي منذ ولادتهم ، كان غير عيسى الذي كان في بطن أمّه مريم ، و هكذا الحال بالنسبة الى باقي الأنبياء .

انتظار الله سبحانه و عالم الوجود من كلّ فرد هو كماله المطلوب لا كمال غيره :

البحث الخامس : ان انتظار عالم الواقع و الخارج من كلّ فرد هو كماله المطلوب لا كمال غيره ، فالعوالم المجرّدة و غير المجرّدة من العقول و الملائكة و الكواكب ، و سيّارات الشمس و القمر ، و الليل و النهار تتوقّع وتنتظر من كلّ فرد ايصال ثرواته الالهيّة على نحو حسن الى مرحلة الفعلية ، و أن لا يُهدرها أو يُفسدها ، و لا تنتظر منه أن ينال في مسيرته وحركته المراحل الفعليّة لسائر الموجودات التي تختلف عنه في اعطاء الغرائز والصفات الالهيّة :

لاَ يُكَلّفُ اللهُ نَفْسًا إلّا وُسْعَهَا (10) .

لَا يُكَلّفُ اللهُ نَفْسًا إلّا مَآءَاتبَهَا (11) .

انّ الله هو العدل المحض ، لذا فانّه لا يظلم مثقال ذرّة :

إنّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئًا (12) .

لأنّ الظلم يعني الانتظار و التوقّع من النملة و تكليفها بالقفز كما تفعل الجرادة ، فإن خالفت عُذّبت و عوقبت ، امّا اذا انتظُر من النملة ، حسب شعورها و إدراكها ، أن لا تسلب ظلماً حبّةً من فم نملة أصغر ، فانّ هذا ليس بظلم ، و هذا التكليف تكليف بالحقّ بمقدار القابليّة و الفهم والإدراك ، ومتلائم و السعة و الظرفيّة الوجوديّة للنملة ، و هو عين العدل المحض .

و اذا ما كلّف الله أفراد الأمّة بمثل التكليف الذي كلّفه للأنبياء فانّ هذا سيكون ظلماً ، اما اذا انتظر من كلّ فرد من أفراد الأمّة ظهور و بروز استعداداتهم و قابلياتهم في طيّ طريق الله و لقاء حضرته ، و كلّفهم بالمجاهدة و الصبر و العبودية قدر سعتهم و ظرفيّتهم في متابعة ذلك النبيّ ، فانّه لن يكون ظلماً أبداً .

الأنبياء يمتلكون العلم و الاختيار في جميع أفعالهم ، معجزةً كانت أم غير معجزة :

البحث السادس : انّ الأنبياء يمتلكون علماً و اختياراً شأنهم شأن سائر افراد البشر ، و الافعال التي تصدر عنهم بعنوان المعجزة أو الوحي الالهي الذي يبلغونه للناس ، او في مقام العبودية و الاستكانة عندما يعفّرون وجوههم بتراب المذلّة امام الله ، هي كلها نابعة من علمهم و اختيارهم ، فلا يصدر شيء منهم اضطراراً أو إجباراً ، لكنّ التزكية و الطهارة و العلم والقدرة الفكريّة و العملية تترشحّ كلّها بإذن الله من كيانهم ، و يظهر . تبعاً لذلك . ءاثار و خواص عجيبه و خارقة للعادة .

و الأن و قد أصبحت هذه الأبحاث واضحة و معيّنة ، فقد اتّضح كذلك كيفيّة خلقة الأنبياء و الأئمة عليهم السلام و كيفيّة عصمتهم .

فأوّلاً انّ ملكة العصمة في الأنبياء التي تحذّرهم من أي خطأ أو معصيه ، كانت اثر الموهبة الالهية ، و منسجمة كاملاً مع عنوان الوراثة والاعطاء بروح القدس ، لكنّ هذه العصمة كانت كذلك في المراحل الاولية بعنوان القوّة و القابليّة ، و هي معهم في كلّ الأحوال ، في النوم و اليقظة والتجليّات ، و قد وصلت ؛ على اثر المجاهدة و العبوديّة التامة والابتلاءآت الثقيلة و الامتحانات الكثيرة ؛ الى مرحلة الفعليّة و التماميّة .

عيناً مثل سائر الملكات المكتسبة لأفراد البشر من العلوم و الفنون والصنائع ، التي تبقى . بعد حصول الملكة . في أعلى درجاتها لا تنفصل عنهم أبداً ، و تبقى في كلّ حال ملازمة لوجودهم .

ان فعليّة و تماميّة هذه الملكة أمر اكتسابي ، لكنّ أصلها (أي القابليّة و الاستعداد) موهبة تختصّ مراحلها العالية بالأنبياء و الأئمة ، كما وُهبت سائر مراحلها لأولياء الله و المقرّبين له بحسب اختلاف درجاتهم .

ثانياً : ان ملكة العصمة فضيلة و شرف علميّ اختياريّ ، و هي من صفات نفوس الأنبياء ، و التي أصبحت على هذا الأساس سبباً في كرامتهم وشرفهم ، و ميّزتهم عن سائر أفراد الأمّة ، عيناً مثل ملكة علم الطبّ والرياضيّات و الفلك التي تميّز عالم الطب و عالم الرياضيات و عالم الفلك عن سائر الأفراد ، مع هذا الاختلاف انّ ملكة العصمة هي ملكة الواصل الى الواقع و متن الحقيقة ، و العلم الحضوري بالنسبة الى الأشياء ، و الوصول الى حقيقتها الخارجيّة ، و بالطبع فكما انّ الخطأ و الذنب ليس له معنى في متن الخارج ، فانّ الذنب و الخطأ كذلك لا معنى له لدى الأنبياء .

بيد انّ ملكة علم الطب و الرياضيّات ليست كذلك ، فهي تمنح القوة فقط لنفس الطبيب و عالم الرياضيّات في مجالٍ معيّن ، بحيث يمكنه الاستفادة من ملكته و اظهار ءاثارها في الخارج في أيّ لحظة يشاء .

ثالثاً : انّ إعطاء هذه الملكة للأنبياء و عدم إعطائها لغيرهم ليس ظلماً و لا جوراً ، لأن الظلم سيكون حين يُنتظر من موجودٍ ما نضح ءاثار تزيد عن حدّ وجوده ؛ والله سبحانه لم يكلّف غير الأنبياء بالتكليف الذي

حمّلهم ايّاه حسب السعة الوجوديّة لنفوسهم لئلاّ يكون ذلك ظلماً ، بل انّه كلّف كلّا حسب قابليّته و استعداده ، علماً بأنّ قابليّة و استعداد الموجودات ليسا خارجين عن إحاطة قدرة الله بل هي بإعطائه ، و كلام ابن سينا (مَا جَعَلَ اللهُ الْمِشْمِشَةَ مِشْمِشَةً بَلْ أَوْجَدَهَا) له دلالة جيّدة على ذلك .

و بناءً على هذه فانّ الخالق العليم قد خلق الموجودات ، و من جملتها أفراد الإنسان مختلفة متفاوتة دون أيّ ذرّة من الاستحقاق الذاتي ، و ابتلى كلّاً منها في طريق تكاملها ، و من جملتهم الأنبياء الذين ابتلاهم . بسبب تفوّق قابليّتهم التي وهبها الله لهم على قابليّات الأخرين . بابتلاءآت أعجب و امتحانات أصعب و مجاهدات أشقّ ، فسلكوا هذا الدرب و طووا هذا السبيل بقدم الطاعة و الاختيار . و أخيراً ، و لأن الكمال مختصّ بالله وحده ، فان مرجع الكمالات من الأنبياء أو غيرهم ، الى الله وحده . (13)

لقد تجلّى الله سبحانه و تعالى في الأنبياء تجلياً تاماً ، و تجلّى في نبيّ الاسلام تجلّيًا أتمّ و أكمل ، كما تجلّى في سائر الموجودات تجلّيات متفاوتة ، و لا يعني هذا أنّ الله أخرج شيئاً من وجوده فأدخله فيهم ، أو أنّه سلب ملكية صفة و ملكة ما فنقلها اليهم .

لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُن لّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (14) .

فلا يوجد في عالم التوحيد موجود غير ذاته الأحدية المقدّسة ، له بنفسه شيء يستحقّ المدح ، لا الأنبياء و لا غيرهم ، بل انّ كلّ شيء من الله و راجع اليه .

لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَى وَ الْأَخِرَةِ (15) .

الحمد و الشكر مختصّان بذات الخالق المقدّسة في النشئة الاولى وفي النشئة الاخرى .

بلى ، هذا المدح و الفضيلة و الشرف في عالم الكثرة و ظهور الموجودات على حسب اختلاف الكثرات و الاعتبارات ، و من الواضح أن الأنبياء هم أفضل و أشرف جميع الموجودات لأنّ سعتهم الوجوديّة أكثر من جميع الموجودات ، و لأن إدراكهم و علمهم أعلى ، و مجاهدتهم وابتلاءآتهم أكثر ، وَالْحَمْدُ لِلهِ أَوّلًا وَ ءاخِرًا وَ ظَاهِرًا و بَاطِنًا .

كانت هذه مطالب بيّناها في شأن العصمة الكليّة للأنبياء .

إثبات عصمة أميرالمؤمنين عن طريق اتّحاد نفسه مع نفس رسول الله

انّ أميرالمؤمنين له حكم نفس رسول الله بمقتضى النصوص الصريحه ، و لذلك فانّ قلبه المبارك له ملكة العصمة القدسيّة . و الروايات الواردة في اتّحاد روحه عليه السلام مع روح رسول الله صلّى الله عليه وءاله ، عن طريق أهل السنّة كثيرة ، و نذكر بعضها كنماذج :

يقول القندوزي الحنفي :

و في المناقب عن عليّ بن الحسن ، عن عليّ الرضا ، عن ءابائه ، عن أميرالمؤمنين عليٍّ عليهم التحيّة و السلام .

قَالَ : إنّ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه و ءاله خَطَبَنَا فَقَالَ : أَيّهَا النّاسُ إنّهُ قَدْ أَقْبَلَ إلَيْكُمْ شَهْرُ اللهِ بِالبَرَكَةِ وَ الرّحْمَةِ والْمَغْفِرَةِ ، وَ ذَكَرَ فَضْلَ شَهْرِ رَمَضَانَ ثُمّ بَكَى ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا يُبْكِيكَ ؟

فَقَالَ : يَا عَلِيّ ! أَبْكِي لِمَا يُسْتَحَلّ مِنْكَ فِي هَذَا الشّهْرِ ؛ كَأَنّي بِكَ وَأَنْتَ تُرِيدُ أَن تُصَلّى ، وَ قَدِ انْبَعَثَ أَشْقَى الأَوّلِينَ وَ الأَخِرِينَ ، شَقِيقُ عَاقِرِ نَاقَةِ صَالِحٍ ، يَضْرِبُكَ ضَرْبَةً عَلَى رَأسِكَ ، فَيَخْضبُ بِهَا لِحْيَتَكَ .

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ وَ ذلِكَ فِي سَلاَمَةٍ مِنْ دِينِي ؟

قَالَ : فِي سَلاَمَةٍ مِنْ دِينِكَ .

قُلْتُ : هَذَا مِن مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشّكْرِ .

ثُمّ قَالَ : يَا عَلِيّ ! مَن قَتَلَكَ فَقَدْ قَتَلَنِي ، وَ مَن أَبْغَضَكَ فَقَدْ أَبْغَضَنِي ، وَ مَنْ سَبّكَ فَقَدْ سَبّنِي ، لِأَنّكَ مِنّي كَنَفْسِي ، رُوحُكَ مِن رُوحِي ، وَطِينَتُكَ مِن طِينَتِي ، وَ إِنّ اللهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى خَلَقَنِي وَ خَلَقَكَ مِنْ نُوري ، وَاصْطَفَانِي وَاصْطَفَاكَ ، فَاخْتَارَنِي لِلنّبُوّةِ وَاخْتَارَكَ لِلإِمَامَةِ .

فَمَنْ أَنكَرَ إِمَامَتَكَ فَقَدْ أَنْكَرَ نُبُوّتِي . يَا عَلِيّ أَنْتَ وَ صِيّي ، وَ وَارِثِي ، وَ أَبُو وُلْدِي ، وَ زَوجُ ابْنَتِي ، أَمْرُكَ أَمْرِي ، وَنَهْيُكَ نَهْيِي ، أُقْسِمُ بِاللهِ الّذِي بَعَثَنِي بِالنّبُوّةِ ، وَ جَعَلَنِي خَيْرَ البَرِيّةِ ، إِنّكَ لَحُجّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَ أَمِينُهُ عَلَى سِرّهِ وَخَلِيفَةُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ (16) .

و قد وردت في هذه الرواية فقرات صريحة في اتّحاد روح عليّ عليه السلام المقدّسة مع روح النبيّ ، و أكثر ما يستحقّ التأمّل و الاهتمام قوله صلى الله عليه و ءاله : فَمَنْ أَنْكَرَ إِمَامَتَكَ فَقَدْ أَنْكَرَ نُبُوّتِي .

اذ يتّضح منها انّ مسألة الإمامة هي روح الإسلام و حقيقة الإيمان ، الى الحدّ الذي يصبح الإنسان بدونها عارياً عن الايمان و مُنكراً للنبوّة ، و لو اعترف ءالاف المرّات بالنبوّة .

يقول في (السيرة الحلبيّة) : قَالَ أَبُوبَكْر : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه [وءاله] و سلّم يَقُولُ : عَلِيّ مِنّي بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَبّي (17) .

و يقول القندوزي : عَن عمران بن حصين رضى الله عنه ، قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه و ءاله : عَلِيّ مِنّي وَ أَنَا مِنْهُ ، وَ هُوَ وَلِيّ كُلّ مُؤمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ بَعْدِي . رواه صاحب الفردوس (18) .

كما يروي عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وءاله : لِكُلّ نَبِيٍّ صَاحِبُ سِرّ وَصَاحِبُ سِرّي عَلِيّ بْنُ أَبِيطَالِبٍ . رواه صاحب الفردوس (19) .

و يقول أيضاً : علي عليه السلام رفعه عنه صلّى الله عليه و ءاله : خُلِقْتُ أَنَا وَ عَلِيّ مِنْ نُورٍ وَاحِدٍ (20) .

و يروي كذلك عن أنس قال : رَأَيتُ رَسُولَ اللهِ جَالِساً مَعَ عَلِيّ فَقَالَ : أَنَا وَ هذَا حُجّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ . رواه صاحب الفردوس (21) .

و يروى كذلك عن عبدالله بن مسعود قال : قَالَ صلّى الله عليه [وءاله] وسلّم : أَنَا وَ عَلِيّ مِن شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ والنّاسُ مِنْ أَشْجَارٍ شَتّى . رواه صاحب الفردوس (22) .

و يقول أيضاً : يروي صاحب كتاب (مودّة القربى) عن ابن عبّاس رضي الله عنه رفعه : خُلِقْتُ أَنَا وَ عَلِيّ مِن شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ والنّاسُ مِنْ أَشْجَارٍ شَتّى .

و في رواية عنه : خَلَقَ الأنبِيَاءَ مِن أَشْجَارٍ شَتّى وَ خَلَقَنِي وَ عَلِيًا مِن شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَنَا أَصْلُهَا ، وَ عَلِيّ فَرْعُهَا ، وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ثِمَارُهَا ، وَ أَشْيَاعُنَا أَوْرَاقُهَا ، فَمَنْ تَعَلّقَ بِهَا نَجَى ، وَ مَن زَاغَ عَنْهَا هَوَى (23) .

ايثار و تضحية أميرالمؤمنين لرسول الله :

لقد لازم أميرالمؤمنين عليه السلام النبيّ في جميع المراحل ، و كان يفديه بروحه و لا يتوانى دقيقة عن الإيثار ، و كان كفّار قريش يعذّبون المسلمين كثيراً حتّى أجبروهم على الهجرة الى الحبشة بإذن رسول الله .

و قد ذهب الرسول الأكرم صلى الله عليه و ءاله مرّة الى الطائف لطلب النصرة و المساعدة و استنصرهم قائلاً : لا أُكره أحداً منكم ، انّما أريد ان تمنعوني ممّا يُراد بي من القتل حتى ابلغ رسالات ربّي [24] .

فلم يقبله أحد ، و قعدوا له صفّين ، فلمّا مرّ رسول الله رجموه بالحجارة حتّى أدموا قدمه ، ثم أخرجوه من الطائف .

و لمّا توفّي أبوطالب اجترأت قريش على رسول الله ، فلم يعودوا يتورّعون عن إصابته بكلّ أنواع الأذى ، و كانوا يرجمون بيته دوماً بالخشب و الحجارة ، و يُهيلون عليه التراب في الطريق .

و عاد رسول الله الى بيته يوماً و ءاثار التراب على رأسه و وجهه ، فكانت احدى بناته تغسل التراب عن رأسه و وجهه و تبكي فيقول لها :

لا تبكي يا بُنيّة ! انّ الله مانعٌ أباك ! [25] .

ثم انّ الانصار قدموا الى رسول الله و ءامنوا به و بايعوه على انّه اذا ذهب اليهم في المدينة لحفظوه ممّا يحفظون منه أنفسهم و أولادهم ، ولمنعوه من عدوّه .

و من جانب ءاخر فقد رأى كفّار قريش بأنّهم عجزوا عن الوقوف أمام دعوته بمختلف الحيل ، و لو بالوعد و الوعيد ، و انّ عدد المسلمين كان يتزايد يوماً بعد ءاخر ، حتّى صمّموا في النهاية أن يجتمعوا في دار الندوة ليتّخذوا قرارهم النهائي في شأنه ، فاجتمع منهم في دار الندوة أربعون رجلاً مجرّباً ، ثم صمّموا على قتل النبّي بعد مناقشات طويلة ، فاختاروا من كلّ قبيلة رجلاً للإشتراك في قتله ، على أن يضربوه ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل ، و لا يستطيع بنوهاشم ان يحاربوا كلّ هذه القبائل فيقنعوا بالدية ، فلا يضيرهم أن يسلّموا الدية الى بني هاشم .

لقد اتّفقوا على موعد معيّن ، فاختاروا من كلّ قبيلة رجلاً شجاعاً ليتسلّلوا الى بيت الرسول ليلاً دون أن يعلم بهم أحد فيقطّعونه بسيوفهم إرباً ارباً .

و كانوا جادّين في قرارهم غاية الجدّ ، و كتموا ذلك عن الجميع فلم يخبروا به أحداً ، و عندما حلّ الموعد المعيّن ، و كانوا يتأهّبون لاقتحام منزل النبّي ليلاً ، نزل عليه جبرئيل فأطلعه على الأمر :

وَ إذ يَمْكُرُ بِكَ الّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَو يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [26] .

و أمره أن يترك عليّاً أميرالمؤمنين مكانه و يهاجر الى المدينة ، فأرسل الرسول الأكرم الى عليّ و قال له : يا عليّ ، ... انّه قد اوحى اليّ جبرئيل عن ربّي عزّوجل أن أهجر دار قومي ، و انّه أمرني ان ءامرك بالمبيت على مضجعي لتخفي بمبيتك عليه أثري ، فما أنت قائل أو صانع ؟

فقال عليّ عليه السلام : أو تسلمنّ بمبيتي هناك يا نبيّ الله .

قال نعم .

فتبسّم عليّ عليه السلام ضاحكاً ، و أهوى الى الأرض ساجداً شكراً لما نبّأه رسول الله صلى الله على و ءاله من سلامته . فكان عليّ عليه السلام اوّل من سجد لله شكراً ، و أوّل من وضع وجهه على الأرض بعد سجدته من هذه الأمّة . روى ابن الأثير باسناده عن ابن اسحق قال : و أقام رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، يعني بعد أن هاجر أصحابه الى المدينة ، ينتظر مجيء جبرئيل عليه السلام و أمره له أن يخرج من مكّة ، بإذن الله له في الهجرة الى المدينة ، حتّى اذا اجتمعت قريش فمكرت بالنبيّ و أرادوا برسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم ما أرادوا ، أتاه جبرئيل عليه السلام و أمره أن لا يبيت في مكانه الذي يبيت فيه . فدعا رسول

الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم عليّ بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه و يتسجّى ببُردٍ له أخضر ففعل ، ثم خرج رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم على القوم و هم على بابه [27] .

و روى كذلك باسناده عن أبي رافع قال : و خلّفه رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، يعني خلف عليّاً يخرج اليه بأهله ، وأمره أن يؤدي عنه أمانته . و وصايا من كان يوصي اليه ، و ما كان يؤتمن عليه من مال ، فأدّى عليّ أمانته كلّها ، و أمره أن يضطجع على فراشه ليلة خرج و قال : إنّ قريشاً لم يفقدوني ما رأوك ! فاضطجع على فراشه ، و كانت قريش تنظر الى فراش النبيّ صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم فيرون عليه عليّاً فيظنّونه النبيّ صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، حتّى اذا أصبحوا رأوا عليه عليّاً فقالوا : لو خرج محمّد لخرج بعليّ معه ، فحبسهم الله بذلك عن طلب النبّي حين رأوا عليّاً .

نزف الدم من أقدام عليّ عند الهجرة الى المدينة :

و أمر النبيّ صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم عليّاً أن يلحقه بالمدينة ، فخرج عليّ في طلبه بعدما أخرج اليه أهله ، يمشي الليل و يكمن النهار حتّى قدم المدينة ، فلمّا بلغ النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلم قال : أدعُوا لِي عَلِيّاً قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَمْشِي ، فأتاه النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، فلما رءاه اعتنقه و بكى رحمةً لما بقدميه من الورم و كانتا تقطران دماً ، فتفل النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم في يديه و مسح بهما رجليه و دعا له بالعافية ، فلم يشتكهما حتّى استشهد [عليه السلام] [28] .

مباهاة الله ملائكته بإيثار أميرالمؤمنين رسولَ الله بنفسه :

يقول اليعقوبي [29] ، و يروي القندوزي كذلك [30] قال : روى الثعلبي في تفسيره ، و ابن عقبة في (ملحمته) ، و أبوالسعادات في (فضائل العترة الطاهرة) و الغزالي في (إحياء العلوم) بسندهم المتّصل عن ابن عبّاس ، وعن أبي رافع ، و عن هند بن أبي هالة ربيب رسول الله و أمّه خديجة أمّ المؤمنين ، أنّهم قالوا : قال رسول الله صلّى الله عليه و ءاله : أوحَى اللهُ إلَى جبرئيلَ وَ مِيكائيلَ : إنّي قَد ءَاخيتُ بَيْنَكُمَا وَ جَعَلْتُ عُمْرَ أَحَدِكُمَا أَطوَلَ مِن عُمرِ صَاحِبِهِ ، فَأَيّكُمَا يُؤثِرُ أَخَاهُ عُمْرَهُ ؟

فَكِلاَهُمَا كَرِهَ الْمَوتَ ، فَأَوحَى اللهُ إلَيهِمَا : إنّي ءَاخَيتُ بَينَ عَلِيّ وَلِيّي وَبَينَ مُحَمّدٍ نَبِيّي ، فَأثَرَ عَلِيّ حَيَاتَهُ لِنَبِيّي ،

فَرَقَدَ عَلَى فِرَاشِ النّبِيّ يَقِيهِ بِمُهْجَتِهِ . اهْبِطَا إلَى الأرضِ وَ احْفَظَاهُ مِن عَدُوّهِ . فَهَبَطَا فَجَلَسَ جِبرائِيلُ عِندَ رَأسِهِ وَ مِيكَائِيلُ عِندَ رِجْلَيهِ ، وَجَعَلَ جِبرائيلُ يَقُولُ : بَخّ بَخّ مَن مِثْلُكَ يَابنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَاللهُ عَزّوَجَلّ يُبَاهِي بِكَ الْمَلَئِكَةَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ :

وَ مِنَ النّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَئُوفٌ بِالْعِبَادِ [31] .

و جاء في الروايات أن الرسول صلى الله عليه و ءاله توجّه عند خروجه من مكّة الى غار (ثور) مباشرةً فمكث فيه ثلاثة أيّام ، فجاءت العنكبوت فنسجت بيتاً على فوهة الغار ، و جاءت حمامة فوضعت بيضها في باب الغار ، ثم جاء الكفّار يقتفون ءاثار الرسول صلى الله عليه و ءاله حتّى و صلوا باب الغار ، لكنّ الله صرفهم عن الدخول الى الغار .

و في ليلة المبيت اجتمع الرجال من العشائر المختلفة يريدون قتل الرسول صلّى الله عليه و ءاله ، و أرادوا الدخول الى بيته ليقطّعوه إرباً إرباً ، غير انّ أبا لهب لم يسمح لهم بالدخول و قال انّ في هذه الدار نساء بني هاشم و بناتهم فاقعدوا بنا على الباب نحرس محمّداً في مرقده لئلاّ يفلت من أيدينا .

و أصبح الصباح فاقتحم الرجالُ البيت فوثب عليّ رافعاً البردة الخضراء عن وجهه ، فقالوا له : أين محمّد ؟ فقال : أجعلتموني عليه رقيباً ؟

ثمّ انّهم لما أدركوا خروج النبّي صاروا في صدد البحث عنه وملاحقته ، فصان الله نبيّه بحوله و قوّته .

يقول السبط بن الجوزي : قال أحمد في الفضائل : حدّثنا يحيى بن حماد ، حدّثنا أبو عوانه ، حدّثنا أبوبكر بن محمد ، عن عمرو بن ميمون قال : إنّي لجالسٌ الى ابن عبّاس إذ أتاه رَهطٌ يَقَعونَ في عليّ بن أبيطالبٍ عليه السلام ، فردّ عليهم ابن عبّاس قال :

لَمّا هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، لَبِسَ عَلِيّ عليه السّلامُ ثَوبَهُ وَ نَامَ عَلى فِرَاشِهِ ، وَ كَانَ الْمُشرِكُونَ يُؤذُونَ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم . إلَى أن قال :

وَ بَاتَ الْكُفّارُ يَرْمُونَ عَلِيّاً عَلَيهِ السّلام بِالْحِجَارَةِ وَ هُوَ يَتَضَوّر قَد لَفّ رَأسَهُ فِي الثّوبِ إلَى الصّبَاحِ .

الى أن يقول : قال ابنُ عبّاس : أَنشَدَنِي أَمِيرُ المُومِنِينَ شِعْراً قَالَهُ في تِلْكَ الليلة :

وَ قَيْتُ بِنَفسِي خَيرَ مَن وَطَأَ الْحَصَا
وَ مَنْ طَافَ بِالبَيتِ العَتِيقِ وَ بِالحِجْرِ
رَسُولُ إلهٍ خَافَ أَن يَمْكُرُوا بِهِ
فَنَجّاهُ ذُو الطّولِ العَلِيّ مِنَ المَكْرِ
وَ بَاتَ رَسُولُ اللهِ فِي الغَارِ ءَامِناً
مُوَقّاً وَ فِي حِفْظِ الإلهِ وَ فِي سِتْرِ
وَ بِتّ أُراعِيهِمْ وَ مَا يُثبِتُونَنِي
وَ قَدْ وَطّنْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالأَسْرِ (32)

و أنشد حسّان في ليلة المبيت على ما نقله ابن الجوزي :

مَنْ ذَا بِخَاتِمِهِ تَصَدّق رَاكِعًا
وَ أَسَرّهَا فِي نَفْسِهِ إسْرَارَا
مَنْ كَانَ بَاتَ عَلَى فِرَاشِ مُحَمّدٍ
وَ مُحَمّدٌ أَسْرَى يَؤُمّ الْغَارَا
مَنْ كَانَ فِي القُرءانِ سُمّيَ مُؤْمِناً
فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ تُلِينَ غزارَا

ثم يقول ابن الجوزي : و قد أشار في هذا البيت الى قول ابن عبّاس :

مَا أَنْزَلَ اللهُ ءَايَةً فِي القُرءانِ إلّا وَ عَلِيّ عَلَيْهِ السّلامُ أَمِيرُهَا وَ رَأسُهَا (33) .

و يقول السيّد الحميري :

وَ سَرَى بِمَكّةَ حِينَ بَاتَ مَبِيتَهُ
وَ مَضَى بِرَوعَةِ خَائِفٍ مُتَرَقّبِ
خَيرُ البَرِيّةِ هَارِباً مِنْ شَرّهَا

بِاللّيلِ مُكْتَتِماً وَ لَمْ يَسْتَصْحِبِ
بَاتُوا وَ بَاتَ عَلَى الْفِرَاشِ مُلَفّقاً
فَيَرَونَ أَنّ مُحَمّداً لَمْ يَذْهَبِ (34)

تعليقات:

1) الأية 165 ، من السورة 4 : النساء .
2) الأية 64 ، من السورة 4 : النساء .
3) الأية 4 ، من السورة 33 : الأحزاب .
4) الأية 15 ، من السورة 35 : فاطر .
5) الأية 285 ، من السورة 2 : البقرة .
6) صدر الأية 253 ، من السورة 2 : البقرة .
7) الأية 6 ، من السورة 84 : الانشقاق .
8) الأية 110 ، من السورة 18 : الكهف .
9) الأية 33 ، من السورة 23 : المؤمنون .
10) الأية 286 ، من السورة 2 : البقرة .
11) الأية 7 ، من السورة 65 : الطلاّق .
12) الأية 44 ، من السورة 10 : يونس .
13) يقول الشيخ محمد جواد مغنية في كتاب (الشيعة و التشيّع) ، طبع مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبنابي . بيروت ، حى 37 و 38 : العصمة قوّة تمنع صاحبها من الوقوع في المعصية و الخطأ ، بحيث لا يترك واجباً و لا يفعل محرّماً ، مع قدرته على الترك والفعل ، و الاّ لم يستحقّ مدحاً و لا ثواباً ، أو قل : انّ المعصوم قد بلغ من التقوى حدّاً لا تتغلّب عليه الشهوات و الأهواء ، و بلغ من العلم في الشريعة و أحكامها مرتبةً لا يخطىء معها أبداً .

و يقول في التعليقة : قال الإمام يصف نفسه : مَا وَجَدَ النَبِىّ صلّى اللهُ عَلَيْهِ وَ ءَالِهِ لِي كذْبَةً في قَوْل ، و لا خَطلَةً فِي فِعْلٍ ؛ وَ كُنْتُ أَتّبِعُهُ اتّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أَمّهِ . يَرْفَعُ لِي كُلّ يَوْمٍ نَمِيراً مِنْ أَخلاَقِهِ ، وَ يَأْمُرُنِي بِالإِقْتِدآءِ بِهِ . و هذا معنى العصمة عند الشيعة ، لا كذب في قول و لا زلّة في فعل .

14) الأية 3 و 4 ، من السورة 112 : الإخلاص .
15) الأية 70 ، من السورة 28 : القصص .
16) ينابيع المودّة) ، ص . 53
17) السيرة الحلبيّة) ، ج 3 ، ص . 400
18) ينابيع المودّة) ، ص . 234
19) ينابيع المودّة) ، ص . 235
20) ينابيع المودّة) ، ص . 256
21) ينابيع المودّة) ، ص . 239
22) ينابيع المودّة) ، ص . 236 و أورد هذه الرواية أيضاً في بحار الأنوار ج 38 ، ص 309 الطبعة الحروفيّة ، عن (كشف الغمّة) ، عن (المناقب) للخوارزمي . و أوردها في ص 324 و 325 عن (الأمالي)

للشيخ الطوسي ، انّ رسول الله صلى الله عليه و ءاله قال : يا عليّ خلق الله الناس من أشجار شتى ، و خلقني و أنت من شجرة واحدة أنا أصلها و أنت فرعها ، فطوبى لعبدٍ تمسّك بأصلها و أكل من فرعها .

كما أورد في ج 35 عن (بحار الأنوار) ص 35 نقلاً عن (عيون أخبار الرضا) انّه عليه السلام قال : قال النبيّ صلى الله عليه و ءاله لعليّ [عليه السلام] : الناس من أشجار شتّى و أنا و أنت من شجرة واحدة .

23) ينابيع المودّة) ، ص . 256

24) تاريخ اليعقوبي) ، ج 2 ، ص . 36

25) تاريخ الطبري) ، ج 2 ، ص . 80

26) الأية 30 ، من السورة 8 : الأنفال .

27) أسد الغابة) ، ج 4 ، ص 18 و . 19

28) أسد الغابة) ، ج 4 ، ص . 19

29) تاريخ اليعقوبي) ، ج 2 ، ص . 39

30) ينابيع المودّة) ص92 ؛ كما ورد أيضاً في (تذكرة الخواص) للسبط ابن الجوزي ص 21 ، و في (أسد الغابة) ج 4 ، ص 25 ، و رواه ابن الصبّاغ في (الفصول المهمّة) ص 33 عن الغزالي .

31) الأية 207 ، من السورة 2 : البقرة .

32) تذكرة الخواص) ، ص . 21

33) تذكرة الخواص) ، ص . 10

34) ديوان الحميري) ، ص 93 ؛ و قد ذكر في التعليقة من ص 93 الى ص 100 مطالب مفيدة .

الدرس السابع : منصب الإمامة أعلى من منصب النبوّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِئَايَتِنَا يُوقِنُونَ (1) .

منصب الإمامة أعلى من النبوّة :

ينبغي أن نبحث في هذه الأية المباركة عن المراد بالإمام ؟ و عن المراد بالهداية بأمرالله ؟ و عن العلاقة بين تعليل الإمامة بالصبر و الإيقان بأيات الله و بين الإمامة نفسها ؟

و لتوضيح معنى الإمام نقول :

انّ الله تعالى يقول :

وَ إِذِ ابْتَلَى إِبْرهِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمّهُنّ قَالَ إِنّى جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمَامًا قَالَ وَ مِنْ ذُرّيّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظّلِمِينَ (2) .

و الإمامة التي أعطاها الله لإبراهيم كانت في زمن شيخوخته ، و بعد أن اجتاز جميع الاختبارات و من اهمّها ذبح ولده اسماعيل ، فقد كان الله سبحانه وهبه على الكبر اسماعيل و اسحق :

اَلْحَمدُ لِلهِ الّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَعِيلَ وَ إِسْحَقَ إِنّ رَبّى سَمِيعُ الدّعَاءِ (3) .

و لأنّ ابراهيم عليه السلام حين أُعطي الإمامة فانّه سألها لذريّته ، لذا فإنّ هذا الإعطاء و هذا السؤال حصلا حين امتلك ذريّةً في كبره . فهذا السؤال و الطلب لم يكن له من محلّ . في ظاهر الحال . قبل حصوله على الذريّة ، و مع يأس ابراهيم و انقطاع أمله فيها . إذ كيف يمكن للإنسان اليائس من الحصول على الذريّة أن يسأل الله الإمامة لذريّته من بعده ؟ لقد كان عليه ان لا يتعرّض الى هذا الطلب ، أو كان عليه على الأقل أن يقول : إن رَزَقْتَنِيذُرِيّةً ؛ إن تعلّقت إرادتك بعد هذا . مع يأسي . فأعطيتني أولاداً فهل ستجعلهم أئمةً أم لا ؟

و الدليل على يأس ابراهيم عليه السلام من الحصول على ذريّة هو ءايات القرءان الكريم :

وَ نَبّئْهُم عَنْ ضَيْفِ إِبْرَ هِيمَ إِذ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تُوْجَلْ إِنّا نُبَشّرُكَ بِغُلَمٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشّرْتُمُونِى عَلَى أَن مّسّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشّرُونَ قَالُوا بَشّرْنَكَ بِالْحَقّ فَلَا تَكُن مّنَ الْقَانِطِينَ (4) .

و كانت سارة زوجة ابراهيم يائسة هي الأخرى من إنجاب الأولاد :

وَ امْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشّرْنَهَا بِإِسْحَقَ وَ مِنْ وَرَآءِ إِسْحَقَ يَعقُوبَ قَالَتْ يَوَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هَذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنّ هَذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَ بَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيتِ إِنّهُ حَمِيدٌ مّجِيدٌ (5) .

و يتّضح لدينا جيّداً من هذه الأيات القرءانيّة انّ ابراهيم كان يائساً من الحصول على الأولاد في ءاخر عمره ، لذا فانّ سؤاله الإمامة لأولاده كان حين وهبه الله الإمامة ، و ذلك في سنين شيخوخته بعد أن وهبه الله

اسماعيل و اسحق .

و نستنتج . بناءً على ذلك . انّ إمامة ابراهيم كانت بعد نبوّته ، و بعد أن أصبح شيخاً كبيراً ، أي انّ الإمامة تختلف عن النبوّة ، بل هي مقام أعلى وأسمى .

و على هذا الأساس فانّ المراد باية إنّى جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إمَاماً . انّي سأجعلك قدوة يقتدي بها أفراد البشر في القول و العمل ، فالإمام إذن هو الذي يجب ان يتبعه الناس في أفعالهم و أقوالهم و سلوكهم ، و في النهاية في أفكارهم و عقائدهم و ملكاتهم .

و من هنا أخطأ بعضُ المفسّرين فتصوّروا أن المراد بالإمامة في هذه الأية الشريفة هو نفسه معنى النبوّة ، لإنّ الناس يقتدون بالنبّي في دينهم ، ثمّ أوردوا هذه الأية دليلاً على ذلك : وَ مَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلاّ لِيُطَاعَ بِإِذنِ اللهِ (6) .

و هو توهّم لا محلّ له أبداً ، لأن لفظ (إماماً) في قوله تعالى (إنّى جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إمَاماً) وقعت مفعولاً ثانياً لجاعلك ، و لأن (جاعل) اسم للفاعل لا يعمل اذا كان المعنى دالّاً على الماضي و لا يأخذ مفعولاً ، لذا فانّ من المسلّم انّه سيكون بمعنى الحال و الاستقبال . أي : يا ابراهيم انّي سأجعلك إماماً . و لأنّ ابراهيم في هذا الخطاب كان في منصب النبوّة ، لذا فان من المسلّم أن الإمامة هي غير النبوّة . و إضافة الى ذلك فانّ الخطاب نفسه : (إنّى جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إمَاماً) كان وحياً من السماء ، و لا يمكن أن يحصل دون وجود منصب النبوّة ، لذا فانّ ابراهيم عليه السلام كان نبيّاً قبل منصب الإمامة ، و انّ الإمامة لن تكون هنا بمعنى النبوّة .

لقد كانت هذه الإمامة بعد الإبتلاءات التي مرّ بها ابراهيم ، و من جملتها ذبحه لولده اسماعيل ، و كانت عند كبر ابراهيم و شيخوخته ، فقد مرّ عليه . قبل ان يُرزق أولاداً . الملائكةُ الذاهبون لإهلاك قوم لوط ، و كان ءانذاك نبيّاً مرسلاً ، و نتيجة لذلك فانّ إمامته كانت بعد درجة النبوّة .

و علّة خطأ هؤلاء المفسّرين كثرة استعمال لفظ الإمام في غير الموارد الصحيحة بتسامحات عرفية ، بحيث حصل التصوّر بانّه يمكن إطلاق إسم الإمام على كلّ من يمتلك رئاسة أو تفوّقاً ؛ و لأنّ النبّي مطاع ومتفوّق ، فقد عبّر عنه بالإمام .

لذا فقد فسّر البعض لفظ (إماماً) في هذه الأية المباركة بالنبيّ ، والبعض بالرسول ، و البعض بالمطاع ، و فسّره البعض الأخر بالوصيّ والخليفة و الرئيس و القائد ، و جميعها غير صحيح ، لأنّ معنى (النبيّ) من النبأ ، و النبأ بمعنى الخبر . فالنبيّ هو الذي يخبره الله سبحانه في باطنه ، وهو غير معنى الإمام . كما ان (الرسول) هو المكلّف بوظيفة التبليغ ، و لا يستلزم ذلك أن يعتبره الناس قدوةً فيتبعونه في الظاهر و الباطن ، أو يسمعون كلامه فيعملون به ، و لذلك فانّ معنى الرسول هو أيضاً غير الإمام .

امّا (المُطاع) فهو الإنسان الذي له من الاحترام و الحيثيّة بحيث يُطيعه الناس ، و هو من لوازم النبوّة و الرسالة و مختلف عن معنى الإمامة .

و امّا (الخليفة) و (الوصيّ) فمعناها النيابة لا الإمامة ؛ كما انّ (الرئيس) يُقال للشخص الذي يكون مصدراً للحكم ، و يستلزم ذلك أن يكون مطاعاً ، و ليس لإيّ منها معنى الإمام .

الإمام من مادّة أمّ يؤمّ ، و هو . كما ذكر . كونه قدوة ، و الامام هو مطلق مَن يجب على الناس متابعته و النظر اليه و مشايعته في جميع ءاثاره في جميع الشؤون ، من الحركة و السكون ، النوم و اليقظة ، الظاهر والباطن ، القول و العمل ، و الأخلاق و الملكات و ...

لذا نرى انّ هذا المعنى للإمام في هذه الأية المباركة في غاية المناسبة و الحسن ، أن يخاطب الله تعالى ابراهيم فيقول : بعد أن جعلتُك في مقام النبوّة و الرسالة ، اي في مقام تلقّي الوحي السماوي و إبلاغه الى أفراد الإنسان ، فقد جعلتُك الأن قدوة يجب ان يتبعوا شؤونها في جميع الجهات .

لكننا لو وضعنا أيّاً من تلك المعاني السابقة المذكورة في مكان الإمام لما صحّ المعنى ، فليس صحيحاً ان نقول : انّي جاعلك . بعد امتلاك مقام النبوّة و الرسالة . نبيّاً أو رسولاً او خليفةً او وصيّاً أو رئيساً .

و ينبغي أن يُعلم أيضاً أنّ مخالفة معنى الإمام لمعاني هذه الالفاظ ليس مجرّد عناية لفظيّة و اعتبارات كلاميّة ، بل هو اختلاف في حقائق معانيها ، ففي معنى الإمام حقيقة لا يمتلكها أيّ من تلك المعاني .

و لننصرف الأن و قد اتّضح المطلوب الى تفسير الأية المباركة :

وَ جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِأَيَتِنَا يُوقِنُونَ .

حيث يُلاحظ هنا انّ الله تعالى جعل مع كلمة الأئمة صفة تلازمها ، ألا و هي الهداية بأمر الله ، كما انّ هذه النكتة مشهودة في ءاية اخرى في قصّة سيّدنا ابراهيم :

وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسحَقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلّا جَعَلْنَا صَلِحِينَ وَ جَعَلْنَهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ وَ إِقَامَ الصّلَوَ ةِ وَ إِيتَآءَ الزّكَوَ ةِ وَ كَانُوا لَنَا عَبِدِينَ (7) .

و يُلاحظ هنا انّه قد ذكر صفة ملازمة لكلمة الأئمّة ، أو بعبارة اخرى انّ جملة (يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) جملة تفسيريّة لمعنى الأئمّة . لذا يجب ان يكون للإمامة عنوان الهداية أولاً ، و ان هذه الهداية هي بأمر الله ثانياً ؛ اي انّ الامام هو الذي يهدي الناس بأمر الله . و المراد بأمر الله هو الذي ذكر حقيقته في هذه الأية :

إِنّمَآ أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَنَ الّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلّ شَىْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (8) .

و في الأية : وَ مَا أَمْرُنَا إِلّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (9) .

حيث يُستفاد من هذه الأيات أنّ أمر الله واحد لا تعدّد له ، اضافةً الى انّه ليس له زمان أو مكان ، و ثانياً انّ أمره هو إرادته ، فبمجرّد إرادته فانّ الموجود سيرتدي لباس الوجود ، و ذلك نفسه هو ملكوت كلّ موجود . وحين يريد الله إيجاد موجود بأمره ، أي ملكوت ذلك الموجود ، فانّه يوجده .

و من الجلّي انّ الأمر هو نفس الجانب الثبوتي مقابل الخلق الذي يمثّل جانب التغيّر و الزوال و الفساد . قال تعالى : أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبّ الَعلَمِينَ (10) .

و بناءً على هذا فانّ الموجودات لها وجهتان : وجهة خلقيّة ، و هي التي يُشاهد فيها التغيّر و الفساد و التدريج و الحركة ، و وجهة الأمر التي سيكون فيها الثبات و عدم التغيّر ، و تلك الوجهة الأمريّة تسمّى بالملكوت ، و هي حقيقة و واقعيّة الموجودات ، و التي تقوم بها الوجهة الخلقية . و مع التغيرات و التبدّلات المشهودة في هذه الوجهة فانّ تلك الوجهة لا تتغيّر ولاتتبدّل .

هداية الموجودات على يد الإمام :

و على هذا فانّ الأئمة الذين يهدون بأمر الله لهم تعامل مع ملكوت الموجودات ، فهم يهدون كلّ موجود الى الله و يوصلونه من وجهته الأمرية . و ليس فقط من وجهته الخلقية . الى كمال الله تعالى .

انّ قلب الموجودات بيد الإمام ، فهو يهديهم الى الله تعالى من جهة السيطرة و الإحاطة بقلوبهم ؛ فالإمام . إذاً . هو الذي يهدي الناس الى الله ، يهديهم بالأمر الملكوتي الموجود و الملازم له دائماً ، و هذه في الحقيقة

هي الولاية بحسب الباطن في أرواح و قلوب الموجودات ، نظير ولاية كلّ فرد من أفراد البشر عن طريق باطنه و قلبه بالنسبة الى أعماله ، و هذا هو معنى الإمام .

أمّا في الأية الشريفة فانّ الله تعالى يبيّن علّة منح هذا المنصب بهذه الكيفيّة :

لَمّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِاٰيَتِنَا يُوقِنُونَ (11) .

أحدها الصبر في طريق الله ، و المقصود بالصبر الإستقامة و الثبات في جميع الامتحانات والابتلاءآت التي تعرض للعبد في طريق العبوديّة والوصول الى المراد ، و الأخر أن يكونوا قد وصلوا الى مرحلة اليقين قبل ذلك .

و نرى في ءاياتٍ من القرءان المجيد انّها تَعُدّ علامةَ اليقين كشفَ الحجب الملكوتيّة ، فصاحب اليقين هو الذي يدرك حقائق الموجودات وملكوتها ، و المحجوب هو الذي يغطي قلبه ستار يمنعه من مشاهدة الأنوار الملكوتيّة ، مثل قوله تعالى :

وَ كَذَ لِكَ نُرِى إبْرَ هِيمَ مَلَكُوتَ السّمَوَ تِ وَالأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (12) .

و هذه الأية تشير الى انّ إرادة ملكوت السموات و الأرض كان مقدّمة لإفاضة اليقين على قلب ابراهيم ، و من هنا فانّ اليقين لن ينفصل عن مشاهدة الانوار الملكوتيّة .

و كقوله تعالى : كَلّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرُوُنّ الْجَحِيمَ (13) .

لو كنتم تعلمون كعلم أصحاب اليقين ، لرأيتم الجحيم و لشاهدتم حقيقة جهنّم أي ملكوت الأفعال القبيحة و معصية الله و النفس الأمّارة .

و كقوله تعالى : كَلّا إنّ كِتَبَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِيّينَ وَ مَا أَدْرَبكَ مَا عِلِيّونَ كِتَبٌ مَرقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرّبُونَ (14) .

و يُستفاد من الأيات المتقدّمة انّ المقرّبين . أي أصحاب اليقين . هم الذين ارتبطوا بالملكوت و بحقائق العالم ، و اجتازت قلوبهم جانب المشاهدة الخلقيّة ، فلم يعودوا محجوبين عن الله ، لا يحجبهم عنه الحجاب القلبيّ من المعصية و الجهل و الشكّ و النفاق ، و اولئكم هم أصحاب اليقين الذين يرون العليّين و الحقائق الملكوتيّة للأبرار و الأخيار ، كما أنهم يشاهدون الحقيقة الملكوتيّة للأشرار و أهل المعاصي التي هي (الجحيم) .

و بناءً على هذا فانّ الإمام و هو الهادي الى أمر ملكوتي ، يجب أن يكون قد وصل حتماً الى مقام اليقين و انكشف له عالم الملكوت ، و صار متحقّقاً بكلمات الله ؛ و كما ذكر فانّ الملكوت هو الوجهة الباطنيّة للموجودات ، لذا فانّ هذه الأية الشريفة وَ جَعَلْنَهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (15) تشير بوضوح الى انّ كلّ ما يتعلّق بأمر الهداية ، أي القلوب و الأعمال ، فانّ باطنها و حقيقتها بيد الإمام ، و وجهتها الملكوتيّة و الأمريّة حاضرة بمشهد من الإمام لا تخفى عنه لحظةً واحدة .

تحقّق أميرالمؤمنين بمقام الإمامة و الولاية :

انّ الألقاب التي منحها رسول الله صلى الله عليه و ءاله لأميرالمؤمنين عليه السلام تدلّ جميعها على حصول أميرالمؤمنين على هذه الدرجة .

فقد روى القندوزي انّ رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم قال :

يَا عَلِيّ أنتَ تُبْرِءُ ذِمّتِي وَ أَنْتَ خَلِيفَتِي عَلَى أُمّتِي (16) .

و يجب ان نعلم انّ ابراء الذمّة ليس المفهوم منه ان يقوم أميرالمؤمنين بقضاء دَيْن رسول الله بأدائه بعض الدراهم مثلاً ، بل ان المقصود به هو الوفاء بالعهد الذي قطعتُه لله في أداء الرسالة و إيصال الحقّ الى الناس و هدايتهم الى الله ،

فيا عليّ ! أنت الذي تؤدّي هذا الدين ، أنت الذي عقدت العزم على إنجاز هذا الأمر ، فأنت تتعامل بواسطة نفسك القدسيّة مع قلوب و أرواح الناس من الباطن و مع أفعالهم و أقوالهم في الظاهر .

و نظير هذا المعنى الروايات الدالّة على : يَا عَلِيّ أَنتَ تَقْضِي دَيْنِي ؛ وهذه المجموعة من الروايات كثيرة أيضاً .

يروي ابن الجوزي باسناده عن أحمد بن حنبل ، بسنده المتّصل عن أنس يقول :

قلنا لسلمان الفارسي : سَلْ رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم مَنْ وصيّهُ ؟

فسألَ سَلمانُ رَسُولَ الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلم ، فقال : مَنْ كانَ وَصيّ مُوسى بنِ عِمْرانَ ؟ فقال : يُوشَعُ بنُ نُونٍ ، قال : إنّ وَصِيّي وَوَارِثِي وَمُنْجِز وَعْدِي عَلِيّ بنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام .

ثم يقول : و الحديث الذي ذكرناه رواه أحمد في الفضائل و ليس في اسناده ابن زياد و لا هذه الزيادة ، فذاك حديث و هذا حديث (17) .

حديث أنس في ولاية أميرالمؤمنين :

يروي أبو نعيم الحافظ الاصفهاني و شيخ الاسلام الحمويني عن أنس قال :

قال رسولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : يَا أَنَسُ ! اسْكُبْ لِي وُضُوءاً ، ثُمّ قَامَ فَصَلّى رَكْعَتَينِ .

ثُمّ قَالَ : يَا أَنَسُ أَوّلُ مَن يَدْخُلُ عَلَيْكَ مِن هَذَا الْبَابِ أَمِيرُالمؤمِنِينَ ، وَسَيّدُ الْمُسلِمِينَ ، وَ قَائِدُ الْغُرّ الْمُحَجّلِينَ ، وَ خَاتَمُ الوَصِيّنَ .

قَالَ أَنَسُ : قُلْتُ : اللّهُمّ أَجْعَلهُ رَجُلاً مِنَ الأنصَارِ ، وَ كَتَمْتُهُ ، إذ جَاءَ عَلِيّ ، فَقَالَ : مَن هَذَا يَا أَنَسُ ؟

فَقُلْتُ : عَلِيّ ، فَقَامَ مُسْتَبشِراً فَاعتَنَقَهُ ، ثُمّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَرَقَ وَجْهِهِ بِوَجْهِهِ ، وَ يَمْسَحُ عَرَقَ عَلِيّ بِوَجْهِهِ .

قَالَ : عَلِيّ : يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ رَأَيتُكَ صَنَعتَ شَيْئاً مَا صَنَعْتَ بِي مِن قَبلُ .

قَالَ : وَ مَا يَمْنَعُنِي وَ أَنْتَ تُؤَدّي عَنّي ، وَ تُسْمِعُهُمْ صَوتِي ، وَ تُبَيّنُ لَهُمْ مَا اختَلَفُوا فِيهِ بَعْدِي (18) .

و يروي أبونعيم الحافظ بسنده عن أبي برزة الأسلمي قال :

قالَ رسولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : إنّ اللهَ تَعَالى عَهِدَ إلَيّ عَهْدَاً فِي عَلِيّ ، فَقُلْتُ : يَا رَبّ بَيّنْهُ لِي .

فَقَالَ : اسْمَعْ ! فَقُلْتُ : سَمِعْتُ ! فقَالَ : إنّ عَلِيّاً رَايَةُ الهُدَى ، وَ إمَامُ أَولِيَائِي ، وَ نُورُ مَنْ أَطَاعَنِي ، وَ هُوَ الْكَلِمَةُ الّتِي أَلْزَمْتُهَا الْمُتَقِينَ (19) ، مَنْ أَحَبّهُ أَحَبّنِي ، وَ مَنْ أَبْغَضَهُ أَبغَضَنِي ، فَبَشّرْهُ بِذلِكَ ، فَجَاءَ عَلِيّ فَبَشّرْتُهُ ،

فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! أَنَا عَبْدُاللهِ ، وَ فِي قَبْضَتِهِ ، فَإنَ يُعَذّبْنِي فَبِذَنبِي ، وَ إنْ يُتِمّ لي الّذِي بَشّرْتَنِي بِهِ ، فاللهُ أَوْلَى بِي .

قال صلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم : اللّهُمّ أجْلِ قَلبَهُ ، وَاجْعَلْ (20) رَبِيعَهُ الإيمانَ .

فقالَ اللهُ [تَبَارَكَ و تَعالى] : قَدْ فَعَلْتُ بِهِ ذَلِكَ ، ثُمّ إنّهُ رُفِعَ إلَيّ أَنّهُ سَيَخُصّهُ بِالبَلاَءِ بِشَيْءٍ لَمْ يَخُصّ بِهِ أَحَداً مِنْ أَصْحَابي .

فَقُلْتُ : يَا رَبّ ! أَخِي وَ صَاحِبِي .

فَقالَ تَعَالى : إنّ هذا شَيْءٌ قَدْ سَبَقَ ، إنّهُ مُبْتَلى وَ مُبْتَلَى بِهِ [21] .

مَكْرُ قريش بأميرالمؤمنين :

يروي القندوزي الحنفي عن كتاب (المناقب) للموفّق بن أحمد الخوارزمي ، و الحموييني باسناده عن أبي عثمان النهدي عن أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ،

قال : كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله صَلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، فَأَتَيْنَا عَلَى حَدِيقَةٍ فَاعتَنَقَنِي وَ أَجْهَشَ بَاكِياً ، فَقُلْتُ : مَا يُبْكِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

فَقَالَ : أَبْكِي لِضَغَائِنَ فِي صُدُورِ قَومٍ لَا يُبدُونَهَا لَكَ إلّا بَعْدِي .

فَقُلْتُ : فِي سَلَامَةٍ مِنْ دِينِي ؟ (أي غير مُبتلٍ بهوى النفس ، فأرجّح في انتقامي منهم هوى نفسي و الرئاسة على رضا الله ، و هل سأكون على هذا النهج و الصراط المستقيم؟)

فَقَالَ : فِي سَلاَمَةٍ مِنْ دِينِكَ [22] .

و روى في ديوانه أشعاراً له عليه السلام ، قال : و في ديوانه كرّم الله وجهه :

تِلْكُمْ قُرَيْشٌ تَمَنّانِي لَتَقْتُلَنِي

فَلَا وَ رَبّكَ مَا بَزّوا وَ لَا ظَفَرُوا

إمّا بَقِيتُ فَإنّيلَسْتُ مُتّخِذاً

أَهْلاً وَ لَا شِيعَةً فِي الدّينِ إذْ فَجَرُوا

قَدْ بَايَعُونِي فَلَمْ يُوفُوا بِبَيْعَتِهِمْ

وَ مَا كَرُونِيَ فِي الأَعْدَاءِ إذْ مَكَرُوا [23] .

تعليقات:

1) الأية 24 ، من السورة 32 : السجدة .
2) الأية 124 ، من السورة 2 : البقرة .
3) الأية 39 ، من السورة 14 : ابراهيم .
4) الأية 51 . 55 ، من السورة 15 : الحجر .
5) الأية 71 . 73 ، من السورة 11 : هود .
6) الأية 64 ، من السورة 4 : النّساء .
7) الأية 72 و 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .
8) الأية 82 و 83 ، من السورة 36 : يس .
9) الأية 50 ، من السورة 54 : القمر .
10) الأية 54 ، من السورة 7 : الأعراف .
11) الأية 24 ، من السورة 32 : السجدة .

12) الأية 75 ، من السورة 6 : الأنعام .

13) الأية 5 و 6 ، من السورة 102 : التكاثر .

14) الأية 18 ـ 21 ، من السورة 83 : المطفّفين .

15) الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .

16) ينابيع المودّة) ، ص . 248

17) تذكرة الخواص) ، ص . 26

18) حلية الأولياء) ، ج 1 ، ص 63 ؛ و (فرائد السمطين) ج 1 ، ص 145 و (مطالب السؤل) ، ص 21 عن الحافظ أبي نعيم في حليته ؛ و أورده كذلك في (غاية المرام) ، ص 16 ، الاّ انّه ينقله في ص 18 عن ابن شاذان عن طريق العامّة باسناده عن أنس باختلاف في التعبير ، و يقول في ذيله : أنت منّي تؤدّي عنّي و تؤدّي ديني وتبلّغ رسالاتي . فقال علي عليه السلام : يا رسول الله ! أما أنت تبلغ الرسالة ؟ قال : بلى ولكن تعلّم الناس من بعدي من تأويل القرءان ما لا يعلمون و تخبرهم بذلك . و سنبحث هذا الحديث بالتفصيل في المجلّد الثاني من (معرفة الإمام) .

19) إشارة للآية الكريمة 26 في سورة الفتح : (وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقّ بِهَا وَأَهْلَهَا) .

20) و ورد في (مطالب السؤل) بلفظ (و جعله ربيع الإيمان) .

21) حلية الأولياء) ، ج 1 ، ص 66 و 67 ؛ و نقلها في (مطالب السؤل) ص 21 عن حلية الأولياء .

22) ينابيع المودة) ، ص . 134

23) ينابيع المودّة) ، ص . 135

23) ينابيع المودّة) ، ص . 135

الدرس الثامن: الولاية التكوينيّة للإمام بإذن الله على نفوس السعداء و الأشقياء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

يَوْمَ نَدْعُوا كُلّ أُنَاسٍ بِإِمَمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَبَهُمْ وَ لاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَ مَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الْأَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلّ سَبِيلًا (1) .

انّ كلّ موجود من الموجودات الخارجيّة ، و حتّى أفعال الإنسان ، له وجهتان ، وجهة ظاهريّة مشهودة و محسوسة تُدعى بالوجهة الخلقيّة والمُلكيّة ، و وجهة باطنيّة غير مشهودة و لا محسوسة تُدعى بالوجهة الأمريّة و الملكوتيّة .

و الوجهة الملكوتيّة و الأمريّة هي التي تظهر بواسطتها الوجهة الخلقيّة و المُلكيّة ، مثل إرادة الانسان التي يقوم بواسطتها بفعل الأفعال في الخارج .

و الإمام هو الذي يستطيع هداية البشر الى الله من الوجهة الملكوتيّة ، و تلك هي الهداية بالأمر و ليست زمانيّة و لا مكانيّة .

و الأية الشريفة :

وَجَعَلْنَهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (2)

تعرّف اولئك الأفراد .

و تشير هذه الأية انّ كلّ ما يرتبط بأمر الهداية ، أي القلب و العمل ، فانّ باطنه و حقيقته بيد الإمام ، و ذلك الباطن و الحقيقة . و هي الوجهة الأمريّة لتلك الأمور . حاضر دوماً عند الإمام لا يغيب عنه . و هذا المقام يستلزم الاطّلاع على أسرار الملكوت الذي سيكون اليقين من لوازمه . وبناءً على هذا فانّ مقام الإمامة أشرف من النبوّة .

مقام الإمامة أشرف من النبوّة :

ورد في (الكافي) عن الامام الصادق عليه السلام :

إنّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعالَى اتّخَذَ إبْرَاهِيمَ عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتّخِذَهُ نَبِيّا ، وَ إنّ اللهَ اتّخَذَهُ نَبِيّا قَبْلَ أنْ يَتّخِذَهُ رَسُولاً ، وَ إنّ اللهَ اتّخَذَهُ رَسُولاً قَبلَ أَن يَتّخِذَهُ خَلِيلاً ، وَ إنّ اللهَ اتّخَذَهُ خَلِيلاً قَبلَ أَن يَجْعَلَهُ إمَامًا ، فَلَمّا جَمَعَ لَهُ الأشْيَاءَ قَالَ : إنّى جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إمَامًا .

قَالَ : فَمِنْ عِظَمِهَا فِي عَينِ إبراهِيمَ قَالَ : وَ مِن ذُرّيّتِى ؟ قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظّالِمِينَ .

قَالَ : لاَ يَكُونُ السّفِيهُ إمَامَ التّقِيّ (3) .

و ذلك لأن معنى النبوّة اتّصال القلب بعالم الملكوت ، و تلقّي الوحي من جبرئيل ، و هذا المعنى أقوى في الرسول ، كما انّه سيكون هناك أيضاً مشاهدة الملائكة و ملائكة الوحي ، لكنه يمكن في نفس الوقت ان لا

يكون لكلّ منهم سيطرة على ملكوت بني ءادم أو إحاطة بالقلوب ليسيروا بهم الى الكمال و الى مقامهم الواقعي ،

فمقام الأنبياء و المؤمنين و العلماء هو مقام الإرشاد و التبليغ و إراءة الطريق فقط .

قال الله تعالى : وَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن رّسُولٍ إِلّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيّنَ لَهُمْ فَيُضِلّ اللهُ مَن يَشَآءُ وَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ (4) .

و تبيّن هذه الأية دائرة مأموريتهم ، و هي مجرّد البيان و الدلالة على الطريق ، و إمّا الإضلال و الهداية فهي بيد الله تعالى و ليس بيد الأنبياء منها شيء ، خلافاً للإمام الذي يهدى بنفسه بإذن الله . يقول في هذا الشأن : وَقَالَ الّذِى ءَامَنَ يَقَوْمِ اتّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرّشَادِ (5) .

و قال أيضاً : فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلّ فِرْقَةٍ مّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِيَتَفَقّهُوا فِي الدّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلّهُمْ يَحْذَرُونَ (6) .

نعم هذا كلّه دلالة على الطريق و ليس منصباً للإمامة .

معنى الإمام :

و بناءً على هذا فإن أقوال و أحاديث الفقهاء هي فقط من باب نقل الرواية و بيان الحكم ، لا من جهة حجّية الرأي و الفعل و القول ؛ و من الخطأ أن يُطلق عليهم إسم الإمام . فالإمام هو الذي صار له . بوصوله الى مقام اليقين و كشف الملكوت . الهيمنة على عالم الأمر ، و صار باطن الأفعال مكشوفاً له ، و صار بإمكانه . بسيطرته على الباطن . أن يهدي القلوب الى المقاصد و الغايات .

و الأمر هو الإذن الذي تصدر المعجزة بواسطته من الأنبياء العظام ، فأحيوا به الموتى و قاموا بالأعمال الخارقة للعادة .

لقد قال عيسى بن مريم ، على نبينّا و ءاله و عليه السلام ، لبني اسرائيل :

أَنّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِاَيَةٍ مّن رَبّكُمْ أَنّى أَخْلُقُ لَكُمْ مّنَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرا بِإِذْنِ اللهِ وَ أُبْرِىءُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْىِ الْمَوتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَ مَا تَدّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنّ فِى ذَ لِكَ لَأَيَةً لّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (7) .

ففي هذه الأيات تعدّ خوارق العادات المنسوبة الى عيسى بن مريم منوطةً بإذن الله تعالى ، و لإنّ إذن الله ليس إجازة و أمراً اعتباريّاً و ترخيصاً خارجاً عن الملكوت ، لذا فقد اعطي عيسى بن مريم قوّة التصرّف في أمر الملكوت ، بحيث يتصرّف في ملكوت الأشياء بإرادته الملكوتيّة ، و بحيث يستطيع تغيير ماهيّة الأشياء ، فصار يُحيي الموتى و يُبرء الأبرص و الأعمى دون أسباب و دون إعداد المقدّمات في الخارج .

يجب أن يكون لدى الإمام قوّة ملكوتيّة في الأمور :

و ينبغي ان يوجد لدى الأئمة عليهم السلام هذه القوّة حتماً ، ليكونوا قدوةً للبشر من جانب الظاهر و الباطن ، و ليقودوا الأمّة الى كمال التكوين والتشريع .

و الأئمّة الأطهار لا يهدون فقط الأفراد الصالحين فيوصلونهم الى كمالهم ، بل انهم يهدون الأشقياء و أصحاب الأعمال السيّئة أيضاً ويوصلونهم الى كمالهم .

يَوْمَ نَدْعُوا كُلّ أُنَاسٍ بِإِمَمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَبَهُمْ وَ لاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَ مَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الْأَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلّ سَبِيلًا (8) .

و هذه الأية تبيّن أولاً انّ الناس جميعاً في كلّ زمان و مكان يمتلكون إماماً ، و ذلك لأنّ الأية تقول على نحو الإطلاق و العموم بأننا سندعوا جميع افراد البشر يوم القيامة بإمامهم ، لذا فانّ هناك إماماً في كلّ زمان و مكان هو مربّي أمّته ، و بواسطته يدخل السعداءُ الجنّة ، و الأشقياءُ النار ، فهناك فئة من الأمّة هم أصحاب اليمين ، أي أهل السعادة ، و فئة أخرى عميٌ و هم أصحاب الشقاء ، و المراد بهذه الفئة أصحاب الشمال ، حيث صرّحت بذلك بعض ءايات القرءان :

فَأَمّا مَنْ أُوتِىَ كِتَبَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (9) .

وَ أَمّا مَنْ أُوتِىَ كِتَبَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (10) .

و هاتان الفئتان هما أصحاب اليمين و أصحاب الشمال الموجودون في كلّ مجتمع من المجتمعات ، والذين سيصلون الى هذه المراحل بواسطة إمامهم ،لذا فانّ المراد بهاتين الفئتين جميع افراد الأمّة باستثناء الإمام . امّا اذا أردنا أن نقسم البشر بحيث يكون الامام ضمنهم ،فانّ علينا بتقريب ءاخر أن نقسم الناس الى ثلاثة أقسام :

الجماعة الاولى : المقرّبون .

و الثانية : أهل السعادة و أصحاب اليمين .

و الثالثة : أهل الشقاء و أصحاب الشمال .

فَأَصْحَبُ الْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَبُ الْمَيْمَنَةِ وَ أَصْحَبُ الْمَشْئَمَةِ مَآ أَصْحَبُ الْمَشْئَمَةِ وَالسّبِقُونَ السّبِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرّبُونَ فِى جَنّتِ النّعِيمِ (11) .

هؤلاء الذين سبقوا في السير الى الله ، اولئك المقرّبون من ساحة الله تعالى ، والذين تخطّوا الحساب و الكتاب و العرض والسؤال و الميزان والصراط و جهنّم ، فصاروا من المقرّبين الى الله ، و اختاروا السكنى في حرم الأمن و الأمان الالهيّ .

فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (12) .

و هؤلاء هم الذين اجتازوا هذه العقبات في الدنيا ؛ و في الوقت الذي كان البشر فيه منهمكين في شهواتهم النفسانية ، كان المقرّبون مشغولين في تصفية حساباتهم ، و كانوا يناجون ربّهم سرّاً و علانيّة ، و سيكون الأئمة عليهم السلام بالتأكيد ضمن هذه الفئة .

أمّا أصحاب اليمين فهم الصالحون الذين كانت أعمالهم موافقة للعقل و لأمر الإمام ، فلا يبتعدون عن الحقّ و الصدق و الأمان و العبادة والكسب و الأعمال الحسنة ، لذا فانّ هؤلاء هم أهل الجنّة الذين سيُعطون كتاب أعمالهم بيمينهم كناية عن السعادة و الفوز و النجاة ، ولكن باعتبار انّهم لايزالون محجوبين بالحجب القلبيّة ، فلم يتمكّنوا أن ينسوا غير الخالق بشكل كامل ، و أن يطأوا بأقدامهم على عالم الباطل و زينة الدنيا الخادعة ، فانّهم يجب أن يُحاسبوا ، كما انّ مقامهم و منزلهم ليس مقام و محلّ المقرّبين .

امّا أصحاب الشمال فهم الذين لم يعملوا وفق أوامر العقل و الأنبياء ، فواجهوهم و لم يتورّعوا عن ظلم أنفسهم ، و هؤلاء هم أهل الفسق والفجور و الخيانة و الكذب و الجناية ، و بالطبع فانّهم سيُعطون كتابهم بشمالهم كنايةً عن العذاب و الظّلمة و الشقاء و جهنّم .

و لأنّ ظهور و بروز هذه الخيرات و البركات في المؤمنين ، و هذا الفجور و الخيانات في الفاسقين قد كان بسبب ظهور ولاية الإمام ، لذا فانّ جميع افراد الأمّة يذهبون بواسطة إمامهم الى الجنّة أو الى جهنّم .

لذا فقد ورد في روايات كثيرة : عَلِيّ قَسِيمُ الْجَنّةِ و النّارِ [13] . و هذه الروايات لم ترد عن طريق أهل البيت عليهم السلام فقط ، بل انّه قد روي عن طريق العامّة أيضاً روايات من هذا القبيل .

و سنأتي بثلاث معانٍ لهذه الروايات هيالاخرى مترتّبة على أحدها الأخر ، أياننا سنفسّرها في ثلاث مراحل متفاوتة من وجهة نظر ظهورها وخفائها .

معنى الروايات الواردة في أنّ عليّاً قسيم الجنّة و النّار :

الأول من وجهة نظر العمل ، و هو انّ أميرالمؤمنين كان له مقام الولاية و الإمامة من قبل الله ، و فعله و قوله حجّة ، أي ان جميع أفراد البشر يجب أن يقتدوا به في جميع شؤون حياتهم .

و بناءً على ذلك ، فانّ كلّ من يتبعه سيكون حقّاً من أهل الصدق والصفاء و العبادة و التسليم و الجهاد و الجود و الإيثار ، و من الواضح أنّ شخصاً كهذا هو من أهل الجنّة ، و ذلك لأنّ الجنّة هي ظهور الأفعال والملكات الحميدة في العوالم الأخرى ، و كلّ من يرفض دعوته عليه السلام و لا يقتدي بسيرته ، و ينصرف الى الكذب و الخيانة و التطفيف في الميزان و أكل الربا و التكاثر في الأموال و عبادة الشهوة و السعي وراء المنفعة و اتباع الهوى و الإعراض عن ذكر الله ، فانّ من المسلّم انّه سيكون من أهل النار ، لأنّ جهنّم هي ظهور الملكات و الأفعال القبيحة في تلك العوالم .

و ما أوجب تفرّق هاتين الفئتين و انفصالهما عن بعضهما هو أمر ونهي مقام الولاية ، الذي قبلته فئة و رفضته أخرى . لذا فانّه سيكون قسيم الجنّة و النار ، شأنه شأن معلّم يربّي تلاميذه و يعلّمهم الدروس ، فهناك فئة من التلاميذ يجدّون و يسعون فيتعلّمون تلك الدروس ، و فئة أخرى تتكاسل و تأبى التعلّم ، فيقوم المعلّم بإنجاح الفئة الاولى و بإفشال و إبقاء الفئة الأخرى في مكانها السابق ، و كما انّ من الصحيح أن نقول انّ المعلّم رفع فئة الى مقامٍ أعلى و حبس أخرى في مكانها السابق ، فانّ من الصحيح كذلك أن نقول : عِلِيّ قَسِيمُ الْجَنّةِ وَ النّارِ .

الثانى : من وجهة نظر الحبّ و البُغض ، لأنّ نتيجة روح العمل هي المحبّة ، لذا فانّ الذين يفتقرون هذه المحبّة ، بل اولئك الذين يربّون . والعياذ بالله . بُغضه (عليه السلام) في قلوبهم ، هم في غاية البعد عن الحقيقة و الواقع ، فالذي يحبّ شيئاً سيكون مسلّماً أن يحبّ اثاره أيضاً ، والذين يحبّون أميرالمؤمنين سيحبّون أفعاله و أقواله و سيرته ، و ستكون لهم محبّة لهذه الأثار . و على العكس فانّ أعداءه و مُبغضيه سيُبغضون سيرته و سنّته ، لذا فانّ أعمالهم ستكون طبعاً أعمالاً خشنة و سيئة .

و لأنّ الأفعال الحسنة تُوجِد المحبة و الصفاء و النور في الإنسان ، كما ان الافعال القبيحة توجِد ظلمة القلب و قساوته ، فانّ محبّي أميرالمؤمنين . بناءً على ذلك . هم طبعاً أصحاب الحقيقة و الصفاء و المحبّة ، قلوبهم أطيب و اكثر نوراً ، و أنفسهم أخفّ ، بينما أعداء أميرالمؤمنين هم بالطبع بعيدون عن الحقيقة و الصفاء ، قلوبهم مظلمة و أنفسهم مُتعبة و ثقيلة وأرواحهم مُدنّسة .

و لأنّ نتيجة الأعمال الحسنة هي ذلك الصفاء و النورانيّة و المحبّة لله ، كما ان نتيجة الأعمال القبيحة هي الظلمة و القساوة و الإعراض عن الله ، لذا فانّ أميرالمؤمنين بسبب تقسيم الناس الى فئتين محبّ و مُبغض قد قسمهم الى فئتين : .هل الجنّة و أهل النار .

يروي القندوزي الحنفي عن أبي الصلت الهروي قال : قال المأمون لعليّ [ابن موسى] الرضا عليه السلام : أخبرني عن جدّك أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام بأيّ وجه هو قسيم الجنّة و النار ؟

فقال له الرضا : ألم ترو عن ءابائك عن عبدالله بن عبّاس انّه قال :

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يَقُولُ : حُبّ عَلِيّ إِيمَانٌ وَ بُغْضُهُ كُفْرٌ .

فقال : بلى .

فقال الرضا عليه السلام : فقسمة الجنّة و النار إذا كانت على حبّه وبُغضه فهو قسيم الجنّة و النار .

فقال المأمون : لاَ أَبْقَانِيَ اللهُ بَعْدَك إنّكَ وَارِثُ جَدّكَ رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم .

قال أبوالصلت الهروي : فلمّا انصرف الرضا عليه السلام الى منزله أتيتُهُ ، فقلتُ له :

يابنَ رسول الله صلى الله عليه وءاله ، ما أحسنَ ما أجبتَ به أميرالمؤمنين !

فقال الرضا عليه السلام : يا أباالصلت ! إنّما كلّمتُهُ مِن حيثُ هو ،

وَ لَقَدْ سَمِعْتُ أَبِي يُحَدّثُ عَن ءَابَائِهِ عَنْ عَلِيّ عليهم السّلامُ انّه قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليه و ءاله : يَا عَلِيّ أَنْتَ قَسِيمُ الْجَنّةِ وَالنّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَقُولُ لِلنّارِ : هَذَا لِي وَ هَذَا لَكِ (14) .

كما يروي الخوارزمي الموفّق بن أحمد المكّي باسناده عن نافع ، عن ابن عمر قال :

قال رسولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم لِعَليّ : إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُؤتَى بِكَ يَا عَلِيّ بِسَرِيرٍ مِنْ نُورٍ ، وَ عَلَى رَأسِكَ تَاجٌ ، قَدْ أَضَاءَ نُورُهُ وَ كَادَ يَخْطفُ أَبْصَارَ أَهْلِ الْمَوقِفِ ، فَيَأتِي النّدَاءُ مِنْ عِنْدِ اللهِ جَلّ جَلاَلُهُ : أَيْنَ وَصِيّ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللهِ ؟

فَتَقُولُ : هَا أَنَاذَا !

فَيُنَادِي الْمُنَادِي : أَدْخِلْ مَنْ أَحَبّكَ الْجَنّةَ وَ أَدْخِل مَن عَادَاكَ فِي النّارِ فَأَنْتَ قَسِيمُ الْجَنّةِ وَ النّارِ (15) .

كما يروي ابن المغازلي الشافعي بسنده عن ابن مسعود قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : يَا عَلِيّ إِنَكَ قَسِيمُ الْجَنّةِ والنّارِ ، أَنْتَ تَقْرَعُ بَابَ الْجَنّةِ وَ تُدْخِلُهَا أَحِبّاءَكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ (16) .

معنى الوسيلة :

و يروي الحمويني في (فرائد السمطين) عن أبي سعيد الخدري قال :

كان رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول : اذا سألتم الله عزّوجل فاسألوه لي الوسيلة (17) ، فسُئل عنها فقال : هي درجة في الجنّة ، و هي ألف مرقاة ، ما بين المرقاة الى المرقاة بسير الفرس الجواد شهراً ، مرقاة زبرجد الى مرقاة لؤلؤ الى رمقاة ياقوت الى مرقاة زمرد الى مرقاة مرجان الى مرقاة كافور الى مرقاة عنبر الى مرقاة يلجوج الى رمقاة نور ، و هكذا من أنواع الجواهر ، فهي في بين درجات النبيّين كالقمر بين الكواكب ، فيُنادي المنادي : هذه درجة محمّد خاتم الأنبياء ، و أنا يومئذٍ متّزرٌ بريطة من نور ، على رأسي تاج الرسالة و إكليل الكرامة ، و عليّ بن أبي طالب أمامي و بيده لوائي و هو لواء الحمد مكتوبٌ عليه : لاَ إِلَهَ إِلّا اللهُ ، مُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ ، عَلِيّ وَلِيّ اللهِ ، وَ أَولِيَاءُ عَلِيّ الْمُفلِحُونَ الْفَائِزُونَ بِاللهِ ، حتى اصعد أعلى درجة منها و عليّ أسفل منّي بدرجة و بيده لوائي ، فلا يبقى يومئذٍ رسولٌ و نبيّ ولا صدّيق و لا شهيد و لا مؤمن الاّ رفعوا أعينهم ينظرون الينا و يقولون : طوبى لهذين العبدين ، ما أكرمهما الله علَيّ ، فينادي المنادي يسمع نداءه جميعُ الخلائق :

هذا حبيب الله محمّد و هذا وليّ الله عليّ ، فيأتي رضوان خازن الجنّة فيقول : أمرني ربّي أن ءاتيك بمفاتيح الجنّة فأدفعها اليك يا رسول الله ، فأقبلها أنا فأدفعها الى أخي عليّ ، ثمّ يأتي مالك خازن النار فيقول : أمرني ربّي أن ءاتيك بمقاليد النار فأدفعها اليك يا رسول الله ، فأقبلها أنا فأدفعها الى أخي عليّ ، فيقف عليّ على

عجزة جهنّم و يأخذ زمامها بيده وقد علا زفيرُها و اشتدّ حرّها ، فتنادي جهنّم : يا عليّ ذرني فقد أطفأ نورُك لهبي ! فيقول لها عليّ : ذري هذا وليّي و خُذي هذا عدوّي ، فلجهنّم يومئذٍ أشدّ مطاوعة لعليّ فيما يأمرها به مِنْ رقِّ أحدكم لصاحبه ، و لذلك كَانَ عَلِيّ قَسِيمُ النّار و الجَنّةِ [18] .

ثالثاً : من وجهة نظر اشعاع نور الولاية و ظهور الحقائق و المخفيّات وبروز القابليّات ، و هذه المرحلة تحتاج الى الدقّة و التأمّل ؛ و لإيضاح هذه المرحلة نذكر مقدّمة بعنوان مثال و شاهد :

من المعلوم و المشهود انّ الشمس تبتعد في فصل الشتاء عن الارض ، فتفقد الأرض بعض حرارتها ، و تفقد جميع ءاثارها و تجليّاتها ، إذ تصبح كئيبةً باردة و تفقد ءاثارها الحياتيّة فليس فيها ظهور لخواص الموجودات او ءاثارها ، فالأشجار يابسة لا ورق فيها و لا ثمر ، كأنّها أخشاب يابسة مغروسة في الأرض ، تقف اشجار التفاح و الكمثرى والرمّان و المشمش و الجوز و الاشجار غير المثمرة كلّها سواءً و في رديف واحد ، لا يميّزها عن بعضها شيء ، إذ ليس فيها من ظهور أو فعليّة ، كما انّ قابليّاتها الكامنة غير مرئيّة ، لذا فانّها تقف في منزلة واحدة و تُعدّ أخشاباً يابسة لا ضرر و لا نفع لها .

كما ان الأوراد و الشقائق ذابلة كلّها و منكمشة بلا أثر ، فلا ورد الياس و الرازقي يفوح بالعطر ، و لا النباتات ذات الرائحة الكريهة تبعث برائحتها ؛ لا طراوة هناك في الوردة الحمراء ، و لا أوراد الدفلى ذات الرائحة النفّاذة لها أثر من ذلك .

البلابل و طيور الكناري و طيور الزاغ و العُقبان قد انسحبت الى أعشاشها و أوكارها ، و الأفاعي و العقارب قد سبتت و رقدت هي الاخرى مع الطيور البديعة الرائعة و تهاوت في جحورها و أعشاشها متثاقلة بلا حسّ .

و ما ان تقترب الشمس بأشعتها التي تغمر العالم مع حلول الربيع ، وتُرسل الى الأرض بأشعتها الباعثة على النشاط و الحياة ، فانّ تلك القابليات الكامنة ستصل الى مرحلة الفعليّة ، فتبدأ شجرة التفّاح بإرسال أغصانها وأوراقها و ثمارها الحلوة الحمراء المعطّرة مزيّنةً جوّ الحديقة ، ويظهر من شجرة الكمثرى هذه الفاكهة الخاصّة ، و تُعلن شجرة المشمش بمنظرها الزاهي المحبّب و ثمارها الصفراء العطرة اللذيذة ميزتها الوجوديّة عن سائر ما يجاورها في الحديقة .

كما انّ الاشجار غير المثمرة و الاشجار ذات الثمار المرّة أو الفجّة الحامضة و الضارّة مثل بعض أشجار الغابات ستُعلن عن تفاهة شخصيّتها وأثرها ، و تطأطىء رؤسها أمام الأشجار الاخرى فليس لها بَعْدُ من مجالٍ للغرور و الاستكبار و التعالي .

كما ان الطيور و البلابل ستنشغل و تنهمك بالتغريد في فضاء الحدائق ، بينما تحلّق طيور الزاغ و العُقبان باحثةً عن الجيف ، و تظهر الأفاعي والجرذان و العقارب و تُعلن عن وجودها متحرّكةً بين الصخور والأنهار .

و كلّ ذلك بتأثير أشعّة الشمس و ظهور دفئها الباعث على الحياة والنشاط ، فحين تبزغ الشمس فانّ كلّ موجود يُظهر قابليّته و يُبرز مراحله الكامنة ، بينما لم يكن هناك فرق بين الموجودات قبل طلوع الشمس و قبل بزوغ اشعاعها .

و هكذا الأمر بالنسبة الى شمس الولاية ، فقبل أن تطلع و تشرق على القلوب و الأفئدة ، و قبل أن تأمر و تنهى ، فانّ البشر سيعيشون في مستوى واحد ، فلا تفاوت بين الشقيّ و السعيد ، و لا بين أهل الجنّة و النار ، و لا بين مؤمن و كافر ، و لا بين عادل و فاسق ، و لا بين محبّ و مُبغض ، و لا بين موحدّ و مُشرك :

كَانَ النّاسُ أُمّةً وَ حِدَةً [19] .

كانوا كلّهم في مستوى واحد ، و ما أكثر ما كان يحصل ان يعدّ الأشقياء أنفسهم أفضل من السعداء و يفتخرون بذلك ؛ ولكن ما ان طلعت شمس الولاية و أشرقت على الأرواح الكئيبة ، حتّى بعثت الحركة و النشاط في النفوس و أظهرت غرائز و سرائر و ضمائر كلّ إنسان ، فطووا باختيارهم طريق السعادة فأوصلوا كلّ القابليّات النورانيّة الى مرحلة الفعليّة ؛ أمّا الأشقياء فانّ خُبث السريرة سيظهر بسبب تمرّدهم و إنكارهم و جحودهم القلبيّ ، و ستظهر الأثار القبيحة السيّئة لهم في مرحلة الفعل و القول .

و هكذا فانّ أصحاب الفطرة السليمة سيتراصّون في صفوف العبوديّة ، و سيملئون الدنيا تواضعاً و إنفاقاً و إيثاراً و رحمةً و إنصافاً وترحّماً على الأيتام و صدقاً و صفاءً و عدلاً و توحيداً .

امّا أصحاب الفطرة السيّئة فانّهم سيشكّلون صفوف الفجور والفسق ، فيملأون الدنيا خيانةً و قبحاً و قساوة و اغتصاباً للحقوق و الأموال ، و كذباً وظلماً و شِركاً :

لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيّنَةٍ وَ يَحْيَى مَنْ حَىّ عَن بَيّنَةٍ وَ إِنّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ [20] .

و بعبارة أخرى فلأنّ الإمام هو روح القرءان و حقيقته ، و كما انّ القرءان شفاء و نور و رحمة للمؤمنين ، و سببٌ لرقيّهم و كمالهم ، بينما هو في الوقت نفسه ظُلمة و خسران و وبال للظالمين و سببٌ لزيادة قسوتهم وظلمهم ، فانّ وجود الإمام عليه السلام له هذا الأثر و الخاصيّة أيضاً .

وَ نُنَزّلُ مِنَ الْقُرءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَ رَحْمَةٌ لّلْمُؤْمِنِينَ وَ لاَ يَزِيدُ الظّلِمِينَ إِلاّ خَسَارًا [21] .

انّ الأيات القرءانيّة تُقرأ على المؤمن و توجب رفع مقامه و منزلته بناءً على تقبّل قلبه و خضوعه و خشوعه و ازدياد إيمانه و توكّله ، لكنّها عندما تُقرأ على الكافر فانّها ستسبّب زيادة ظلمته و خُسرانه بسبب جحود قلبه و إنكاره و تمرّده .

حين تشرق شمس الولاية على قلوب المؤمنين كمصباح منير ، فانّهم سيفيدون من تلك الحرارة و النور ، و سيتصاعد العطر المنعش من أرواحهم و أسرارهم فيعطّر فضاء عالم الإنسانيّة ، امّا قلوب الكافرين فتصبح متعبة كدرة ، و ستزكم رائحة التعفّن الكامنة فيهم أنوف الإنسانيّة ، وتسبب الملل و الضجر للعقل و الحق .

انّ الامام سيظهر ، من وجهة نظر ملكوت البشر و قلوبهم ، كلّ استعداد فيهم و يوصله الى مقاصده ، فيوصل المؤمنين الى الجنّة و يُرسل الكافرين الى النار ، و يحرّك كل موجود من وجهة نظر ملكوته في طريق وصراط يتناسب معه .

ما مِن دَآبّةٍ إِلاّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِراطٍ مّسْتَقِيمٍ [22] .

انّ لكلّ فرد من المؤمنين مقاماً معلوماً في الجنّة ، كما انّ هناك لكلّ كافر مكاناً معلوماً في النار ، و الوصول الى هذه الغاية يتمّ بواسطة الامام الذى يهدي كلّ شخص في مسيره و هدفه من وجهة نظر التكوين ؛ امّا من وجهة نظر التشريع ، و بسبب القبول و الرفض الذي يجعل الكافرين والمؤمنين في صفّين متقابلين مختلفين ، فانّه سيقود كلّاً منهما الى كمال استعداه .

و بناء على ذلك ، فما أجمل قول رسول الله صلّى الله عليه و ءاله و ما أروعه حين قال :

عَلِيّ قَسِيمُ الْجَنّةِ وَالنّارِ .

يقول ابن شهر ءاشوب : شريك القاضي و عبدالله بن حمّاد الأنصاري قال كلّ واحد منهما : حضرتُ الأعمشَ في علّته التي قُبض فيها و عنده ابن شبرمة ، و ابن أبي ليلى و أبوحنيفة ، فقال أبوحنيفة : يا أبا

محمّد [يخاطب الأعمش] اتّقِ الله و انظرْ لنفسك فانّك في ءاخر يوم من أيّام الدنيا و أوّل يوم من أيّام الأخرة ، و قد كنت تحدّث في عليٍّ بأحاديث لو تُبتَ عنها كان خيراً لك .

قال الأعمش : مثل ماذا ؟

قال : مثل حديث عباية الأسدي : إنّ عَلِيّا قَسِيمُ النّارِ .

قال (الأعمش) : أقعدوني و سنّدوني ! و حَدّثَنِي . والّذي إليه مصيري . موسى بن طريف إمامُ بني أسد عن عباية بن ربعي امام الحيّ قال : سَمِعْتُ عَلِيّاً عليه السّلام يَقُولُ : أَنَا قَسِيمُ النّارِ أَقُولُ هَذَا وَلِيّي دَعِيهِ وَهَذَا عَدُوّي خُذِيهِ .

و حدّثني أبو المتوكّل الناجي في امرة الحجّاج ، عن أبي سعيد الخدري : قال النبيّ صلى الله عليه و ءاله : اذا كان يوم القيامة يأمر الله عزّوجل ، فأقعدُ أنا و عليّ على الصّراطِ و يُقالُ لنا : أَدْخِلا الجنّةَ مَنْ ءامن بي و أحبّكما و أَدْخِلا النّارَ مَنْ كَفَرَ بِي و أَبْغَضَكُمَا .

(و في لفظ : ألقيا في النار من أبغضكما و أدخلا الجنّة مَن أحبّكما) .

و حدّثني أبو وايل قال : حدّثني ابن عبّاس قال : قَالَ رَسول الله صلّى الله عليه و ءاله : إذا كَانَ يَومَ الْقِيَمَةِ يَأمُرُ اللهُ عَلِيّاً أَن يُقَسّمَ بَيْنَ الجَنّةِ وَالنّارِ ، فَيَقُولُ لِلنّارِ خُذِي ذَا عَدّوِي وَ ذَرِي ذَا وَلِيّي .

قال : فجعل أبو حنيفة ازاره على رأسه و قال : قوموا بنا لا يجيء أبو محمّد بأعظم من هذا [23] .

يقول القندوزي ، أخرج الدار قطني في كتاب (جواهر العقدين) عن أبي الطفيل عامر بن واثلة الكناني قال : إنّ عَلِيّاً قالَ حَديثًا طَويلًا في الشّورَى ، و فيه انّه قالَ لأهلِ الشّورى : فأنشِدُكُمْ بِاللهِ هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ قالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : أنتَ قَسِيمُ النّارِ و الجَنّةِ غَيْرِي ؟ قالوا : اللَهُمّ لَا [24] .

و قد أنشد السيّد الحميري في هذا الأمر قصائد كثيرة مثل :

قَسِيمُ النّارِ هَذا لي
فَكُفّي عَنْهُ لَا يَضْرُرْ
وَ هَذا لَكِ يَا نَارُ
فَحُوزِي الْفَاجِرَ الأَكْبَرْ [25]

و يقول أيضاً :

ذَاكَ قَسيمُ النّارِ مِنْ قبلِهِ
خُذِي عَدّوّي وَ ذَرِي نَاصِرِي
ذَاكَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
صِهْرُ النّبِيّ الْمُصَطفَى الطّاهِرِ [26]

و [27] يقول :

عَلِيّ وَلِيّ الْحَوض و الذّائِدُ الّذِي
يَذَبّبُ عَنْ أَرْجائِهِ كُلّ مُجْرِمِ
عَلِيّ قَسِيمُ النّارِ مِن قَوْلِهِ لَها
ذَرِي ذَا وَ هَذا فَاشْرَبِي مِنْهُ واطْعَمِي
خُذِي بِالشّوى مِمّنْ يُصيبُك مِنْهُمُ
وَلَا تَقْرَبِي مَن كَانَ حزْبِي فَتَظلمِي [28]

و يقول دعبل الخزاعي :

قَسيمُ الجَحيمِ فَهذا لَهُ

وَ هَذا لَها باعتدالِ الْقِسَمْ

يَذُودُ عنِ الحَوضِ أَعداءَهُ

فَكَمْ مِنْ لَعِينٍ طَرِيدٍ وَ كَمْ

فَمِنْ نَاكِثِينَ و مِنْ قَاسِطِينَ

و مِنْ مَارِقِينَ و مِنْ مُجتَرَمْ (29)

و قال القندوزي : نُسب الى الشافعي انّه أنشد هذه الأبيات :

عَلِيّ حُبّهُ جُنّة

قَسِيمُ النّارِ و الجَنّة

وَصِيّ الْمُصطفى حَقّاً

إمام الإنْسِ وَالجِنّة (30)

يقول ابن الأثير : أروي بسندي المتصّل عن عليّ بن جزء قال : سمعتُ أبا مريم السلولي يقول : سمعتُ عمّار بن ياسر يقول : سمعت رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول لعليّ بن أبي طالب :

يَا عَلِيّ إنّ اللهَ عَزّوجلّ قدْ زَيّنَكَ بِزِينَةٍ لَمْ يَتَزَيّنِ الْعِبَادُ بِزِينَةٍ أَحَبّ اِلَيْهِ مِنْهَا : الزّهْدُ فِي الدّنْيَا ، فَجَعَلَكَ لاَ تَنَالُ مِنَ الدّنْيَا شَيئًا ، وَ لاَ تَنَالُ الدّنْيَا مِنْكَ شَيْئًا ، وَ وَهَبَ لَكَ حُبّ الْمَسَاكِينَ ، وَ رَضُوا بِكَ إمَامًا وَ رَضيتَ بِهِمْ أَتباعاً ، فَطُوبَى لِمَنْ أَحَبّكَ وَ صَدَقَ فِيكَ ، وَ وَيلٌ لِمَنْ أَبغَضَكَ وَ كَذَبَ عَلَيْكَ . فَأَمّا الّذِينَ أَحَبُوكَ وَ صَدَقُوا فِيكَ فَهُمْ جيرانُكَ فِي دَارِكَ ، ورُفَقَاؤُكَ فِي قَصرِكَ ، وَأَمّا الّذِينَ أَبْغُضُوكَ وَ كَذَبُوا عَليكَ ، فَحَقّ عَلى اللهِ أَن يُوقِفَهُمْ موقِفَ الكذّابِينَ يَوْمَ الْقِيمَةِ (31) .

تعليقات:

1) الأية 71 و 72 ، من السورة 17 : الإسراء .

2) الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .

3) أُصول الكافي) ، المجلّد الاول ، ص . 175

4) الأية 4 ، من السورة 14 : ابراهيم .

5) الأية 38 ، من السورة 40 ، المؤمن .

6) الأية 122 ، من السورة 9 : التوبة .

7) الأية 50 ، من السورة 3 : ءال عمران .

8) الأية 71 و 72 ، من السورة 17 : الإسراء .

9) الأية 7 و 8 ، من السورة 84 : الإنشقاق .

10) الأية 10 و 11 ، من السورة 84 : الإنشقاق .

11) الأية 8 . 12 ، من السورة 56 : الواقعة .

12) الأية 55 ، من السورة 54 : القمر .

13) ينابيع المودّة) ، ص 83 . . 86

14) ينابيع المودّة) ، ص 85 و . 86

15) ينابيع المودّة) ، ص . 83

16) ينابيع المودّة) ، ص . 84

17) و لذا يُستحبّ أن نقول عند الشروع بالصلاة قبل تكبيرات الافتتاحية : اللهمّ ربّ هذه الدّعْوة التّامة و الصّلوة القائمة بَلّغْ محمّدًا صلّى الله عليه و ءاله الدرجةَ و الوسيلةَ والفَضْلَ و الفَضِيلةَ .

18) ينابيع المودّة) ، ص 84 ؛ و قد ذكر المرحوم الكليني ما يقرب من ثلثيهذه الرواية في (روضة الكافي) ، ص 24 . 25 ضمن خطبة الوسيلة لأميرالمؤمنين عليه السلام التي أنشأها بعد سبعة أيّام من رحلة رسول الله في المدينة حول غصب الخلافة و إظهار مقاماته .

19) الأية 213 ، من السورة 2 : البقرة .

20) الأية 42 ، من السورة 8 : الأنفال .

21) الأية 82 ، من السورة 17 : الإسراء .

22) الأية 56 ، من السورة 11 : هود .

23) المناقب) ، ج 1 ، ص . 347

24) ينابيع المودّة) ص . 84

25) ديوان الحميري) ، ص 252 ، و اورد أصله عن (أعيان الشيعة) ، ج 12 ، ص 246 ؛ و (المناقب) ، ج 2 ، ص 159 و 194 و 233 و 288 ؛ و ج 3 ، ص 90 و . 91

26) ديوان الحميري) ، ص 245 ؛ و قد أورد أصله عن (اعيان الشيعة) ، ج 12 ، ل

27) ل ص 246 ؛ و (المناقب) ، ج 2 ، ص 125 و . 159

28) ديوان الحميري) ، ص 399 ؛ و أورد أصله عن (أعيان الشيعة) و (الغدير) و(المناقب) و (الكنى و الألقاب) .

29) مناقب ابن شهر ءاشوب) ، ج 1 ، ص . 349

30) ينابيع المودّة) ، ص . 86

31) أسد الغابة) ، ج 4 ، ص . 23

31) أسد الغابة) ، ج 4 ، ص . 23

الدرس التاسع: في معنى الولاية التكوينيّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

يَومَ نَدْعُوا كُلّ أُنَاسٍ بِإِمَمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَبَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَبَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَ مَنْ كَانَ فِى هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الْأَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلّ سَبِيلًا (1) .

و رد في كثير من الروايات عن طريق أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين ، و عن طريق العامّة ، انّ رسول الله صلى الله عليه و ءاله قال : لاَ يَجُوزُ أَحَدٌ الصّرَاطَ إلّا مَنْ كَتَبَ لَهُ عَلِيّ الْجَوازَ (2) .

تحقيق في حديث (لاَ يَجُوزُ أَحَدٌ الصّرَاطَ إلّا مَنْ كَتَبَ لَهُ عَلِيّ الْجَوازَ) :

و قبل ان ننقل هذه الروايات فاننا مجبرون على ذكر مقدّمة لتوضيح معنى الصراط و كيفيّة كتابة الجواز للعبور :

انّ جميع الموجودات . كما أشرنا سابقاً . لها ظاهر و باطن ، و من جملتها الانسان و اخلاق الانسان و أفعاله ، فهي الأخرى لها ظاهر و باطن . و يُقال لظاهرها الخلق و المُلك ، و لباطنها الأمر و الملكوت ، الظاهر هو المشهود و المحسوس ، امّا الباطن فمختفٍ كامن في هذا العالم .

كما ان ميزان جزاء و ثواب الأعمال يُقاس على ملكوتها و حقيقتها ، لا على ظاهرها ، فالصلاة التي يصلّيها الشخص . مثلاً . يمكن من وجهة النظر الظاهري أن تراعى فيها جميع خصوصيات الأداب الواجبة والمستحبّة ، من الوضوء و الطهارة و القيام و الاستقبال و السجود و التختّم بالعقيق ، و العطر ، و السواك ، و اللباس الأبيض ، و العمامة و غيرها ، الّا ان النيّة تكون احياناً التقرّب الى الله ، و أحياناً اخرى الرياء و التظاهر ، مهما كان ظاهر الصلاتين واحداً لا اختلاف فيه ، لأنّ روح الصلاة ، اي الباعث والداعي للمصلّي هو الذي جعل روح هذه الصلاة في بُعدين مختلفين ، أحدهما التقرّب الى الله و الأخر التقرّب الى هوى النفس .

الصلاة في الصورة الأولى تقرّب الانسان الى الله ، و في الصورة الثانية تُبعده عنه ، في الصورة الاولى تقوده الى الجنّة ، و في الصورة الثانية تسوقه الى النار .

و هكذا الأمر في الصوم و الجهاد و الزكاة و الحجّ و الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و قراءة القرءان و عيادة المريض ، و سائر الأعمال التي لها ظاهر ممدوح ، حيث تمتلك جميعها هذا الملكوت و الحقيقة ، و تختلف قدرة إيصالها الى الله شدّةً و ضعفاً بمقدار شدّة أو ضعف نيّة فاعلها ، امّا اذا كانت النيّة لغير الله فانّها ليس فقط لا تقرّب الإنسان الى الله ، بل انّها ستبعده عنه .

المعاصي و الذنوب لها أيضاً روح تختلف في الشدّة و الضعف ، كما ان العقاب سيُقاس على أساس الباعث الذي دعا المذنب الى المعصية .

و نجد أحياناً ان شخصاً ارتكب ذنباً ، لكنّه ارتكبه خطأً و عن غير عمد ، لذا فانّ ذلك الفعل لن يكون له ءاذاك عنوان المعصية ، و لن يكون مُبعّداً له عن الله .

في عالم الحسّ و الشهادة ، أي العالم الذي نرتبط معه بالحواسّ الظاهريّة ، و المراد به هذا العالم الحاليّ ، فانّ ملكوت و واقعيّة الأعمال مختفٍ كامن ، و ما هو ظاهر و مشهود في هذا العالم انّما هو هيكل الفعل و جسده ومتنه ، لذا فانّ معيار كبر و صغر الأفعال من الوجهة الظاهريّة عند أسرى سجن الطبيعة ، هو صغر و كبر نفس العمل ، فكثرة الصلاة ، وكثرة الصيام ، و التظاهر بالورع والتقوى ، والتظاهر بالخشوع والخضوع ، و التكلّم بهدوء بلسانٍ ليّن هي أمور مستحسنة ، و غيرها غير مستحسن وغير مرغوب . امّا في عالم المعنى و الملكوت فان الأمر على العكس ، فلا يُنظر هناك الى ظاهر الاعمال من جهة صغرها و كبرها ، بل انّ ما يمثّل المعيار و الميزان للمطلوبيّة والمرغوبيّة هو النيّة و الإخلاص و الروح الموجودة في العمل ، فظاهر الأفعال هناك كامن بينما ملكوتها و باطنها ظاهر جليّ ، اي انّ الظاهر معلوم و الباطن مخفيّ ، مثل عالم النوم و عالم اليقظة .

انّ كلّ ما يُشاهد و يُحسّ في عالم اليقظة يزول في عالم النوم ، حين يرقد الشخص فيضع رأسه على و سادة النوم ، فيرى انّ جميع ظهورات وءاثار عالم اليقظة و خصوصيات و كيفيّات هذا العالم ستضمحلّ و تزول ، لكأنّه لم يرَ طوال عمره كهذا العالم .

و حين يستيقظ و يعرض عالم اليقظة نفسه عليه ، فانّ كلّ خصائص عالم النوم سيتصوّرها اعتباريّة ، و كأنّه لم يدخل في مثل ذلك العالم ، و ما لم يجد الانسان سبيلاً الى عالم الملكوت فانّه لن يدرك شيئاً غير مظاهر الطبيعة هذا و غير الهيكل و الجسم الظاهر ، لكنّه حين يتّصل بعوالم الملكوت بالموت الطبيعي أو غيره ، فانّ حقيقة الأعمال و واقعيّتها ستظهر له ءانذاك ، و سيكون عمله و سرّه معها ، و سينسى عالم الشهادة ، و ستُظهر ظهورات النيّات و الواقعيّات للإنسان عالماً جديداً أقوى أثراً بالاف المرّات من عالم الحسّ .

تحقيقٌ في معنى الصّراط:

يسلك الإنسان في هذه الدنيا بواسطة النفس و صفاتها و استخدام أفعالها طريقاً في المعنى، [3] و لأنّ رجوع الأنفس الى الله ، فانّ هذا الطريق في ملكوت الإنسان و نفسه سيكون الى الله أيضاً .

و يختلف البشر في سلوك هذا الطريق باختلاف قواهم المعنويّة ، فالبعض له طريق مستقيم تماماً ، و للبعض الأخر طريق يضمّ انحرافاً قليلاً ، بينما البعض الأخر يتحرّك بصورة كاملة في طريق الانحراف .

و لأنّ الإنسان يمتلك منذ اوائل عمره حتى ءاخر لحظات حياته حالاتٍ متفاوتة و ملكات روحيّة و نفسيّة من الحالات المختلفة ، والتي هي نتيجة للأعمال المتفاوتة ، فهو في انتقال من حالة الى حالة اخرى . حتى اذا ما كانت حالاته حسنة و ممدوحة بشكل كامل ، و اذا ما كان فعله صالحاً ونيّته التقرّب الى الله ، فانّه سيكتسب الاخلاص في العمل و ينتقل دائماً من حال الى حال و من كمال الى كمال ، فيصير من المقرّبين و السابقين ، فاذا أخذت عنايةُ الله و لطفه بيده فأعانته صار من العباد الكمّل ، و اذا كان من المتوسّطين ، اي انّه لم يستطع نسيان غير الله كليّاً ، بل كانت نفسه الأمّارة والشهوة يتغلّبان عليه أحياناً فيوقفان سيره أو يُعيدانه الى الخلف قليلاً ، الاّ انّ فعله و قوله غالباً ما يكون صالحاً و نيّته صالحة ، فسيكون من أصحاب اليمين .

و اذا كانت نفسه الأمّارة هي التي تقوده دائماً ، و كان كلّ سيره بخلاف الوصول الى مراحل الكمال الإنساني ، فانّه سيكون من الأشقياء وأصحاب الشمال .

و هذا الاختلاف الموجود لدى الناس في طريقهم سيسبّب اختلاف ملكوتهم ، لذا فانّ بعضهم سيطوي الطريق بسرعة ، و البعض الأخر ببطء ، والبعض الأخر في نهاية المشقّة و المحنة .

و هذا الملكوت سيظهر يوم القيامة ، و هناك حيث عالم الحقيقة فان الناس سيكونون في درجات مختلفة ؛ و جهنّم التي تستعر هي ظهور وبروز عوالم الشهوة و الغضب و الاستكبار و حبّ الشخصية و الإعراض عن الله والانغماس في المعاصي التي يعبّر القرءان عنها بعبارة الحيوة الدنيا .

و بناءً على هذا فانّ جهنّم هي ملكوت الدنيا ، كما ان الصراط الذي يُمدّ عليها هو الطريق الذي ينبغي للإنسان طيّة في نفسه لكي ينال المقصود و هو الله سبحانه و تعالى . و عندما يطوي الانسان هذا الطريق في الدنيا ، لذا فان هذا الصراط سيوضع أيضاً على جهنّم . و لأنّ على كلّ شخص بشكل حتمي أن يفوز بمقصوده بمجاهدة النفس للشهوات في الدنيا ، لذا فانّ العبور على جهنّم ضروري لجميع الافراد ، حتى للأنبياء و لأولياء الله .

و حين نزلت الأية الكريمة :

وَ إِن مّنْكُمْ إِلّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبّكَ حَتْمًا مَقْضِيّا ثُمّ نُنَجّى الّذِينَ اتّقَوا وَ نَذَرُ الظّلِمِينَ فِيهَا جِثِيّا (4) .

سألوا رسول الله صلّى الله عليه و ءاله : أَوَ أنتَ أيضاً واردٌ جهنّم ؟ أجاب : بلى ، لكننّا نعبر عليها كالبرق الخاطف (5) .

و على هذا ، فلأنّ الجميع قد قدموا الى هذه الدنيا و كان لهم جميعاً طريق في أنفسهم الى الله ، فانّ عليهم جميعاً ان يردوا الى جهنّم ، و على الجميع ان يعبروا على الصراط .

فاولئك الذين لم يهبوا قلوبهم الى الدنيا ، و لم ينكبوا عقولهم ، و لم يسألوا غير الله تعالى و لو لحظة واحدة ، فانّهم سيعبرون على جهنّم (على الصراط) كالبرق الخاطف ، امّا الباقون فانّ سرعتهم ستتفاوت باختلاف حالهم في الاخلاص ، فالبعض يمرّ بطيئاً ، و البعض من زمرة الأشقياء الذين كان صراطهم منحرفاً بشكل كامل ، سيزلّ على الصراط و يهوي في النار .

روى عبدالله بن مسعود عن رسول الله صلّى الله عليه و ءاله قال :

يَرِدُ النّاسُ النّارَ ، ثُمّ يَصْدُرونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَأَوّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرقِ ، ثُمّ كَمَرّ الرّيحِ ، ثُمّ كَحَضْرِ الْفَرَسِ ، ثُمّ كَالرّاكِبِ ، ثُمّ كَشَدّ الرّجُلِ ثُمّ كَمَشْيِهِ (6) .

و في تفسير القمّي رواية عن الامام الصادق عليه السلام قال :

الصّرَاطُ أَدَقّ مِنَ الشّعْرِ وَ أَحَدّ مِنَ السّيْفِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ عَلَيْهِ مِثْلَ الْبَرقِ ، وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ عَلَيْهِ مِثْلَ عَدْوِ الْفَرَسِ ، وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ عَلَيْهِ مَاشِيًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ عَلَيْهِ حَبْوًا ، وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمُرّ عَلَيْهِ مُتَعَلّقًا ، فَتَأْخُذُ النّارُ مِنْهُ شَيْئًا وَتَتْرُكَ شَيْئًا (7) .

لذا فانّ معنى الصراط العبور على الملكات و الأخلاق الرذيلة والصفات القبيحة ، فمن لم يُدنّس بها أصلاً مرّ كالبرق الخاطف ، و من تلوّث بها في الجملة مرّ كعدو الفرس ، حتّى اذا ما ابتلي و تدنّس كثيراً علّق من الصراط الى جهنّم فأحاطت النار به .

انّ الإمام عليه السلام الذي يعيّن صراط الانسان و طريقة الى الله في هذه الدنيا ، و الذي له السيطرة على نفس الإنسان و ملكوته ، هو نفسه الذي سيعيّن سرعة و بطء حركة الإنسان على الصراط يوم القيامة حيث ظهور الصفات و الملكات ، و وفقاً لسرعة الانسان في حركته في الدنيا الى الله ، فانّه سيُجيزه بنفس القدر بالحركة بسرعة أو ببطء على الصراط ، امّا الأفراد الذين لم يكن لديهم اتّصال بمقام المعنى و الولاية ، و الذين

أفنوا في وجودهم روح و شرف و فضيلة الإنسانيّة ، فانّه لن يسمح لهم بالحركة ، وسيأمر جهنّم لتبتلعهم و تغمرهم .

و لأن الامام له إحاطة في الدنيا على ملكوت المؤمنين و غير المؤمنين ، فانّه سيقف هناك على مكان عالٍ و رفيع بحيث يُشرف على الجنّة و على جهنّم ، فيعيّن مكان و منزلة كلّ فرد صالح فيالجنّة ، و منزلة كلّ فاسق و منحرف طالح في النار ، و قد عبّر في القرءان الكريم عن ذلك المقام العالي بالأعراف .

وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّا بِسِيمَهُمْ [8] .

و الأعراف في اللغة لها معنيان ، الأول أعراف الحجاب و هو القسم الأعلى منه ، و الثاني أعالي الجبل و التلّ ، و كلا المعنيين مناسب هنا ، اي انّه حجاب بين أهل الجنّة و أهل النار يقف الإمام في ذروته و قمّته ، لأنّه كان في الدنيا في ذروة و قمّة الحالات الروحيّة و المعنوية ، ينظر من هناك الى وجوه و سيماء أمّته ، و يشاهد حالاتهم الروحيّة و الملكوتيّة من سيمائهم ، كما كان محيطاً على ملكوتهم في الدنيا يسيّرهم عن طريق الملكوت الى واقعيّتهم و مقصدهم ، لذلك فانّه هناك أيضاً سيجعلهم حسب واقعيّتهم و ملكوتهم في نقاط مختلفة من الجنّة أو في دركات متفاوتة في النار .

و بناءً على ما ذكرنا فقد اتّضح بحمدالله و قوّته حقيقة و سرّ ظهور جهنّم أولاً ، و ظهور الصراط ثانياً ، و مقام الإمام في الأعراف و ارتباط كيفيّة إدخال اهل جهنّم فيها بأمر الإمام ثالثاً .

فنقول الأن بأنّ الروايات التي وردت في شأن أميرالمؤمنين عن طريق الشيعة كثيرة جدّاً ، و لكن من أجل ان يتّضح ان هذه المطالب مسلّم بها عند أهل السنّة و لا يرقى اليها الشكّ ، فقد قرّرنا ان ننقل فظائله عليه السلام في الغالب من كتبهم .

يقول ابن حجر الهيتمي الشافعي : روى ابن السمّان أنّ أبابكر قال له (أي لعليّ عليه السلام) : سَمِعْتُ رسولَ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول : لاَ يَجُوزُ أَحَدٌ الصّرَاطَ إلّا مَنْ كَتَبَ لَهُ عَلِيّ الْجَوازَ [9] .

و ينقل ابن حجر قبل هذا الحديث عن سُنن الدار قطني : إنّ عَلِيّا [عليه السّلامُ] قالَ للسّتّةِ الّذين جَعَلَ عُمَرُ الأمرَ شُورَى بَيْنَهُمْ كَلاَمًا طَويلًا مِنْ جُمْلَتِهِ :

أُنْشِدُكُمْ اللهَ هَلْ فِيكُمْ أَحَدٌ قالَ لَهُ رسولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] وسلّم (يَا عَلِيّ أَنْتَ قَسِيمُ الْجَنّةِ و النّارِ يَوْمَ القِيمَةِ) غَيرِي ؟ قَالُوا : اللَهُمّ لَا .

و معناه ما رواه عنترة عن عليّ الرّضا [عليه السّلامُ] أَنّه صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم قالَ لَه : أَنْتَ قَسِيمُ الجَنّةِ وَالنّارِ فِي يَوْمِ القِيمَةِ تَقُولُ لِلنّارِ هَذَا لِي وَ هَذَا لَكِ .

فابن حجر يستشهد بكلام أميرالمؤمنين في الشورى لتأييد الرواية التي نقلها عن أبي بكر ، ثم يفّسر كلام أميرالمؤمنين بكلام الرضا عليه السلام الى عنترة .

و ينقل محبّ الدين الطبري عين هذه الرواية عن قيس بن أبي حازم ، قال :

إلْتَقَى أَبُوبَكرٍ وَ عَلِيّ بنُ أَبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهما ، فَتَبَسّمَ أَبُوبَكْرٍ فِي وَجْهِ عَلِيّ ، فَقالَ لَهُ : مَا لَكَ تَبَسّمْتَ ؟ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم يقول : لاَ يَجُوزُ أَحَدٌ الصّرَاطَ إلّا مَنْ كَتَبَ لَهُ عَلِيّ الْجَوازَ .

أخرجه ابن السمّان في كتاب (الموافقة) [10] .

كما ينقل الموفّق بن أحمد الخوارزمي في كتابه (المناقب) رواية الجواز [11] .

يقول العلّامة الميرزا نجم الدين الشريف العسكري في كتاب (مقام الامام أميرالمؤمنين عند الخلفاء) ، الصفحة الخامسة : و قد نقل الكثير من الاعلام في كتبهم هذا الحديث :

1 . ابراهيم بن محمد الحموييني الشافعي في (فرائد السمطين) ، ج 1 ، الباب الرابع و الخمسين .

2 . محبّ الدين الطبري الشافعي أيضاً في كتابه الأخر بإسم (الرياض النضرة في فضائل العترة) ج2 ،ص 173 و 177 و . 244 و قال انّ الحاكمي رواه في كتابه (الأربعين) .

3 . أورده ابن أبي عدسه في تأريخه بهذا اللفظ :

قال أبوبكر لعليّ : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول : لاَ يَجُوزُ أَحَدٌ الصّرَاطَ إلّا مَنْ كَتَبَ لَهُ عَلِيّ الْجَوازَ .

4 . الشيخ سليمان الحنفي القندوزي في (ينابيع المودّة) ، ص 86 و . 112

5 . ابن المغازلي الشافعي في كتابه (المناقب) ، كما في (غاية المرام).

6 . الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد) ، ج 3 ، ص 161 ، عن ابن عبّاس .

7 . القاضي عياض في (الشفاء) .

8 . العلّامة السيّد أبوبكر ابن شهاب الدين العلوي الحسيني الشافعي في كتاب (رشفة الصادي من بحور فضائل بني الهادي) ، ص . 459

9 . القرشي في (شمس الأخبار) .

10 . العلّامة الشيخ عبدالله الشبراوي الشافعي في (الإتحاف بحبّ الأشراف) ، ص . 25

11 . (اسعاف الراغبين) ؛ ثم يقول : و روى حديث الجواز جماعة ءاخرون عن الصحابة من غير أبي بكر ، كابن عبّاس و ابن مسعود ، و ينبغي العلم انّ جميع هؤلاء المذكورين خرّجوا هذا الحديث في كتبهم [12] .

و عند مراجعة (ينابيع المودّة) في ص 112 فانّه ينسبه الى الإمام أميرالمؤمنين و عبدالله بن عباس و عبدالله بن مسعود و أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري .

و يقول : روى الحموييني بسنده عن مالك بن أنس عن جعفر الصادق عن ءابائه عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم عن النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم قال :

إِذَا جَمَعَ اللهُ الأوّلِينَ وَ الْأَخرِينَ يَوْمَ الْقِيمَةِ نَصَبَ الصّرَاطَ عَلَى جَهَنّمْ لَمْ يَجُزْ عَنْهَا أَحَدٌ إلاّ مَنْ كَانَت مَعَهُ بَرَاةٌ بِوِلاَيَةِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

و أخرج هذا الحديث أيضاً الموفّق بن أحمد بسنده عن الحسن البصري عن ابن مسعود . و أخرجه الموفّق أيضاً بسنده عن مجاهد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما .

و اخرج هذا الحديث ايضاً ابن المغازلي بسنده عن مجاهد ، عن ابن عبّاس ؛ و عن طاوس ، عن ابن عبّاس .

و أيضاً بسنده عن أنس بن مالك ، و بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم .

و في الصفحة 86 و في ص 113 ، فقد رواه عن ابن مسعود بمتن ءاخر عن الموفّق بن احمد ، باسناده عن الحسن البصري ، عن ابن مسعود .

قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : إذَا كَانَ يَوم الْقِيمَةِ يَقْعُدُ عَلِيّ عَلَى الْفِردُوسِ ، وَ هُوَ جَبَلٌ قَدْ عَلاَ عَلى الْجَنّةِ وَ فَوْقَهُ عَرْشُ رَبّ الْعَالَمِينَ ، وَ مِنْ سَفْحِهِ تَتَفَجّرُ أَنْهَارُ الْجَنّةِ وَ تَتَفَرّقُ فِي الجِنَانِ ، وَ

عَلِيّ جَالِسٌ عَلَى كُرسِيّ مِن نُورٍ ، يَجْرِي بَيْنَ يَدَيْهِ التّسْنِيمُ ، لاَ يَجُوَزُ أَحَدٌ الصّرَاطَ إلّا وَ مَعَهُ سَنَدٌ بِوِلاَيَةِ عَلِيّ وَ وَلاَيَةِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَيُدْخِلُ مُحِبّيهِ الْجَنّةَ وَ مُبْغِضِيهِ كالنّارَ .

كما ينقل الخوارزمي هذه الرواية بهذا المضمون في مقتله (طبع النجف ، ج ا ، ص 39) .

بلى ، يبيّن هذا الحديث مقام أميرالمؤمنين في الأعراف ، و أنّ هذا المقام في ءاخر درجات الفرق الذي يبدأ منه عالم الكثرة ، يعني في حقيقة الولاية التي هي الحجاب الأقرب ، و من الأعراف يجري نهر التسنيم في الجنّة . و هذا النهر ينبع من الولاية ، و تجري فروعه في قلوب الشيعة ، كما يجري في جنانهم في ذلك العالم من ظهور الملكوت .

و أميرالمؤمنين عليه السلام الذي هو حقيقة الولاية ، يعيّن مقامات أهل الجنّة حسب ميزان جريان التسنيم ، فيعبرون الصراط و يصلون الى منازلهم ، كما يعيّن في النار أماكن الذين لا يؤمنون بالولاية .

يقول ابن شهرءاشوب : روى ابن عبّاس و أنس عن النبّي الأكرم صلّى الله عليه و ءاله :

قَالَ : إذَا كَانَ يَومَ الْقِيَامَة ، وَ نُصِبَ الصّرَاطُ عَلَى جَهَنّمَ ، لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِ إلّا مَنْ مَعَهُ جَوَازٌ فِيهِ وَلاَيَةُ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

وَقِفُوهُمْ إِنّهُمْ مَسؤُلُونَ (13) .

و يقول أيضاً : و يروي والدي شهرءاشوب باسناده عن رسول الله صلّى الله عليه و ءاله قال :

لِكُلّ شَيْءٍ جَوَازٌ ، وَ جَوَازُ الصّرَاطِ حُبّ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (14) .

و يروي أيضاً في تأريخ الخطيب ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن طاووس ، عن ابن عبّاس قال :

قُلتُ للنَبِيّ : يَا رَسولَ اللهِ ! لِلنّاسِ جَوَازٌ ؟ قالَ : نَعَم ؟

قُلْتُ : وَ مَا هُوَ ؟ قالَ : حُبّ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .3

و في حديث وكيع ، قال أبوسعيد : يَا رَسُولَ اللهِ ! مَا مَعْنَى بَراةُ عَلِيّ ؟

قالَ : لاَ إلَهَ إلّا اللهُ ، مُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ ، عَلِيّ وَلِيّ اللهِ (15) .

و سأل النبّيُ الاكرمُ من جبرئيل : كَيفَ تَجُوزُ أُمّتِي الصّرَاطَ ؟ فَمَضَى وَعَادَ وَ قَالَ : إنّ اللهَ تَعَالَى يَقْرَئُكَ السّلامَ و يقول : إنّكَ تَجُوزُ الصّراطَ بِنُوري ، وَعَلِيّ بنُ أَبِي طَالِبٍ يَجُوزُ الصّرَاطَ بِنُورِكَ ، وَ أُمّتُكَ تَجُوزُ الصّرَاطَ بِنُورِ عَلِيّ ، فَنُورُ أُمّتِكَ مِنْ نُورِ عَلِيّ ، وَ نُورُ عَلِيّ مِنْ نُورِكَ ، وَنُورُكَ مِنْ نُورِ اللهِ (16) .

و ورد في الخبر : وَ هُوَ الصّرَاطُ الّذِي يَقِفُ عَلَى يَمِينِهِ رَسُولُ اللهِ ، وَ عَلَى شِمَالِهِ أَمِيرُالمؤمنينَ ، وَ يَأْتِيهِمَا النّدَاءُ مِنَ اللهِ : أَلْقِيَا فِي جَهَنّمَ كُلّ كَفّارٍ عَنِيدٍ (17) .

و روى الحسن البصري في خبر ءاخر عن عبدالله ، عن رسول الله قال :

وَ هُوَ جَالِسٌ عَلَى كُرسِيّ مِن نُورٍ . يَعْنِي عَلِيّاً . يَجْرِي بَيْنَ يَدَيْهِ التّسْنِيمُ ، لاَ يَجُوزُ أَحَدٌ الصّرَاطَ إلّا وَ مَعَهُ بَراةٌ بِوِلاَيَتِهِ وَ وَلاَيَةِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، يُشْرِفُ عَلَى الْجَنّةِ وَ يُدْخِلُ مُحِبّيهِ الْجَنّةَ وَ مُبْغِضِيهِ النّارَ (18) .

و ما أجمل قول شاعر أهل البيت السيد اسماعيل بن محمد الحميري حين يقول :

قَوْلُ عَلِيّ لِحَارِثٍ عَجَبٌ

كَمْ ثَمّ أُعْجُوبَةً لَهُ حَمَلَا

يَا حَارِ (19) هَمْدَانَ مَنْ يَمُتْ يَرَنِي

مِنْ مُؤمِنٍ كانَ أَوْ مُنَافِقٍ قَبَلَا (20)

يَعْرِفُنِي طَرْفُهُ وَ أَعْرِفُهُ
بِعَيْنِهِ [21] وَاسْمِهِ وَ مَا فَعَلَا
وَ أَنْتَ عِنْدَ الصّرَاطِ تَعْرِفُنِي
فَلاَ تَخَف عَثْرَةً وَ لاَ زَلَلَا
أَسْقِيكَ مِنْ بَارِدٍ عَلَى ظَمَأً
تَخَالُهُ فِي الْحَلاَوَةِ الْعَسَلَا
أَقُولُ لِلنّارِ حِينَ تُوقَفُ لِلْعَرْ
ضِ عَلَى جسرِهَا ذَرِي الرّجُلَا
ذَرِيه لَا تَقْرَبِيهِ إنّ لَهُ
حَبْلاً بِحَبْلِ الوَحْيِ [22] مُتّصِلَا
هَذَا لَنَا شِيعَةٌ وَ شِيعَتُنَا
أَعْطَانِيَ اللهُ فِيهِمُ الأَمَلَا [23]

يخاطب أميرالمؤمنين بهذا الكلام الحارث الهمداني .

يروي ابن شهرءاشوب عن (الأمالي) للطوسي ، باسناده عن الحارث الهمداني عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و ءاله :

إذَا كَانَ يَومَ الْقِيمَةِ أَخَذتُ بِحُجزَةٍ مِن ذِي الْعَرشِ ، وَ أَخَذتَ أَنْتَ يَا عَلِيّ بِحُجزَتِي ، وَ أَخَذَت ذُرّيّتُكَ بِحُجْزَتِكَ ، وَ أَخَذَتْ شَيعَتُكُمْ بِحُجْزَتِكُمْ ، فمَاذا يَصْنَعُ اللهُ بِنَبِيّهِ ؟ وَ مَاذَا يَصْنَعُ نَبِيّهُ بِوَصِيّه ؟ الى أن قال [عليّ عليه السلام] : خُذْهَا إلَيْكَ يَا حَارُ قَصِيرَةً مِن طَوِيلَةٍ [24] ، أَنتَ و مَن أَحبَبتَ وَ لَكَ مَا اكْتَسَبْتَ [25] .

و لقد جاهد الحارث الهمداني (بسكون الميم) و قومه من قبيلة همدان في اليمن ، في يوم صفّين جهاداً كبيراً و حاموا عن دين الله و عن إمامهم ، و واجهوا المشاقّ و المحن و الشدائد ، حتّى قال أميرالمؤمنين فيهم :

فَلَو كُنتُ بَوّابَاً عَلَى بَابِ جَنّةٍ
لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ادْخُلِي بِسَلاَمِ [26]

و يقول السيّد الحميري :

وَ لَدَى الصّراطِ تَرَى عَلِيّاً وَاقِفَاً
يَدْعُو إلَيْهِ وَلِيّهُ الْمَنْصُورَا
اللهُ أَعْطى ذَا عَلِيّاً كُلّهُ
وَ عَطَاءُ رَبّكَ لَمْ يَكُنْ مَحْظُورَا [27]

تعليقات:

1) الأية 71 و 72 ، من السورة 17 : الإسراء .

2) الصواعق المحرقة) ، ص 78 ، طبع مصر نقلاً عن كتاب (مقام الامام أميرالمؤمنين عند الخلفاء) للعلّامة الميرزا نجم الدين الشريف العسكري ، ص 3 ؛ و (مناقب الخوارزمي) ، ص . 222

3) الأية 71 و 72 ، من السورة 19 : مريم .

4) التعبير مُترجم و ليس نصّ كلامه صلوات الله عليه و ءاله (م) .

5) تفسير مجمع البيان) ، ج 3 ، ص . 525

6) تفسير الصافي) ، ج 1 ، ص . 54

7) الأية 46 ، من السورة 7 : الأعراف .

8) الصواعق المحرقة) ، طبع مصر ، ص 78 ، نقلاً عن كتاب (مقام الإمام اميرالمؤمنين) ، ص . 3

9) ذخائر العقبى) ، ص . 71

10) مناقب الخوارزمي) ، ص . 222

11) مقام الامام أميرالمؤمنين) ، ص . 6

14.13.12) (المناقب ابن شهرءاشوب) ، ج 1 ، ص 346 ، الطبعة الحجريّة .

16.15) (المناقب ابن شهرءاشوب) ، ج 1 ، ص 346 ، الطبعة الحجريّة .

18.17) (المناقب) ، ج1 ، ص . 346

19) يا حارُ ، يا حارِ ، الأصحّ و الأشهر في المنادى المرخّم ان تُترك حركة الحرف الأخر الباقي على حالها الأول ، و بالطبع فانّ الكثير يَرون انّ حركة الحرف المحذوف يجب ان تُنقل الى الحرف الذي قبله .

20) رأيتُهُ قُبُلاً و قَبلاً و قَبِيلاً وَ قَبَلِياً : أي عَيانًا و مُقابلةً . و لقد وُضعت احتمالات في ضبط كلمة (قَبَل) لا يناسب معنى أيّ منها المقامَ ، و ما يبدو في نظر الحقير انّها فعل ماض بفتح القاف و فتح أو كسر الباء ؛ و ذلك لأنّ أحد معاني قَبَل و قَبِلَ أن يكون قَبَل في العينين ، و القَبَل في العينين عبارة عن اقبال نظر كلّ من العينين الى الأخرى ، و هو ما يدعى بالحَوَل في العينين و رؤية الشيء شيئين ، و لازم الحول الغرور و العُجب ، حيث تحاول العيون على الدوام النظر الى نفسها ، و هذا المعنى من آثار النفاق الذي عدّه المولى اميرالمؤمنين عليه السلام هنا من صفات المنافق .

كما ورد في اللغة ان رأيته قُبُلا أي عياناً و مقابلة ؛ و على ذلك فانّ من الممكن ان تكون الكلمة هنا بضمّ القاف و الباء ، اي : مَن يَمُتْ يَرَني قُبُلا ؛ و هو احتمال مقبول أيضاً . و ربّما كان أقرب من الاحتمال الأوّل .

قال في (المنجد) : رأَيتُهُ قُبُلاً و قَبَلاً و قُبَلاً و قِبَلاً و قَبيلاً و قَبَلِيّا أي عياناً و مقابلةً . وبذلك فانّ من الممكن قراءة شعر الحميري على أربعة أشكال من القراءة .

21) ورد في (مناقب ابن شهرءاشوب) بلفظ (بِنَعْتِهِ) .

22) جاءت في (ديوان الحميري) بلفظ (حبل الوحي) ، لكن الأظهر أنها (بحبل الوصيّ) .

23) (ديوان الحميري) ، ص 327 و 328 ؛ و أورد أصله عن (أعيان الشيعة) ، ج 12 ، ص 263 ، و (كشف الغمّة) ، ص 124 ، و (المناقب) ، ج 3 ، ص 237 ، و (شرح نهج البلاغة) ، ج 1 ، ص . 299

24) من الأمثال ، و القصيرة هي التمرة و الطويلة : النخلة . م.

26.25) تعليقة (ديوان الحميري) ، ص 326 و 327 على الترتيب .

27) ديوان السيّد) ، ص 212 ؛ و أورد أصله عن (أعيان الشيعة) و (المناقب) .

27) ديوان السيّد) ، ص 212 ؛ و أورد أصله عن (أعيان الشيعة) و (المناقب) .

الدرس العاشر: لزوم الإمام الحيّ لتمتّع القلوب

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدّين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ وَ إِقَامَ الصّلَوَ ةِ وَ إِيتَآءَ الزّكَوةِ وَ كَانُوا لَنَا عَبِدِينَ (1) .

أصل العليّة و المعلوليّة:

انّ كلّ واحد من الموجودات التي تُشاهد في العالم له أصل و علّة يستند في نشأته اليها ، كما انّ التغيّرات و التبدّلات التي تحصل فيها لها عللها هي الأخرى .

فلو ضربنا زجاجةً بحجر لانكسرت ، و لو أجرينا ماءً في جدول لجرى الماء الى حيث ما أمكن له ، و لبلّ النقاط التي يلامسها ، حتّى انّ الماء يجري في خُلل الجبال و شقوقها ما وجد الى ذلك سبيلاً .

و هذا هو أصلٌ عام في النشوء و في التغيّرات المشهودة في موجودات العالم .

تأثير المجالسة فيالإنسان:

كما انّ أخلاق و ملكات و عقائد و روحيّات بني الإنسان ليست مستثناةً من هذا الأصل العام ، فقد ثبت بالتجربة انّ معاشرة الأبرار تؤثر على الإنسان ، و انّ المعاشرة مع الأشرار تؤثر عليه هي الأخرى ، و ما أكثر ما حصل أن يصاحب شخصٌ ذو فطرة طيبة و أعمال صالحة أصدقاءَ السوء فتلاشى صفاؤه الباطني ، و أظلم قلبه و اختنقت روحه .

و على العكس من ذلك ، فما أكثر ما حصل انّ شخصاً ذا سيرة سيّئة غيرّ اسلوبه و نهجه إثر معاشرته لشخص طيّب ، فصلُحت نيّته تدريجاً ، وتبعتها أفعالُه فصارت صالحةً حسنة حميدة .

لذا ورد التأكيد كثيراً في التعاليم الإسلاميّة على مصاحبة الأبرار والمنع من الأُنس بالأشرار و التوادّ معهم ، حتى انّ جلسةً واحدة قد تؤثّر على الانسان و لو أمضاها بالسكوت او المذاكرة ، لأن تأثير الأرواح لا يحتاج الى مذاكرة ، و انّما الأرواح المؤتلفة تميل الى بعضها و تبتادل التأثير مع بعضها .

و من أجل أن يستطيع الإنسان تغيير أخلاقه و صفاته الى اخلاق وصفات الإنسان الكامل ، فانّ عليه أن يعرّف قلبه و روحه على أصل و علّة الأخلاق و الصفات الحسنة ، لتؤثّر تلك المحامد في الإنسان بواسطة الاتّصال . و عليه أن يصل مركز قلبه بمنبع العلم و المعرفة و الحياة ، ليحصل منه على العلم و المعرفة و الحياة قدر سعته و استعداده و قابليّته .

و كما انّ هناك في شبكة المياه في المدن مخزناً عظيماً للماء متّصل بعدد كبير من البيوت ، بحيث يصل اليها الماء حسب ظروفها و قابليّاتها ، فكذلك الأمر في علّة و منبع الحياة و المعرفة الذي يجب ان يروي و

يُشبع القلوب بواسطة التسليم و الانقياد و الاتباع و الخضوع ، بقدر سعة تلك القلوب و ظرفيّتها .

و لهذا الموضوع أمران ضروريّان :

الأول : وجود ذلك الأصل و العلّة ، أي مبدأ إفاضة العلم و الحياة .

و الثاني : التسليم و التلقّي و الخضوع ؛ ليمكن لتلك العلّة ان تؤدّي وظيفتها ، لأنّ التسليم له حكم الشروط لتلقّي العلم و المعارف ، و معتبر من المقدّمات المُعِدّة .

قلب الإمام مركز إفاضة العلوم:

مبدأ إفاضة العلم هو قلب الامام الذي يفيض . بواسطة السيطرة على ملكوت الموجودات . على كلّ موجود بقدر قابليّته و استعداده : وَ جَعَلْنَهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (2) .

و الهداية بأمر الله هي هداية أفراد البشر عن طريق ملكوتهم ونفوسهم .

و لذا يجب ان يكون فيالعالم و على الدوام إمامٌ حيّ ، و قد استفدنا من الأية : يَوْمَ نَدْعُوا كُلّ أُنَاسٍ بِإِمَمِهِمْ (3) .

انّ الإمام موجود في كلّ زمان ، يُدعى بواسطته أفراد البشر واحداً فواحداً ؛ و هذا أمر مسلّم و صحيح تستند عليه جميع أديان العالم و مذاهبه ، و يعتمد عليه الدين الاسلامي الذي يعتبر تعيين الإمام للمجتمع من قبل الله ، و يعرّفه بأنّه صاحب القلب و المحيط بالملكوت و المعصوم عن الخطايا و المعاصي . كما انّ الشيعة قد استفادوا هذا الأمر على أساس تعاليم الاسلام ، فقد جعلوا سيرتهم على واقع و حقيقة التعاليم الاسلاميّة ، امّا أهل السنّة الذين لا يُراعون هذا الأمر ، فانّ أيديهم قاصرة عن إدراك منبع الحياة و العلم ، و كما أُشير سابقاً فانّهم لا يستفيدون من الإسلام بالمعنى الحقيقيّ .

و على هذا الأصل القائل بالحاجة الى الإمام الحيّ بعد رسول الله صلّى الله عليه و ءاله ، و هو الوجود المقدّس لأميرالمؤمنين عليه السلام ، فانّ ذلك من أجل أن يصل جميع أفراد البشر بواسطة ذلك القلب الحيّ الواعي في عالم الجمع الى الإفادة من حياتهم و علومهم ، و إلّا فانّه اذا كفى مجرّد العمل بنداء (كفانا كتاب الله) ، لزحف كلّ امرىء فانزوى في زاوية النفس و خرائبها المظلمة ، و لما أمكنه أن يتخطّى نفسه و هواه الى ءاخر عمره ، وذلك لأن الإمام هو الملقي للمعارف القرءانيّة الى قلب الانسان ، و بدونه فانّ الإنسان الأعمى المهووس بالشهوات المنغمر في اللذّات سيفسّر ويؤوّل الأيات القرءانيّة لخدمة أغراضه و نواياه ، و مهما عمل فانّ عمله لن يتعدّى دائرة ميوله و رغباته النفسانيّة . و مثل هذا القرءان بدون الروح الحيّة العميقة الإدراك للإمام لاَ يَزِيدُهم مِنَ اللهِ إلّا بُعْدًا .

الشيعة تعتبر أساس تعاليم الإسلام قائم على الإمامة

تقول الشيعة انّ أساس تعاليم الاسلام قائمة على الإمامة ، ففي زمن رسول الله كان صلّى الله عليه و ءاله هو الإمام ، و كان يفيض المعارف على قلوب الأمّة بقلبه اليقظ منبع علوم فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَآ أَوْحَى (4) ، ثمّ جرى ذلك بعده ؛ بواسطة الأئمة الأطهار الواحد بعد الأخر ، وصولاً الى حضرة بقيّة الله الأعظم عجّل الله تعالى فَرَجه الشريف ؛ ريّ كلّ قلب بقدر سعته من قبل مراكز الحياة و المعرفة تلك .

أمّا الموضوع الأخر و هو التسليم و الخضوع و الاتّباع للإمام ، الذي يُعدّ القلوب لتلقّي و اكتساب المعارف و العلوم ، فهذه الخصوصيّة موجودة لدى الشيعة ، لذا يُشاهد أنّ الشيعة يفوقون العامّة بقدر ملحوظ في صفات المحبّة والوفاء والصفاء والإنفاق والإيثار وقضاء حوائج الناس وفي رقّة القلب والعاطفة ونظائرها من الصفات الحميدة ، وهذا ناجم عن روح التسليم و الخضوع مقابل معلّم البشريّة و مبدأ التعليم و التربية ، سواءً كان الإمام حاضراً أو غائباً ، لأنّ تأثير و تأثّر الأرواح لا حاجة له كثيراً الى الحضور ، لأنّه ليس مادّه ليشترط لتأثيرها في مادّه أخرى القُرب المكاني والتماسّ الخارجي ، بل هو تأثير فعليّة النفس الفعّالة في قابليّات النفوس المستعدّة .

ولأنّ عالم الملكوت خارج عن الزمان و المكان ، لذا يمكن أن نجد تأثير فعليّة الأثار الحياتيّة للإمام في كلّ قلب ، فإن كان الإمام في مشرق العالم و كان تابعه في المغرب ، فانّ قلب التابع مع ذلك سيحصل على استفادته ، كما انّ الانسان . على اثر محبّته لولده . في ذكره دوماً ، سواءً كان ولده قربه أو مسافراً بعيداً عنه ، فصورة الولد لا تفارقه بل مطبوعة في قلبه . و كذلك اذا ما وجدت تجليّات الإمام في قلب المؤمن أينما كان ذلك المؤمن ، فانّه سوف يستمدّ ماء الحياة من ذلك المعدن اللامتناهي اثر انعكاس الصورة الحقّة .

لذا فانّ الشيعة يفيدون . و لو في زمن الغيبة . من ذلك المركز للعلم والمعرفة ، بسبب التفاتهم الكامل الى مصدر الخيرات و العلوم ، مع انّه لاشك هناك و لا ريب في انّ أثر حضور الإمام و فوائده أكثر و أوفر ؛ خلافاً لغير الشيعة الذين لا ترتبط قلوبهم بهذا المعدن ، لذا فانّ نفوسهم حائرة متردّدة ليس لها الى الخروج عن ذواتها من سبيل .

الشيعة يمتلكون اللطف و الرقّة و المداراة:

يقول ابن أبي الحديد بعد أن يذكر قدراً من صفات أميرالمؤمنين عليه السلام :

وَ قَدْ بَقِيَ هَذا الخُلُقُ مُتَوارَثاً مُتَناقَلاً فِي مُحِبّيهِ وَ أوليائِهِ إلى الآن ، كما بَقِيَ الجَفَاءُ و الخُشونَةُ و الوُعُورَةُ فِي الجَانبِ الآخرِ ، و مَن لَهُ أَدْنى مَعرفَةٌ بِأخلاقِ النّاسِ و عَوَائِدِهِمْ يَعْرفُ ذَلكَ [5] .

انّ المعارف و العلوم الالهيّة تجري في قلوب اتباع الإمام اثر اتّصال قلوبهم بقلبه ، كما انّ السبب في انّ للمؤمنين أنهاراً من ماء زلال في الجنّة يعود الى تأثير ذلك الإتصّال القلبّي و الإفادة من نبع فضائل الأئمة . و نرى كثيراً في القرءان الكريم أنّ الله تعالى يعد المؤمنين جَنّتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَرُ مثل :

إِنّ اللهَ يُدْخِلُ الّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا الصّلِحَتِ جَنّتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَرُ [6] .

الجنّة تجلّي الصفات و الأفعال:

و كما ذكرنا فانّ الجنّة هي ظهور و بروز عالم نفس المؤمن في الأخرة ، و لأنّ نفس المؤمن قد نجت ، بسبب الاطمئنان بالله و بالسكينة التي حصلت عليها ، من حرارة ولسع اليأس و الفشل و من طوفان خواطر الشيطان و الاضطرابات الفكريّة و الأخلاقيّة ، فهم مسرورون فرحون في رحمة الله و مقام أمنه و أمانه ، فقد عشقوا الله بنشاط و لذّة كاملين حتّى في أدقّ لحظات سكرات الموت ، فهم في سكينة و اطمئنان ، لذا فعندما يظهر ملكوت الأشياء في الأخرة ، فانّ ملكوت نفس المؤمن سيكون بصورة جنّة متشابكة الأشجار ، تشابكت

فيها فروع الأعمال الصالحة و أوراقها ، فألقت ظلالها على الأرض ، فلا مجال هناك لأشعّة الشمس اللاهبة و لا لطوفان الحوادث أو غبار الخيالات و الخواطر الشيطانيّة .

سواءً اعتبرنا انّ الجنّة من جهة تجسّم أعمال المؤمن و ظهور ملكوت النفس المؤمنة ، أو بعنوان الجزاء المترتّب على العمل ، فانّ النتيجة ستكون واحدة . يشهد على هذا المعنى خطاب الله تعالى الى ءادم أبي البشر قبل وروده في هذه النشأة :

فَقُلْنَا يَاَدَمُ إِنّ هَذَا عَدُوّ لّكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَى إِنّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَاتَعْرَى وَ أَنّكَ لَاتَظْمَؤُا فِيهَا وَ لَا تَضْحَى (7) .

فقد خاطب الله ءادم : انّ هذه الجنّة لا خواطر نفسانيّة فيها و لا اضطرابات للخيال والقوى الواهمة ، هناك حيث لا تجوع و لا تعرى ، و لا تظمأ و لا تضحى بحرارة الشمس ، فالجوع و العُري و الحرارة و الانصهار كلّها من أثر تسلّط النفس الأمّارة بالسوء على الإنسان ، أمّا في الجنّة حيث قلب الإنسان مطمئنّ هادئ بعيد عن الخواطر و الانفعالات ، هناك حيث الاستقرار و الاستراحة فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيْكٍ مّقْتَدِرٍ (8) .

فالذين يغادرون الدنيا الى الله بالإيمان و الأعمال الصالحة هم الذين يدخلون الجنّة و يتمتّعون فيها تحت ظلال الأشجار المتكاثفة .

الأنهار الجارية في الجنّة:

و امّا الأنهار الجارية في الجنّة ، فهي العلوم و المعارف التي أوجبت حياة القلب ، و ذلك لأن المؤمنين كانوا قد رووا قلوبهم بالعلم و المعرفة والإقرار بوحدانيّة الله و أسماء ذاته المقدّسة ، و بالإقرار بحقّانيّة الإمام والنبيّ ، فانّ ظهور هذه العلوم التي هي حياة القلوب سيكون هناك في هيئة أنهار ماء . و سيكون لجميع الذين عملوا الصالحات . و من جملتها الإقرار بإمام زمانهم . امتلاك هذه الأنهار ، بل يمكن اعتبار مقياس فصل الأعمال الصالحة عن غير الصالحة هو مصادقة الإمام عليها أو عدمها ، فكلّ فعل أَمَرَ به الإمام صالحٌ ، و كلّ ما نهى عنه سيكون غير صالح ، و ذلك لأنّ نظر الإمام يمثّل النظرة الواقعيّة و الحقيقيّة ، و لذلك فانّ تخطّي كلام الإمام يمثّل انحرافاً عن متن الواقع و حقيقة نفس الأمر .

امّا الذين لم يوكلوا قلوبهم للإمام ، و لم يستفيدوا من ذلك المنبع الفيّاض ، فانّ قلوبهم ستبقى يابسة لا طراوة لها و لا محبّة و لا صفاء و لا معرفة ، كالقربة اليابسة العتيقة البالية ، قد فقدت مرونتها و سعتها ، لذا فانّ ماء اولئكم هو الحرمان و الحسرة و الندم الذي سيصبّ في أفواههم على هيئة الفلز المصهور .

مَثَلُ الْجَنّةِ الّتِي وُعِدَ الْمُتّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مّن مّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَ أَنْهَرٌ مّنْ لّبَنٍ لّمْ يَتَغَيّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَرٌ مّنْ خَمْرٍ لّذّةٍ لّلشّرِبِينَ وَ أَنْهَرٌ مّنْ عَسَلٍ مّصَفّى وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلّ الثّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مّنْ رّبّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النّارِ وَ سُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطّعَ أَمْعَآءَهُمْ (9) .

أنهار الجنّة الأربعة:

ذكر الله سبحانه في هذه الأية المباركة أربعة أنهار ، أوّلها أنهار الماء الزلال غير الأسن ، لأن الماء في عالم الطبيعة هو حياة الموجودات :

وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلّ شَىءٍ حَيّ (10) .

أنهار الماء : و حياة القلوب بالعلم و معرفة الله ، لذا فانّ أنهار العلم والمعرفة الجارية في القلوب ستتجلّى هناك في هيئة أنهار ظاهرة صافية من ماء زلال غير ءاسن ، و المراد بالأنهار أصناف و أنواع المعارف و العلوم الحقّة و الحقيقيّة التي تناط بها حياة القلوب و تروى بها غرائز الإنسان ، والمراد بغير الأسن غير المتعفّن و غير المتغيّر ، اي عدم تغيّر تلك العلوم بأوهام و شكوك و عادات باطلة و سنن ضالّة و اعتقادات فاسدة .

و هذا النهر مختصّ بالذين وصلوا في طريق الله الى مقام القلب ، واستفادوا من العلوم الالهيّة الحقّة دون أي تدخّل للنفس لتغييرها .

انهار من لبن : و النوع الثاني هو الأنهار من اللبن الذي لم يتغيّر طعمه ، و هذه الأنهار هي ظهور و بروز العلوم التي كانت مفيدة للمبتدئين في الطريق الى الله ، لأنّ اللبن طعام الطفل ، و العلوم التي تتعلّق بالأفعال والأخلاق كعلوم الشرائع و الحكمة العمليّة باعتبارها مقدّمة للعمل و تزكية النفس ، لذا فانّ ظهور هذه الأنهار مختصّ بالضعفاء المستعدّين للسير في منازل النفس و الذين لهم قابلية الوصول الى مقام القلب بسبب الابتعاد عن المعاصي و الأخلاق الرذيلة ، الاّ انّهم لم يصلوا بعدُ الى ذلك المقام ، فهم بتعلّمهم المقدّمات من علوم الشرائع و الأخلاق و بالعمل بها في صدد تقوية بُنيتهم الروحية . كما انّ عدم تغيّر طعم هذه الأنهار إشارة الى عدم تلوّث هذه العلوم بالنوايا الفاسدة و الأهواء و البدع الباطلة و الأعمال و العصبيّات الجاهليّة التي تُسقط هذه العلوم عن خاصيّتها و فضيلتها ، و تحوّلها الى سمّ مهلك .

أنهار الخمر : و النوع الثالث من الأنهار أنهارٌ من خمر لذّة للشاربين ، فالخمر في الدنيا مع انّ مادّتها خبيثة و نكهتها مُقرفة و طعمها ردىء ، لأنّها تخدّر العقول و تسقطها من الإحساس و الإدراك ، و تهوي بالانسان الى مصافّ البهائم ، لكن خمر الأخرة جذباتٌ الهيّة تظهر اثر تجليّات الصفات و الأسماء في القلب ، فتحيّر العقول و تبهتها بحيث يسقط العقل المفكّر في العواقب و المصالح عند مشاهدة تلك الاسماء الكليّة و الصفات الالهيّة غير المحدودة و ينسى كليّاً مراتب الوجود .

و لأنّها تمتلك هذه الخاصيّة فقد عُبّر عنها بالخمر ، لكّن هذه الخمر ترفع الانسان من مرتبة العقل و تهديه الى مرتبة أعلى و هي الشهود والقلب .

و على ذلك فانّ انهار الخمر هي ظهور أصناف و أنواع محبّة صفات و ذات الله التي جعلها الله سبحانه للشاربين ، و هم الكاملين الواصلين الى درجة الشهود ، و الذين صار لديهم القابليّة لمشاهدة حسن تجليّات الصفات و شهود جمال الذات ، و صاروا مولّهين بالجمال المطلق للحضرة الربوبيّة لا إدراك لهم بسببه ، و وصلوا الى مقام الروح و استغرقوا في الأنوار الالهيّة ، و ستوجب لهم اللذة و البهجة و السرور و الحبور .

أنهار من عسل مصفّى : و النوع الرابع من هذه الأنهار هي أنهار من عسل مصفّى لا يُرى فيها شىء من الشمع و الخبث و المواد القذرة . و لأنّ العسل له حلاوة زائدة ، فانّ تلك الحلاوة التي هي من واردات عالم القدس و البوارق النورانيّة ، و اللذات التي توجد في حالات مختلفة للمتوسّطين في طريق الله ، و تعيدهم الى الله بالذوق والوجد و التوجّه ، و توجّههم الى كمالاتهم ، فانّها تظهر هناك في هيئة أنهار من عسل مصفّى خالٍ من الشوائب و الأكدار و تدخّلات النفس و تسويلاتها ، و هذا بالطبع مختصّ بالأفراد الذين هم في مقام ذوق تلك الجذبات ، و الذين لم يصلوا بعدُ الى مرحلة السكر اثر مشاهدة التجلّيات .

و بناءً على ما سبق فانّ أنهار اللبن هي العلوم لدى المبتدئين والضعفاء من سالكي طريق الله ، و أنهار العسل مختصّة بالافراد المتوسّطين المشغولين بملاحظة الجذبات الالهية و مشاهدة الصفات ، وأنهار الخمر

مختصّة بالأفراد الذين نسوا وجودهم بسبب تجلّيات الجمال و عشق تلك الذات الأزليّة فامّحوا في أنوارها .

و المراد بالأية الشريفة : وَ سَقَبهُمْ رَبّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (11) ، الشراب الذي يطهّرهم و يزكّيهم من جميع التعلّقات الدنيويّة من المال و الولد و العيال والجاه و الاعتبار ، و يرفع نفس الشارب عن هذه المراحل .

ثمّ انّ أنهار الماء الزلال غير الأسن و غير المتغيّر مختصّة بالذين وصلوا الى مرحلة القلب ، و الذين طلعت و أشرقت في قلوبهم جميع أنواع العلوم و المعارف الالهيّة بدون تدخّل النفس و زيغ الأهواء .

امّا الافراد المتوسّطون الذين يمّحون بجمال الله اثر تجلّيات صفاته ومشاهدة أسمائه ، فيعمدون الى خلط قدر من نهر الزنجبيل . و هو مادّة تبعث الحرارة . في كؤوس شرابهم ليبقى طلبهم و عشقهم حيّاً على الدوام ولكي تبقى الحرارة موجودة فيهم بقدرٍ كاف .

وَ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمّى سَلْسَبِيلًا (12) .

و الزنجبيل نهر يسمّى بالسلسبيل ، فهو من فرط حُسن مذاقه يمنح الشاربين حرارة الطّلب ، و بالطبع فلأنّ هؤلاء لم يصل اشتياقهم و عشقهم الى الذروة ، فانّهم لذلك لا يُسقون من الزنجبيل الخالص ، بل يمزجون في كأسهم من نهر الزنجبيل فيسقونهم منها ؛ و لأنّهم لايزالون مشتاقين للسير في الصفات ، فانّ محبّتهم لذلك لم تصفُ عن لذّة حرارة الطلب ، فهم يهدأون و يسكنون أحياناً من واردات و تجلّيات الجمال ، لذا يُصبّ في كأسهم من عين الكافور ، و الكافور شراب بارد معطّر يبعث على السكون والارتياح .

إِنّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجّرُونَهَا تَفْجِيرًا (13) .

و لأنّهم لم يصلوا الى مقام الجمع ، و لم يستغرقوا في عين جمع الذات ، لذلك فليس لهم ذلك السكون المطلق و ذلك الهدوء من جميع الجهات ، و انّما السكون للذين وصلوا الى مرحلة العبوديّة المطلقة وأصبحوا من عبادالله ، فاولئك من المقرّبين و يسقون من أصل عين الكافور ، بالإضافة الى انّهم يُجرون من تلك العين في قلب كلّ من له قابليّة و استعداد ، و يصبّون منها في كأس كلّ فرد حسب قابليّته .

و على كلّ حال فانّ عين الكافور هذه هي نفسها عين التسنيم المختصّة هي الاخرى بالمقرّبين ، لكنّهم يصبّون قدراً منها في كأس الأبرار .

إِنّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رّحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِى ذَ لِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَ مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرّبُونَ (14) .

انّ الأبرار يشربون من شراب مختوم ، ختامه طيّب و طاهر ، هي قوانين الشرع المقدس التي ملأوا بها ءانية الشراب و صانوها عن تلاعب الشيطان ، فهم يصبّون قدراً من نهر التسنيم في ذلك الشراب الصافي ويقدّمونه للأبرار ، لكنّ المقربين يُسقون من نفس عين التسنيم الجارية من أعلى نقاط الجنّة .

عين التسنيم تجري تحت أقدام أميرالمؤمنين:

انّ المستقرّ على الأعراف ، الذي يجري التسنيم تحت أقدامه ، هو مولى الموالي أميرالمؤمنين صاحب مقام الولاية الكبرى ، ذلك الذي يشرب جميع المقرّبين من العين الجارية تحت أقدامه .

كما انّ نهر التسنيم يستمدّ مائه من قلب أميرالمؤمنين عليه السلام فيسقي المقرّبين ، ثمّ يرد في حوض الكوثر . ثم انّ جميع أنواع تلك العلوم التي ذكرناها من التسنيم و الكافور و الزنجبيل و الخمر الصافي و أنهار

اللبن و الماء غير الأسن و أنهار العسل تنبع كلّها من مقام الولاية ، أي العلم المطلق ، فتجري الى قلوب الشيعة و الموالين أينما كانوا و حيثما حلّوا ، فتروي كلّ واحد من الناس بدوره حسب قابليّته و ظرفيّته .

ساقي حوض الكوثر:

وردت كثير من الروايات المستفيضة عن الأئمة سلام الله عليهم في أنّ ساقي حوض الكوثر هو أميرالمؤمنين عليه السلام ، فهو يسقي مواليه بالأقداح التي توزّعت على جوانب الحوض ، و يذود عن الحوض بالعصا التي في يده أعداء أهل بيت العصمة .

الّا اننا نذكر بعض الروايات المنقولة عن العامّة في هذا الباب ، فيروي محبّ الدين احمد بن عبدالله الطبري ، عن أبي سعيد الخدري قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : يَا عَلِيّ مَعَكَ يَوْمَ الْقِيمَةِ عَصَا مِنْ عَصَى الْجَنّةِ تُذودُ بِهَا الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْحَوْضِ . أخرجه الطبراني (15) .

يقول القندوزي الحنفي : أخرج أبو المؤيد أخطب الخطباء الموفّق بن أحمد الخوارزمي عن سيّد الحفّاظ أبي منصور شهردار ابن شيرويه الديلمي بسنده ، عن زيد بن عليّ بن الحسين ، عن أبيه ، عن جدّه أميرالمؤمنين عليّ رضي الله عنهم ، ثم ينقل رواية مفصّلة و من جملة فقراتها يقول :

يَا عَلِيّ ... وَ إنّكَ غَدَاً عَلَى الْحَوْضِ خَلِيفَتِي ، وَ أَنْتَ أَوّلُ مَنْ يَرِدُ عَلَيّ الْحَوْضَ ، وَ أَنْتَ تَذُودُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ حَوضِي ، وَ أَنتَ أَوّلُ دَاخِلٍ فِي الْجَنّةِ مِنْ أُمّتِي ، وَ إنّ مُحِبّيكَ وَ أَتْبَاعَكَ عَلَى مَنَابِرٍ مِنّ نُورٍ ، روآءٌ مَرويّنَ ، مُبيَضّةٌ وُجُوهُهُمْ حَوْلِي ، أَشْفَعُ لَهُمْ فَيَكُونُونَ غَدًا جِيرَانِي ، وَ إنّ أَعَدَاءَكَ غَدًا ظِماءٌ مُظْمَئِينَ مُسْوَدّةٌ وُجُوهُهُمْ ، يُضْرَبُونَ بِالْمَقَامِعِ وَ هِي سِيَاطٌ مِن نَارٍ مُقْمَحِينَ ، الحديث (16) .

و يقول أيضاً : أخرج أبونعيم الحافظ ، عن أبي هُريرة قال :

قال رسولُ اللهِ صَلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم لِعَلِيّ رضي الله عنه : أَنْتَ يَا عَلِيّ عَلَى حَوضِي تَذُودُ عنه المُنَافِقِينَ ، وَ إنّ أَبَارِيقَهُ عَدَد نُجُومِ السّمَاءِ ، وَ أَنْتَ و الحَسَنُ و الحُسَينُ وَ حَمْزَةٌ وَ جَعْفَرٌ فِي الجنّةِ إخوانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ، وَ أَنْتَ وَ أَتْبَاعَكَ مَعِي ، ثُمّ قَرَأ : (وَ نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِن غِلّ إخوانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) (17) .

و يقول أيضاً : و في جمع الفوائد : جابر و أبوهريرة رفعاه :

عليّ بنُ أبي طَالِبٍ صَاحِبُ حَوضِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ . للأوسط .4

و يقول أيضاً : أبوسعيد رفعه :

يَا عَلِيّ ! مَعَكَ يَومَ الْقِيَمَةِ عَصًا مِن عَصَى الْجَنّةِ تَذُودُ بِهَا المُنَافِقِينَ عَن حَوضِي . للأوسط (18) .

و يقول : و في (جواهر العقدين) ، أخرج الطبراني عن أبى كثير قال :

كُنتُ جَالِسًا عِنْدَ الْحَسَنِ بنِ عَلِيّ رضي اللهُ عنهما ، جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ لَه : إنّ مُعَاوِيَة بنَ خَدِيجٍ يَسُبّ أَبَاكَ عِنْدَ ابنِ أَبِي سُفيَانَ ، فَقالَ لَهُ : إن رَأَيتَهُ مِن بَعْدُ ، ارنيه ! فَرَءاهُ يَوْمًا فَأراه ذلك الرجل ،

فقال الحسنُ رَضي اللهُ عنه لابنِ خَدِيجٍ : أَنْتَ تَسُبّ أَبَايَ عِنْدَ ابنِ آكِلَةِ الأَكْبَادِ ؟

أَما لَئِن وَرَدتَ عَلَى الحَوضِ وَ مَا أَرَاكَ تَرِدُهُ ، لَتَجِدَنّ أَبَاي مُشَمّرًا حَاسِرًا ذِرَاعَيْهِ ، يَذُودُ المُنَافِقِينَ عَنْ حَوضِ رسولِ الله صلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم وهَذَا قَوْلُ الصّادِقِ المُصَدّقِ صلّى اللهُ عليه [و ءاله] وسلّم (19) .

و يقول أيضاً : لأحمد في (المناقب) ، انّ رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم قال : أُعْطِيَتْ فِي عليّ خَمْسٌ ، هُنّ أَحَبّ إلَيّ مِنَ الدّنْيَا وَ مَا فِيهَا ، ...

الى أن قال : وَ أَمّا الثّالِثَةُ فَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى حَوضِي يَسْقِي مَنْ عَرَفَهُ مِن أُمّتِي [20] .

و يقول أيضاً : و في (المناقب) ، عن سيعد بن جبير ، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم :

يَا عَلِيّ ، أَنْتَ صَاحِبُ حَوْضِي ، وَ صَاحِبُ لِوائِي ، وَ حَبِيبُ قَلْبِي ، وَوَصِيّي ، وَ وَارِثُ عِلْمِي ، وَ أَنْتَ مُسْتَوْدعُ مَوَارِيثِ الأَنْبِياءِ مِنْ قَبْلِي ، وَأَنْتَ أَمِينُ اللهِ فِي أَرْضِهِ ، وَ حُجّةُ اللهِ عَلَى بَرِيّتِهِ ، وَ أَنْتَ رُكْنُ الإيمَانِ ، وَ عَمُودُ الإِسْلاَمِ ، وَ أَنْتَ مِصْبَاحُ الدّجَى ، وَ مَنَارُ الْهُدَى ، و الْعَلَمُ الْمَرفُوعُ لِأَهْلِ الدّنْيَا ، يَا عَلِيّ ، مَنِ اتّبَعَكَ نَجَى ، وَ مَنْ تَخَلّفَ عَنْكَ هَلَكَ ، وَ أَنْتَ الطّرِيقُ الْوَاضِحُ وَالصّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَ أَنْتَ قَائِدُ الْغُرّ الْمُحَجّلِينَ وَيَعْسُوبُ الْمُؤمِنِينَ ، وَ أَنْتَ مَوْلَى مَنْ أَنَا مَوْلاَهُ ، وَ أَنَا مَوْلَى كُلّ مُؤمِنٍ وَمُؤمِنَةٍ ، لَا يُحِبّكَ إلّا طَاهِرُ الْوِلَادَةِ ، وَ لَا يُبْغِضُكَ إلّا خَبِيثُ الْوِلاَدَةِ ، وَ مَا أَعْرَجَنِي رَبّي عَزّوَجَلّ إلَى السّمَاءِ وَ كَلّمَنِي رَبّي إلّا قَالَ : يَا مُحَمّدُ إقْرَءْ عَلِيّاً مِنّي السّلاَمَ وَ عَرّفهُ أَنّهُ إمَامُ أَولِيائِي وَ نُورُ أَهْلِ طَاعَتِي ، وَ هَنِيئاً لَكَ هَذِهِ الْكَرَامَة [21] .

و يقول ابن شهر ءاشوب : و في أخبار أبي رافع من خمسة طرق : قال النبيّ صلّى الله عليه و ءاله :

يَا عَلِيّ تَرِدُ عَلَيّ الْحَوضَ وَ شِيعَتُكَ رُوَاءً مَروِيّينَ ، وَ يَرِدُ عَلَيْكَ عَدُوّك ظِمآءٌ مُقْمَحِينَ [22] .

و جاء في تفسير قوله تعالى : وَ سَقَبهُمْ رَبّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ، يَعنِي سَيّدهُم عَلِيّ بن أبي طالِبٍ ، و الدّلِيلُ عَلى أَنّ الرّبّ بِمعنَى السّيّدِ ، قولُهُ تعالى : واذْكُرنِى عِنْدَ رَبّكَ [23] .

الفايق (للزمخشري) : إنّ النّبِيّ قَالَ لِعَلِيّ : أَنْتَ الذّائِدُ عَنْ حَوْضِي يَوْمَ القِيَمَةِ ، تَذُودُ عَنْهُ الرّجَالَ كَمَا يُذادُ الأَصيدُ البعيرُ الصّادِي ، أي الّذِي بِهِ الصّيْدُ ، و الصّيدُ دَاءٌ يَلْوِى عُنُقَهُ [24] .

و يقول الحميري شاعر أهل البيت سلام الله عليهم:

أُؤَمّلُ فِي حُبّهِ شِرْبَةً
مِنَ الْحَوْضِ تَجْمَعُ أَمْنَاً وَ ريّا
إذَا مَا وَرَدْنَا غَدَاً حَوْضَهُ
فَأَدْنَى السّعِيدَ وَ ذَادَ الشّقِيّا
مَتَى يَدْنُ مَولاهُ مِنْهُ يَقُلْ
رِدِ الْحَوضَ وَاشْرَبْ هَنِيئَاً مَرِيّا
وَ إن يَدْنُ مِنْهُ عَدوّ لَهُ
يَذُدْهُ عَلِيّ مَكَانَاً قَصِيّا [25] .

و يقول أيضاً في غاصبي مقام الولاية ضمن قصيدة طويلة :

وَ أَزْمَعُوا غَدْرَاً بمولاهمُ
تَبّاً لِمَا كَانُوا بِهِ أَزْمَعُوا
لاهُمْ عَلَيهِ يَرِدُوا حَوْضَهُ
غَداً وَ لاَ هُوَ فِيهُم يَشفَعُ

حَوضٌ لَهُ مَا بَيْنَ صَنعَا إلَى
أيْلَةِ أَرضِ الشّامِ أَو أوسَعُ
يُنْصَبُ فيهِ عَلَمٌ لِلْهُدَى
وَالْحَوضُ مِنْ مَاءٍ لَهُ مُتْرَعُ
يَفيضُ مِنْ رَحْمَتِهِ كَوْثَرٌ
أَبْيَضُ كَالفِضّةِ أَو أَنْصَعُ
حَصَاهُ يَاقُوتٌ وَ مَرْجَانَةٌ
و لُؤْلُؤٌ لَمْ تَجْنِهِ إِصْبَعُ
بَطْحاؤهُ مِسْكٌ و حافاتُهُ
يَهْتَزّ مِنْها مونقٌ مُونعُ
أَخْضَرُ مادونَ الْجنى ناضِرٌ
وَفَاقِعٌ أَصْفَرُ مَا يَطْلَعُ
وَالْعِطْرُ وَالرّيْحَانُ أَنواعُهُ
تَسْطَعُ إن هَبّت بِهِ زَعْزَعُ
رِيحٌ منَ الجنّةِ مَأمُورَةٌ
دَائِمَةٌ لَيْسَ لَها مَنْزَعُ
إذَا مَرَتهُ فَاحَ مِن رِيحِهِ
أَزكى مِنَ الْمِسكِ اِذَا يَسْطَعُ
فيه أَباريقُ وَ قِدْحَانُهُ
يَذُبّ عَنْهَا الأنزَعُ الأَصلَعُ
يَذّبُ عَنْهُ ابنُ أَبي طالِبٍ
ذَبّكَ حَربى إبِلٍ تَشْرَعُ
إذا دَنَوا مِنْهُ لِكَيْ يَشْرَبُوا
قيلَ لَهُمْ تَبّاً لَكُمْ فَارجِعُوا
دُونَكُمُو فَالْتَمِسُوا مَنْهَلاً
يُروِيكُمُ أَو مطْعَماً يُشْبِعُ
هَذَا لِمَنْ وَالَى بَنِي أَحْمَدٍ
وَ لَمْ يَكُن غَيْرَهُمُ يَتْبَعُ
فَالفَوزُ لَلشّارِبِ مِنْ حَوضِهِ
وَالْوَيلُ وَالذلّ لِمَنْ يُمْنَعُ (26)

و الخلاصة فهذا الحوض هو معدن علم أميرالمؤمنين عليه السلام الذي يُحيي الأرواح و يشفي القلوب ، من دخله أعمى صار مُبصراً ، و من ورده أسودَ صار أبيضاً ، و من دخله مريضاً شُفي ، و من دخله محترقاً وجد روحاً جديدة ، و لذا فانّ هذا الحوض يجري من الأعراف و هو مقام أميرالمؤمنين ، و يجري من التسنيم و هو علمه عليه السلام ، و لا مقام أعلى منه الّا عرش الله الذي يُشير الى مقام الحقيقة النبويّة .

قال الرسول الأكرم صلّى الله عليه و ءاله في حديثه المتّفق عليه لدى الفريقين :

أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَ عَلِيّ بَابُهَا [27] .

تعليقات:

1) الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .

2) الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .

3) الأية 71 ، من السورة 17 : الإسراء .

4) الأية 10 ، من السورة 53 : النجم .

5) شرح نهج البلاغة) ، الطبعة ذات العشرين مجلّداً ، ج 1 ، ص . 26

6) الأية 14 و 23 ، من السورة 22 : الحجّ ؛ و الأية 12 ، من السورة 47 : محمد .

7) الأية 117 ـ 119 ، من السورة 20 : طه .

8) الأية 55 ، من السورة 54 : القمر .

9) الأية 15 ، من السورة 47 : محمّد .

10) الأية 30 ، من السورة 21 : الأنبياء .

11) ذيل الأية 21 ، من السورة 76 : الدهر .

12) الأية 17 و 18 ، من السورة 76 : الدهر .

13) الأية 5 و 6 ، من السورة 76 : الدهر .

14) الأية 22 الى 29 ، من السورة 83 : المطففّين .

15) ذخائر العقبى) ، ص . 91

17.16) (ينابيع المودّة) ، ص . 130

20.19.18) (ينابيع المودّة) ، ص . 132

21) ينابيع المودّة) ، ص . 133

23.22) (مناقب ابن شهرءاشوب) ، ج 1 ، ص . 350

24) مناقب ابن شهرءاشوب) ، ج 1 ، ص . 350

25) ديوان الحميري) ، ص 464 ؛ و تخريجها من (المناقب) ، ج 2 ، ص 162 و 223 ، و (أعيان الشيعة) ، ج 12 ، ص . 276

26) ديوان الحميري) ، ص 261 ؛ و قد أخرج هذه القصيدة عن (بحار الأنوار) و(مجالس المؤمنين) و (الغدير) و (أعيان الشيعة) و (ضحى الاسلام) و (الأغاني) و (ظرافة الأحلام) .

27) كنز العمال) ، ج 12 ، الحديث 1130 ، طبع الهند 1384 ؛ و (وسائل الشيعة) الطبعة الحروفيّة ، ج 18 ، ص . 52

، ج 18 ، ص . 52

الدرس الحادي عشر: معنى وحى الخيرات إلى الأئمّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدّين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

وَ جَعَلْنَهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ وَ إِقَامَ الصّلَوةِ وَ إِيتَاءَ الزّكَوة وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (1) .

بحثنا في المباحث السابقة في كيفية الهداية بأمرالله و شرائط تحقّقها من خلال ما استنتجناه من الأيات القرءانيّة ، و نبحث الأن في الجملة الأخرى من الأية ، القائلة : وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ لنستنتج معناها بحول الله و قوّته .

معنى ايحاء الخيرات الى الأئمّة:

يقول الله تعالى في هذه العبارة الشريفة انّ نفس الأعمال الخيرة التي كانوا يعملونا هي من وحينا ، لأنّ المصدر المضاف يفيد تحقّق الفعل في الخارج ، فاذا قال أحد : يُعجِبُنِي إِحْسَانُكَ وَ فِعْلُكَ الْخَيْرَ ، فانّه يُستفاد منه انّ الإحسان و فعل الخير الذي عملتَه قد سرّني . امّا اذا أرادوا أن يقولوا إنّ إحسانك و فعلك الخير بعد هذا يسرّني ، فانّهم لا يضيفون المصدر ، بل امّا يقطعونه عن الإضافة أو أن يذكروا الفعل مع (أن المصدريّة) ، فيقولون : يُعجبني أن تُحسن و أن تفعل الخير ، أو يقولون : يعجبني الإحسان لك والفعل لك .

شأن ذلك شأن الأيات التي بُيّنت في القرءان بعنوان تشريع الأحكام ، و يقصد بها الإتيان بتلك الأفعال في الزمان المستقبل لوقت الخطاب ، فاستعمل في تلك الأيات (أن المصدرية) .

مثل (أَنْ تَصُومُوا خَيرٌ لّكُمْ) (2) ، و (أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ) (3) ، و (أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا اللهَ) (4) ، و (أَنْ أَقِيمُوا الصّلَوةَ) (5) .

معنى الوحي التكويني:

امّا في الأية مورد البحث ، فهو لا يقول : وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ أَنْ يَفْعَلُوا الْخَيْرَاتِ ، بل يقول : انّ الافعال الخارجيّة التي تصدر منهم هي عين وحينا ، و انّا أوحينا اليهم الأفعال الخيّرة التي يعملونها ، و في هذه الحال فانّ نفس فعلهم هو مورد الوحي . وينبغي أن نرى . بناءً على هذا . كيف يمكن ان يكون الفعل مورد الوحي ؟ ونأتي بشاهد من القرءان الكريم لبيان هذا الأمر :

وَ أَوْحَى رَبّكَ إِلَى النّحْلِ أَنِ اتّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَ مِنَ الشّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ * ثُمّ كُلِى مِن كُلّ الثّمَرَ تِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لّلنّاسِ إِنّ فِي ذَ لِكَ لَأَيَةً لِقَومٍ يَتَفَكّرُونَ (6) .

فهل هذا الوحي الذي أوحاه الله تعالى للنحل مثل الوحي الى قلوب الأنبياء ؟

فالوحي يصل الى قلب النحل في كلّ لحظة أن اصنعي هذا النوع من البيوت ، و اسكني هنا ، وقِفي على هذه الوردة ، ثمّ على تلك الوردة ! و لا تقفي على الوردة ذات الرائحة الكريهة ! أو انّ الأمر ليس كذلك ، بل انّ الله سبحانه خلق هذا الحيوان اللطيف العجيب بحيث انّها لا تعمل شيئاً الاّ بإرادة الله . فهذا الحيوان المعصوم يسير دون أيّ تدخّل للنفس الأمّارة والأمال الباطلة و حبّ الشخصيّة وفق برنامج معيّن عينّه الله تعالى له في عالم التكوين ، و يسير في كلّ لحظة بأمر و إذن ربّ العالمين ، فينتقل حسب دعوة الفطرة من هذه الوردة الى تلك ، و يتناول رحيق الوردة ذات الرائحة الجيّدة ، و يصنع بيتاً هندسيّاً بشكل عجيب في السقوف و الجبال والأشجار . و هذا الوحي يُدعى بالوحي التكويني ، اي انّ الله سبحانه وتعالى ينظّم في عالم التكوين و الخارج حركات ذلك الحيوان و سكناته دون تدخّل أي أمر خارجى يُخرجه من الصراط المستقيم في سيره التكاملي ، كما يحرّكه في السبل و طرق السعادة و الأعمال الحسنة حسب برنامج الخلقة .

وحي الخيرات للأئمّة:

تقول الأية القرءانيّة المباركة : وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ ، اي انّ جميع الأفعال الحسنة التي تظهر عنهم هي بإذننا و أمرنا ، و انّ ملكوتها بيدنا ، و بالنتيجة فانّ أعمالهم تصدر منهم دون أيّ تدخلّ للفكر النفسانيّ والهوى و العُجب .

فهم لا يفكرّون و لا يفعلون بالاعتبار شيئاً للمحافظة على مصالحهم ، و لا يقعون في اعتبارات واهية من أجل فعلٍ ما ، فيفعلوه على أساس مصلحةٍ خياليّة ، بل انهم اجتازوا جميع هذه المراحل ، فصارت إرادتهم إرادة الله ، و صار فعلهم يصدر عن ضمير طاهر بلا موارية و لا خيانة و بلا شائبة من التفكير بالمصلحة أو ملاحظة للأجر و الثواب أو تفكيرٍ بعاقبة . هؤلاء هم الذين جزاؤهم نفس فعلهم ، فليسوا في صدد جزاء خارج عن نفس فعلهم و حقيقته .

هذا الفعل هو فعل الله الذي يطلع بإرادة الله من مرءاة وجودهم وصُقع نفوسهم ، و يظهر من مجرى و مجلى وجودهم ، و لذلك يمكن القول أنّ نفس فعلهم هو وحي الله . انّ الانسان مالم تبصر عينه جمال ربّه فينسى تدريجاً مراتب وجوده و يصبح موجوداً بالله تبارك و تعالى ، فانّه سيرى أنّ جميع أفعاله صادرة عنه ، و سيقوم بها حتماً من أجل غايةٍ وهدف . لكنّه اذا تقدّم بقدم صدق في مرحلة العبوديّة فانّه سوف يتأثّر تدريجاً بمشاهدة قدرة الله و علمه المطلق و بانكشاف مراحل التوحيد في وجوده ، فيصبح لا يدرك وجوداً لنفسه بعدُ ليقوم بعملٍ ما لحفظه أو لاستجلاب منفعةٍ له و دفع الضرر عنه ، و سيرى نفسه خاضعاً مستسلماً بيد القدرة الالهيّة كالعجينة في القبضة القوّية ، و سيرى وجوده سراباً اثر بزوغ شمس الحقيقة و مشاهدة الجمال المطلق و العلم و الحياة المطلقة ، فلا يمكنه أن يعمل لنفسه ولمصلحته ، و سيكون كلّ ما يصدر عنه في هذه الحال هو عمل الحق فقط .

كما يقول سُبحانه في الحديث القدسيّ الذي رواه الفريقان : لاَ يَزَالُ الْعَبْدُ يَقَرّبُ إلَيّ بِالنّوَافِلِ حَتّى أُحِبّهُ ، فَإذَا أَحَبَبتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَ لِسَانَهُ الّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَ يَدَهُ الّتِي يَبْطِشُ بِهَا (7) .

اي انّه لن يعدّ أذنه ملكاً له ، بل انّ أذنه مجرىً يسمع الله بها ، و عينه وسيلة يرى الله بها ؛ و تدلّ الأية المباركة القرءانية :

وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللهَ رَمَى [8] ، على هذا المقام . كما انّ الأية المباركة : يَدُاللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [9] ، تدلّ على هذا المعنى أيضاً .

تحقّق شرائط الإمامة:

و عموماً فانّه يُستفاد من الأية المباركة : وَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ، أنّ الإمام هو من توجّب عليه حقّاً أن يجتاز مراحل النفس والورود في مراحل التوحيد الحقيقي ، و مع طلوع الشمس المشرقة على العالم و ظهور ذات الحقّ المقدّسة جلّ و علا في مرايا الكائنات و تجلّيها في الماهيّات الإمكانية ، فانّ عليه ان لا يرى في نفسه ظهوراً أو بروزاً ، بل عليه أن يجعل أصل وجوده مندكّاً في وجود حضرة مفيض الوجود ، ليصبح فعله و حركته و سكونه و قيامه و قعوده و حربه و سلمه فعل الله .

و لو وصل امرؤ ما الى هذه المرحلة كان له قابليّة الإمامة بإذن الله ، والاّ فلا ، و ذلك لأنّ الإمام يعني مَن يهدي المأموم الى مقامه و مقصده ، فمن لم يخرج من شوائب النفس الأمّارة إذا أصبح إماماً فانّه سيدعو جميع المأمومين الى مقامه و محلّه ، أي للميول و الرغبات النفسيّة . و من الواضح انّ هذه الدعوة ليست دعوةً الى الله بل دعوةً للنفس . و الإمام بهذه الخاصيّة التي ذُكرت ، لأنّ فعله فعل الحقّ و قوله قول الحقّ فلذا فهو حجّة ، لأنّ فعل و قول الحقّ حُجّة .

و بناءً على هذا يجب اتباعه (اي الإمام) و عدم انتقاد فعله ، لأنّ انتقاد فعل الإمام يعنى انتقاد فعل الحقّ ، و على الناقد ان يرجع الى ذاته ليجد العيب و الخلل هناك ، لأنّها نسبت . لجهلها و عدم معرفتها بالإمام . العيبَ اليه .

كما يمكن ان يكون هناك كثير من الأفراد الطيّبين ذوي الأعمال الصالحة ، لكنّهم لم يتخطّوا ذواتهم خارجاً ، لذا فانّهم لم يتعرّفوا على الإمام ، لأنّ الإمامة في غاية الرفعة و السمّو .

ثُورة زيد بن علي بن الحسين كانت بأمر من الإمام:

ينقل المرحوم الكليني في (أصول الكافي) ، كتاب الحجّة ، باسناده عن أبان عن الأحول [10] ، أنّ زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام بَعَث اليه و هو مستخفٍ ، قال : فأتيتُه .

فقال لي : يا أَبا جعفر ما تقول إنْ طَرَقَكَ طارقٌ منّا أتخرجُ معه ؟

قال : فقلتُ له : إنْ كان أباك [الإمام عليّ بن الحسين] أو أخاك [الإمام محمّد الباقر] خرجتُ معه .

قال : فقال لي : فأنا أريد أن أخرج أجاهد هؤلاء القوم فاخرج معي .

قال : قلتُ لا ما أفعل جُعلتُ فداك .

قال : فقال لي : أترغب بنفسكَ عنّي ؟

قال : قلتُ له : إنّما هي نفسٌ واحدة ، فإنْ كان لله في الأرض حجّة فالمتخلّفُ عنك ناجٍ و الخارجُ معك هالكٌ ، و إنْ لاتكن لله حجّة في الأرض فالمتخلّفُ عنك و الخارجُ معك سواء .

قال : فقال لي : يا أبا جعفر كنتُ أجلس مع أبي على الخوان فيُلقمني البَضعةَ السمينة و يبرّد لي اللقمة الحارّة حتّى تبرد شفقةً عليّ و لم يشفق عَلِيّ من حرّ النار إذا أخبرك بالدين و لم يُخبرني به ؟

فقلتُ له : جُعِلْتُ فِداكَ مِنْ شفقته عليك من حرّ النار لم يُخبرك ؛ خافَ عليك أن لا تقبله فتدخل النارَ و أخبرني أنا ، فإن قبلتُ نجوتُ و إن لم أقبل لم يُبالِ أن أدخل النّار .

ثمّ قلتُ له : جُعلت فداك أنتم أفضل أم الأنبياء ؟ قال : بل الأنبياء .

قلتُ : يقول يعقوبُ ليوسفَ عليهما السلام : يَبُنَيّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا (11) ، لِمَ لَمْ يُخبرهم حتّى كانوا لا يكيدونه ولكن كتمهم ذلك ، فكذا أبوك كتمك لأنّه خاف عليك .

قال : فقال : أما واللهِ لئن قُلتَ ذَلك لقد حدّثني صاحبُك بالمدينة أنّي أُقتل و أُصلب بالكناسة و أنّ عنده لصحيفة فيها قتلي و صلبي .

فحججتُ فحدّثتُ أبا عبدالله عليه السلام بمقالة زيد و ما قلتُ له ، فقال لي : أخذتَهُ من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوق رأسه و من تحت قدميه و لم تتركْ له مَسلكاً يسلكه (12) .

لقد كان لزيد بن عليّ بن الحسين مقام شامخ ، و كان مشهوراً بالتقوى و الزهد و الغيرة و الإيثار و الإنفاق و العبادة ، و عندما استشهد تأثّر الإمام الصادق عليه السلام عليه كثيراً و بكى و ترحّم عليه ، ولكن و مع ذلك كّله فقد كان مقام الإمام شيئاً ءاخر لم يكن زيد يعرف عنه شيئاً .

حركة الإمام و سكونه كلاهما صحيح:

لقد نفد صبر زيد أمام انحراف هشام بن عبدالملك و جرائمه ، و لم يكن له سعة صدر ليتحمّل هذه الأمور ، فقام بثورته ضدّه ، امّا الإمام فانّه لا يكلّ أبداً من التصدّي للظلم ، و لأنّ نفسه لا تضيق فانّه لا يُقدم على المواجهة الدمويّة ما دام ذلك في غير صالح الاسلام و المجتمع الاسلامي ، ولا يتأثّر بإحساساته أو إحساسات جلسائه أو إلقاءآتهم ، فهو لا يمتلك حسّ الانتقام ، و لا يُقدم على عملٍ ليُرضي رغبته و ليشفي غرائزه ، بل انّ أعماله كلّها وفق أعلى برامج الإنسانيّة لهداية الخلق الى أعلى درجة الكمال ، و في هذه الحال فانّ حربه و سلمه كلاهما مصلحة ، و كلاهما من فعل الله تعالى ، و حركته و سكونه من أفعال الله أيضاً و يجب اتّباعه فيهما .

و الخلاصة فانّ مقام الإمامة هوالالتزام برسالة الله و هداية نفوس الناس الى الله ، و ليس هناك من يليق بهذا المقام الاّ من اتّسعت نفسه و فاز بعلوم الله و صار حيّاً بحياة الله و أفلح في الامتحانات الالهيّة و تجاوز مراحل النفس كليّاً .

و لقد كان أميرالمؤمنين عليه السلام نفس رسول الله صلّى الله عليه وءاله ، و كان الرسول الأكرم يصرّح بهذا الأمر في مواطن كثيرة ، و لم يكن هذا التصريح بالطبع من وجهة نظر الظاهر و المجاملات الإعتباريّة والبلاغات العاديّة للناس ، بل كان ذلك على أساس إدراك للواقع و الوقوف على مراتبه و قابليّاته و مقاماته اللامتناهية ، فهي كاشفة و مظهرة لتلك الواقعيّة .

و حسب تصريح الأية القرءانيّة في قضيّة المُباهلة ، فقد عُدّت نفس أميرالمؤمنين نفسَ رسول الله و اعتُبرت بمنزلة نفس النبّي الأكرم ، كما قد اعترف الفخر الرازي في ذيل تفسير ءاية المباهلة بهذه الحقيقة .

يقول القندوزي : أخرج صاحب (المناقب) عن جعفر الصادق ، عن أبيه ، عن جدّه عليّ بن الحسين : أنّ الحسن بن عليّ (عليهم السلام) قال في خطبته :

قال الله تعالى لجدّي صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم حين جحده كفرةُ أهل نجران و حاجّوه :

فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَ أَبْنَآءَكُمْ وِ نِسَآءَنَا وَ نِسَآءَكُمْ وَ أَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَذِبِينَ (13) .

فَأَخْرَجَ جَدّي صَلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم مَعَهُ مِنَ الأَنْفُسِ أَبِي ، وَمِنَ البَنِينَ أَنَا وَ أَخِي الْحُسَين ، وَ مِنَ النّسَآءِ فَاطِمَةَ أُمّي ، فَنَحنُ أَهْلُهُ وَلَحْمُهُ وَ دَمُهُ وَ نَفْسُهُ ، وَ نَحْنُ مِنْهُ وَ هُوَ مِنّا .

ثم قال : و في (عيون الأخبار) عن الريّان بن الصلت ، قال الرضا رضي الله عنه : عَنَى اللهُ مِنْ أَنْفُسِنَا نَفْسَ عَلِيّ ، وَ مِمّا يَدُلّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النّبِيّ صلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم : لِتَنْتَهِيَنّ بَنُو وليعة أَوْ لَأَبْعَثَنّ إِلَيْهِمْ رَجُلاً كَنَفْسِي يَعْنِي عَلِيّ بنَ أَبي طالِبٍ ، فَهَذِهِ خُصُوصِيّةٌ لاَ يَلْحَقُهُمْ فِيهِ بَشَرٌ .و قد تقدّم في الباب الخامس (14) .

ثم يقول : أخرج أحمد [بن حنبل] في (المسند) عن عبدالله بن حنطب قال : قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم لوفد ثقيف حين جاؤه . لَتُسْلِمَنّ أَوْ لَأَبْعَثَنّ إِلَيْكُمْ رَجُلاً كَنَفْسِي لَيَضْرِبَنّ أَعْنَاقَكُمْ ، وَ لَيَسْبِيَنّ ذَرَارِيكُمْ ، وَ لَيَأْخُذَنّ أَمْوَالَكُمْ ، فَالْتَفَتَ إِلَى عَلِيّ وَ أَخَذَ بِيَدِهِ فَقَالَ : هَذَا هُوَ (مرّتين) (15) .

و يقول أيضاً : أخرج أحمد بن حنبل في (المسند) و في (المناقب) : انّ رسول الله قال : لَتَنتَهِيَنّ يَابَنِى وَليعة ، أَو لَأَبْعَثَنّ إِلَيْكُمْ رَجُلاً كَنَفْسِي يُمْضِي أَمْرِي ، يَقْتُلُ الْمُقَاتِلَةَ ، وَ يَسْبِي الذّرّيّةَ ، فَالتَفَتَ إِلَى عَلِيّ فَأَخَذَ بِيَدِهِ وَ قَالَ : هُوَ هَذَا (مرّتين) .

ثم يقول : و قد أخرج الموفّق بن أحمد الخوارزمي عين هذا الحديث بنفس الألفاظ (16) .

و ينقل أيضاً من كتاب (المشكاة) عن حبيش بن جنادة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : عَلِيّ مِنّي وَ أَنَا مِن عَلِيٍّ وَ لَا يُؤَدّي عَنّي إِلّا أَنَآ أَوْ عَلِيّ .

ثم يقول : روى الترمذي هذا الحديث ، و رواه أيضاً أحمد بن حنبل عن حبيش بن جنادة . و يقول الترمذي : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح .

كما روى هذا الحديث عن ابن ماجة عن ابن جنادة (17) .

و يقول أيضاً انّه رواه في (المشكاة) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال :

انّ النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم قال : إِنّ عَلِيّاً مِنّي وَ أَنَا مِنْهُ وَهُوَ وَلِيّ كُلّ مُؤمِنٍ بَعْدِي .رواه الترمذي (18) .

و يقول الحمويني في (فرائد السمطين) باسناده عن عليّ كرّم الله وجهه قال : أُهْدِيَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم قَنْوُ مَوزٍ ، فَجَعَلَ يَقشرُ الموزَ بيدهِ وَ يَجْعَلُها فِي فَمِي ، فقالَ قَائلٌ : يَا رسولَ اللهِ ! إِنّكَ تُحِبّ عَلِيّاً !

قالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنّ عَلِيّاً مِنّي وَ أَنَا مِنْ عَلِيٍّ (19) .

و يقول أيضاً : روى أحمد بن حنبل في مسنده عن حبيش بن جنادة السلولي قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول : عَلِيّ مِنّي وَ أَنَا مِنهُ وَ لاَ يُوَدّي عَنّي إِلّا أَنَا أَو عَلِيّ (20) .

و يقول أيضاً : في كتاب (المناقب) ، عن عطيّة بن سعد العوفي ، عن مخدوج بن يزيد الذهلي قال : نَزَلَتْ ءايَةُ (أَصْحَابُ الْجَنّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)

فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ! مَنْ أَصْحَابُ الْجَنّةِ ؟

قال : مَنْ أَطَاعَنِي ، وَ وَالَى عَلِيّاً مِنْ بَعْدِي ، وَ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم بِكَفّ عَلِيٍّ فقالَ : إنّ عَلِيّاً مِنّي ، وَ أَنَا مِنْهُ ، فَمَنْ حَادّهُ فَقَدْ حَادّنِي ، وَ مَنْ حَادّنِي أَسْخَطَ اللهَ عَزّوَجَلّ .

ثُمّ قالَ : يَا عَلِيّ ! حَرْبُكَ حَربِي ، وَ سَلِمُكَ سِلْمِي ، وَ أَنْتَ الْعَلَمُ بَيني وَبَيْنَ أُمّتِي .

قالَ عَطِيّهُ : سَأَلْتُ زَيْدَ بنَ أَرقَم عَنْ حديثِ مخدوجٍ قالَ : أُشْهِدُ اللهَ لَقَدْ حَدّثَنَا بِهِ رَسُولُ اللهِ [21] .

الخصال الموجودة في أميرالمؤمنين:

و يقول القندوزي أيضاً : و في (المناقب) عن جابربن عبدالله رضي الله عنهما قال : لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه [و ءاله] يقول :

فِي عَلِيٍّ خِصَالٌ لَوْ كَانَت وَاحِدَةٌ مِنْهَا فِي رَجُلٍ اكتَفِى بِهَا فَضْلاً وَشَرَفاً .

قوله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : مَن كُنْتُ مَولاَهُ فَعَلِيّ مَوْلاَه .

و قوله : عَلِيّ مِنّي كَهَارُونَ مِنْ مُوسَى .

و قوله : عَلِيّ مِنّي وَ أَنَا مِنْهُ .

و قوله : عَلِيّ مِنّي كَنَفْسِي ، طَاعَتُهُ طَاعَتِي ، وَ مَعْصِيَتُهُ مَعْصِيَتِي .

و قوله : حَرْبُ عَلِيّ حَرْبُ اللهُ ، وَ سَلْمُ عَلِيّ سِلْمُ اللهُ .

و قوله : وَلِيّ عَلِيّ وَلِيّ اللهِ وَ عَدُوّ عَلِيّ عَدُوّ اللهِ .

و قوله : عَلِيّ حُجّةُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ .

و قوله : حُبّ عَلِيّ إيمَانٌ وَ بُغْضُهُ كُفْرٌ .

و قوله : حِزْبُ عَلِيّ حِزبُ اللهِ ، وَ حِزْبُ أَعْدَائِهِ حِزْبُ الشّيْطَانِ .

و قوله : عَلِيّ مَعَ الْحَقّ وَ الْحَقّ مَعَهُ لاَ يَفْتِرِقَانِ .

و قوله : عَلِيّ قَسِيمُ الْجَنّةِ وَالنّارِ .

و قوله : مَنْ فَارَقَ عَلِيّاً فَقَدْ فَارَقَنِي ، وَ مَنْ فَارَقَنِي فَارَقَ اللهَ .

و قوله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : شِيعَةُ عَلِيّ هُمُ الْفَائِزُونَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ .

و يُستفاد من مجموع هذه الروايات انّ رسول الله قد جعل عليّ بن أبي طالب أميرالمؤمنين عليه السلام في بيته و حرمه حرم الله ، من وجهة الباطن و المعارف الالهيّة ، و الاطّلاع على الأسرار الغيبيّة ، و من وجهة الظاهر ، و كانا دائماً في السرّ و الشهادة و الظاهر و الخفاء نفسين تشعّبا من أصل واحد ، و خاصةً في تلك الفقرة من الرواية حيث قال : لاَ يُؤَدّي عَنّي إلّا أَنَا أَو عَلِيّ و المقصود هو انّ أحداً لا يستطيع حمل ثقل الرسالة و هداية الناس الى الله من وجهة الظاهر و الباطن ، أي بالسيطرة على أنفسهم وملكوتهم ، الّا أنا أو عليّ ، و بناءً على ذلك فانّه كان عليه السلام شريكاً لرسول الله في جميع المقامات و الدرجات ، و في نفس الدرجة ، و هي مقام الحمد و حمل لواء الحمد ، و وفقاً للعديد من الروايات فانّ ذلك اللواء بيد أميرالمؤمنين ، اي انّ أحداً لم يعرف الله كما عرفه أميرالمؤمنين ، لذا فانّ أحداً غيره عليه السلام لم يستطع حمد الله كما يليق بذلك المقام العالي الرفيع ، كما انّ مقام الشفاعة يوم القيامة في يده عليه السلام و يد ذريّة رسول الله .

لقد نقلنا في المباحث السابقة بعضاً من مقامات أميرالمؤمنين ، مثل كونه قسيم الجنّة و النار ، و إعطائه الجواز على الصراط ، و كونه ساقي الكوثر ؛ و ذكرنا أيضاً مقام الشفاعة و ميزان العمل .

و يجب ان نعلم انّ اتّصافه عليه السلام بهذه الصفات لا ينافي قدرة الله تعالى ، بل هو عين الصفات التي في الله سبحانه ، لم تنسلخ عنه سبحانه حين أُعطيت لأميرالمؤمنين ففقد الله سبحانه قدرته ، بل هي عين صفات الله التي تظهر فيه عليه السلام في امتلاكه الولاية الكبرى ، بل انّ نفس الولاية هي عين تجلّيات و ظهورات حضرة الحقّ .

و عليه فانّ كلّ موجود راجع الى الله وحده ، و ما هو موجود في مقام الولاية ، انّما هو الاحتياج و الفاقة المحضة الى الذات المقدّسة ، كما هو الأمر في هذا العالم المادي حيث الموجودات مقدّرة و محدودة قُسّم بينها العلم و القدرة فاكتسب كلّ موجود منها حسب حاله و سعته ، لكنّ هذا التقسيم لا يتنافى مع وجود منبع العلم و القدرة و الحياة في الله ، و ليس مقسّمها من أحد غير الله تعالى .

كما انّ ظهورات التقسيم في أيّ مرحلة هي نفس ظهورات الله ، وكذلك الأمر في عالم العقل و الملكوت ، فانّ المقسّم هو الله ، لا تخرج الاستفادة و التقسيم عن صفاته و أسمائه ، لذا فانّ مقام الولاية و هو تقسيم المعارف و العلوم و الحياة على القلوب هو نفسه عمل الله تعالى وحده :

وَ مَا تَشَآءُونَ إِلّا أَن يَشَآءَ اللهُ [22] .

و على هذا فانّ أحداً لن يشاهد في القيامة التي هي عالم الظهور والبروز ، غير قدرة الله و عظمته و حياته ، و ستكون جميع الموجودات ازاء ذاته المقدّسه صفراً و عدماً .

يَوْمَ هُمْ بَرِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ [23] .

وَ بَرَزُوا لِلهِ الْوَ حِدِ الْقَهّارِ [24] .

وَ لَوْ يَرَى الّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَونَ الْعَذَابَ أَنّ الْقُوّةَ لِلهِ جَمِيعًا [25] .

و عموماً فانّ جميع أسماء و صفات الله التي حُصرت في القرءان الكريم ، مثل : إِنّ اللهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ [26] .

و فَلِلهِ الْحَمْدُ [27] .

و جميع درجات و مراتب الحمد و التمجيد (من أي موجود الى أيّ موجود) مختصّة بذات الله .

اللهُ لَآ إِلَهَ إِلّا هُوَ [28] .

هَوَ الْحَىّ الْقَيّومُ [29] .

إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ [30] .

إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ [31] .

و ستظهر في ذلك العالم ، و سيكون انحصارها بذات الحقّ المقدّسة مشهوداً .

انّ مقام الولاية هو نفس تلك الصفات والأسماء لا غيرها ، و لذلك فانّ ظهور تلك الصفات و الأسماء يُدعى بالولاية لا غيرها . و الحمد لله ربّ العالمين و صلّى الله على محمّد و ءاله الطاهرين .

تعليقات:

1) الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .
2) ذيل الأية 184 ، من السورة 2 : البقرة .
3) مقطع من الأية 11 ، من السورة 39 : الزمر .
4) صدر الأية 26 ، من السورة 11 : هود .

5) صدر الأية 72 ، من السورة 6 : الأنعام .

6) الأية 68 و 69 ، من السورة 16 : النحل .

7) وردت مصادر هذا الحديث في كتاب (معاد شناسي) معرفة المعاد ، المجلد الثاني ، المجلس التاسع .

8) مقطع من الأية 17 ، من السورة 8 : الأنفال .

9) مقطع من الأية 10 ، من السورة 48 : الفتح .

10) هو محمّد بن النعمان ، من خواص اصحاب الامام الصادق عليه السلام ، و كان يُدعى ب (مؤمن الطاق) لأنّه كان يمتلك دكّة تحت الطاق ، لكن أهل السنّة لقّبوه ب (شيطان الطاق) لمهارته في المناظرة و للعداء الذي يكنّه بعضهم لأهل البيت عليهم السلام .

11) صدر الأية 5 ، من السورة 12 : يوسف .

12) أُصول الكافيج 1 ، ص . 174

13) الأية 61 ، من السورة 3 : ءال عمران .

14) ينابيع المودّة) ، ص 52 و . 53

16.15) (ينابيع المودّة) ، ص . 53

18.17) (ينابيع المودّة) ، ص . 54

19) (ينابيع المودّة) ، ص . 54

21.20) (ينابيع المودّة) ص 54 و . 55

22) صدر الأية 30 ، من السورة 76 : الإنسان .

23) صدر الأية 16 ، من السورة 40 : غافر .

24) ذيل الأية 48 ، من السورة 14 : ابراهيم .

25) ذيل الأية 165 ، من السورة 2 : البقرة .

26) الأية 58 ، من السورة 51 : الذاريات .

27) صدر الأية 36 ، من السورة 45 : الجاثية .

28) صدر الأية 255 ، من السورة 2 : البقرة .

29) صدر الأية 255 ، من السورة 2 : البقرة .

30) ذيل الأية 1 ، من السورة 17 : الإسراء .

31) ذيل الأية 6 ، من السورة 44 : الدخان .

31) ذيل الأية 6 ، من السورة 44 : الدخان .

الدرس الثاني عشر: الهداية إلى الحقّ تلزم للعصمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقّ أَحَقّ أَن يُتَّبَعَ أَمّن لّا يَهِدّي إِلّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (1) .

يعلّم الله سبحانه رسول في هذه الأية المباركة كيفيّة محاججة المشركين ، و كيف يُثبت لهم أنّ شركاء الله لا يستحقّون الحمد والاتّباع ، وأساس هذا الاحتجاج قائم على لزوم اتّباع الصدق و الإعراض عن غير الحق .

و هذا الاحتجاج احتجاجٌ عقليّ لأنّه يستند الى أصل عام و كلّي ، و هو لزوم الاتّباع الدائم للحقّ ، و لذلك فانّه أفضل دليل للزوم اتباع الامام المعصوم . وعلينا . من أجل الورود في أصل الاحتجاج . أن نبيّن ذلك المبنى كمقدّمة للبحث .

لزوم اتّباع الحقّ:

انّ أحد الأحكام الفطريّة و العقليّة للإنسان ، هو لزوم اتّباع الحقّ ، وهذا الحكم قانون عام يستند عليه الإنسان دائماً ، و اذا ما انحرف عنه أحياناً في أعماله و أقواله فمال الى غير الحقّ بسبب هوى نفسه أو شبهة أو خطأ قد يبدر منه ، فانّه سيكون بسبب ظنّه أنّه حقّ ، و لقد تبع غيرالحق لالتباس الأمر عليه ، لذا فانّه حين يعتذر ، يجعل بأنّه قد ظنّ ذلك حقّاً .

و على هذا فانّ الحقّ واجب الاتّباع بدون أيّ قيد أو شرط ، و يتفرّع على هذا الأصل قاعدة اخرى ، هي انّ الذي يهدي الى الحقّ يجب اتّباعه لأنّه مع الحقّ و دالّ على الحقّ ، و بناءً على هذا يجب تقديمه في الاتّباع على الأخر الذي لا يدلّ على الحقّ أو الذي يدلّ على غير الحقّ ، لأنّ اتّباع الهادي الى الحقّ هو اتّباعٌ للحقّ الموجود معه .

و قد ذكرنا ءانفاً انّ اتّباع ذات الحقّ حكم ضروري فطريّ عقلي ، وعلى هذا الأساس أقام القرءان الكريم استدلاله ضدّ المشركين في هذه الأية المباركة ، فهو يسألهم أوّلاً باستفهام : قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مّن يَهْدِى إِلَى الْحَقّ (2) .

و من الجليّ انّ المشركين ليس لديهم جواب إيجابيّ في هذا المجال ، لأن الشركاء الذين يجعلونهم لله إمّا من الجمادات مثل الأصنام ، أو من الأحياء مثل الملائكة و أرباب الأنواع و الجنّ و طواغيت الزمان والفراعنة و حكّام الجور الذين يتابعونهم ، و من الواضح انّ أيّاً منهم لا يهدي الى الحقّ ، لأنّهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً و لا نفعاً و لا موتاً و لا حياةً و لا نشوراً . و لأنّهم ليس لديهم جواب ايجابيّ ، فانّ الله جعل على لسان نبيه ان يُجيبهم فوراً جواباً ابتدعه بنفسه فيقول : قُلِ اللهُ يَهْدِى لِلْحَقّ . الله هو الهاديالى الحقّ ، يهدي كلّ موجود في مقاصده التكوينيّة الى ما يحتاجه ، و هو الذي يرسل اليه ما يحتاجه ، كما في قوله تعالى :

رَبّنَا الّذِى أَعْطَى كُلّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى (3) .

فعندما سأل فرعونُ هارونَ و موسى : من ربّكما ؟ قالا : ربّنا الذي أعطى كلّ موجود في عالم الخلق احتياجاته الوجودية و خلقه تامّ الخلقة ، ثم هداه الى كماله .

و مثل قوله : الّذِي خَلَقَ فَسَوّى وَالّذِى قَدّرَ فَهَدَى [4] .

فانّ الله هو الذي خلق ثم لحظ في الخلقة التعادل و التناسب من جميع الجهات ، و هو الذي خلق كلّ موجود في العالم بقدر و حدّ معين ، ثم يسيّره في طريق الكمال . و بناءً على هذا فانّ الله هو الذي هدى الإنسان الى سعادة الدنيا ، و دعاه الى الجنّة و السعادة المطلقة بإرساله للأنبياء والكتب السماويّة و الأحكام الالهيّة .

لزوم اتّباع الامام المعصوم مبتنٍ على أصل لزوم اتّباع الحقّ:

و على كلّ حال ، فانّ رسول الله لمّا انتزع في مقام الاحتجاج اعترافيْن من المشركين ،

الأوّل : أنْ ليس من شركائهم من يهدي الى الحقّ .

و الثاني : أنّ الله هو وحده الهادي الى الحقّ .

فانّه يرى لزاماً و واجباً أن يسأل هذا السؤال :

أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقّ أَحَقّ أَن يُتّبَعَ أَمّن لّا يَهِدّى إِلّا أَن يُهْدَى ؟

و من الواضح انّ جواب هذا السؤال هو ان يقولوا انّ الله الذي يهدي الى الحقّ أحقّ أن يُتّبع ، بيد ان الكفّار و المشركين لا يلتزمون عمليّاً بهذا المنطق ، و يعبدون الشُركاء الذين لا يهدون الى الحقّ ، و يُعرضون عن عبادة الله الذي لا شريك له و الذي يهدي الى الحقّ ، و بذلك يجعلون حُجباً على القوى الفطريّة و الأحكام العقليّة ، و يتعاملون خلاف ناموس الفطرة والعقل . لذا فانّ النبيّ يُخاطبهم من باب التوبيخ و اللوم :

فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟

و ينبغي إعمال دقّة النظر عند المقابلة بين جملة أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقّ و بين جملة أَمّنْ لّا يَهِدّى إِلّا أَن يُهْدَى ، لنرى كيف جُعلت هاتان الجملتان عِدْلاً لبعضهما ؟

لأنّ من الواضح أنّ السائل بطريق الاستفهام ينبغي أن ينفي طرفاً من الجملة ، كأن يقول : أَرَأيْتَ زيداً أم لا ؟ أَدَرَسَ حَسنٌ أَمْ لَمْ يَدْرُس ؟

أمّا اذا استفهم مثلاً : أيدرس حسن أم انّه مغرورٌ بنفسه ؟ فانّ من اللازم ، من أجل أن تكون هذه المعادلة الاستفهاميّة صحيحة ، أن يُقال : انّ المغرور بنفسه لا يدرس .

و بناءً على ذلك فانّ هناك جملة منطوية و ضمنيّة في جملة (مغرور بنفسه) ، و هي (لا يدرس) .

و كذلك الأمر في هذا الجانب ، أي جملة (مغرور بنفسه) و التي سيكون عِدلها جملة (ليس مغروراً بنفسه) ؛ و لأن الجملة السابقة الاستفهاميّة تحوي جملة (يدرس) بدلاً من جملة (ليس مغروراً بنفسه) ، لذا يجب القول انّ جملة (ليس مغروراً بنفسه) منطوية و متضّمنة في هذه الجملة . و تكون النتيجة (حسن ليس مغروراً بنفسه و يدرس) أو (حسن مغرور بنفسه و لا يدرس) .

يجب أن يكون طرفا الجملة في الاستفهام نفياً و اثباتاً :

يدرس حسن مغرور بنفسه

ليس مغروراً بنفسه أو لا يدرس

و لم يكن في الأية المباركة أيضاً طرفي الجملة الاستفهاميّة (النفي والاثبات) لكي تنتفي الحاجة الى جملة ضمنيّة أُخرى (لأن يَهِدّى كان في الاصل يهتدي ، و القاعدة في باب الافتعال جواز إدغام تاء الافتعال في عين الفعل بعد قلبه الى عين الفعل) و تكون نتيجة المعنى : هل انّ الذي يهدي الى الحقّ أحقّ أن يُتّبع ، أم الذي لا يهتدي بنفسه الاّ بهداية الغير ؟ لأن جملة (يهدي الى الحقّ) عدلها جملة (لا يهدي الى الحقّ) .

لذا يُستفاد من ذلك انّ الذي لا يهتدي الاّ بهداية الغير لا يهدي الى الحقّ ؛ و كذلك فلأنّ جملة (مَن لاَ يَهِدّى إلاّ أَن يُهْدَى) سيكون عدلها (من يهتدي بنفسه) ، لذا يُستفاد انّ الذي يهدي الى الحقّ هو الذي يهتدي بنفسه و بذاته لا بهداية الغير .

من يهدي الى الحقّ من لا يهدّي (يهتدي) الاّ أن يُهدى

أحقّ أن يُتّبع

من يهتدي بنفسه من لا يهدي الى الحقّ

و لذلك فانّه يستفاد من هذه الأية جيّدًا انّه يجدر بالإنسان أن يتّبع من يهدي الى الحقّ ، و هو بالطبع من يهتدي بنفسه لا بهداية غيره ، و ذلك هو الإمام المعصوم الذي لا يعبد غير الله في أيّ لحظة ، و لا يصدر منه أيّ معصية ، و مثل هذا الإنسان قد اهتدى على يدالله نفسه دون تدخّل واسطةٍ ما ؛ أمّا من عَبَدَ غيرالله مدّةً ، أو من صدرت منه معصية مهما تنبّه واهتدى فعلاً على يد الغير فصار عابداً لله و عادلاً ، لكنّه غير لائق لمقام الإمامة و لا للاتّباع .

و يجب أن نعلم بالطبع انّ كلمة (أحقّ) في الأية الشريفة ، و هي من أدوات التفضيل و الدالّة على رجحان متابعة الحقّ لا لزومه ، مبنيّة على قواعد فنّ المناظرة و المباحثة لتحريك عصبيّة الطرف المقابل ، و الّا فانّ من الجليّ انّ تبعيّة غير الحقّ غير جائزة كليّاً ، و انّ اتّباع الحقّ لازم وواجب في كلّ الأحوال ، و بالنتيجة فانّ اتّباع الإمام المعصوم واجب ، و اتّباع الإمام غير المعصوم حرام .

هذه هي احدى الطرق الاستدلاليّة التي احتجّ بها كبار علماء الشريعة في لزوم اتّباع الإمام المعصوم ، و نقلوا تبعاً للروايات المتواترة عن رسول الله : أنّ أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام لم يعبد صنماً ءانا واحداً و لم يرتكب معصية و لو للحظةٍ واحدة ، و لا مكان للشكّ في انّه تربّى في حضن رسول الله ، و كان أوّل شخص ءامن بالرسول و هو صبيّ لم يبلغ الحلم .

نُقل في (الأمالي) للشيخ الطوسي مسنداً ، و كذلك في (المناقب) لابن المغازلي مرفوعاً عن ابن مسعود عن النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] وسلّم في الأية : [لَا يَنَالُ عَهْدِى الظّٰلِمِينَ] عن قول الله لابراهيم : مَن سَجَدَ لِصَنَمٍ دُونِي لَا أَجْعَلُهُ إمَامًا . قال عليه السّلام : وَ انْتَهَت الدّعْوَةُ إلَيّ وَ إلَى أَخِي عَلِيٍّ ، لَمْ يَسْجُدْ أَحَدُنَا لِصَنَمٍ قَطّ [5] .

عَلِيّ مَعَ الْحَقّ وَالْحَقّ مَعَ عَلِيّ :

يروي السيّد هاشم البحراني [6] خمس عشرة رواية عن طريق العامّة واحدى عشرة رواية عن طريق الخاصّة في انّ علياً مع الحقّ و الحقّ مع عليّ ، و في انّه قال صلّى الله عليه و ءاله في شأنه : اللهم أدر الحقّ معه حيثما دار ، و في لزوم متابعته و الإقتداء بسيرته ، و نذكر هنا باختصار و بحذف السند الروايات التي نقلت عن العامّة مع احدى الروايات التي نقلت عن طريق الخاصّة .

1 . يروي ابراهيم بن محمد الحمويني ، و هو أحد علماء العامّة ، و

2 . الموفّق بن أحمد الخوارزمي باسنادهما المتّصل عن شهر بن حوشب ؛ و

3 . الزمخشري في (ربيع الأبرار) مُرسلاً [7] ، قال شهر بن حوشب : كنتُ عند أمّ سلمة رضي الله عنها ، إذ استأذن رجل فقالت له : من أنت ؟

قال : أنا أبو ثابت مولى عليّ عليه السلام .

فقالت أمّ سلمة : مرحباً بك يا أبا ثابت أُدخل ، فدخل و رحّبت به .

ثم قالت : يا أبا ثابت أين طار قلبك حين طارت القلوب مطائرها ؟

قال : تَبَع عليٍّ عليه السلام .

فقالت : وُفّقتَ و الذي نفسي بيده ؛ لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول : عليّ مع الحقّ و القرءان ، و الحقّ و القرءان مع عليّ ، و لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض . [8] و [9]

و ورد في رواية الموفّق بن أحمد الخوارزمي أنّ أبا ثابت قال : مولى أبي ذر ، ثم يقول بعد بيان حديث أمّ سلمة : وَ لَقَدْ بَعَثْتُ ابْنِي عُمَرَ ، وَابْنَ أَخِي عَبْدِالله بْنِ أَبِي أُمَيّه ، وَ أَمَرْتُهُمَا أَنْ يُقَاتِلاَ مَعَ عَلِيّ مَنْ قَاتَلَهُ ، وَلَو لَا أَنّ رَسُولَ اللهِ أَمَرَنَا أَنْ نَقِرّ فِي حِجَالِنَا وَ فِي بُيُوتِنَا لَخَرَجتُ وَ كُنتُ حَتّى أَقِفَ فِي صَفّ عِلِيّ .

4 . يروي الحمويني باسناده المتّصل عن أبي حيّان التميمي ، عن أبيه ، عن عليّ عليه السلام .

5 . في كتاب (الجمع بين الصحاح الستّة) تأليف رزين إمام الحرمين ، عن (صحيح البخاري) ، عن أميرالمؤمنين عليه السلام .

6 . من الجزء الأول من كتاب (الفردوس) ، عن أميرالمؤمنين عليه السلام .

7 . يروي الموفّق بن أحمد الخوارزمي باسناده المتّصل عن أبي الحباب التيمي ، عن أبيه ، عن عليّ عليه السلام قال : قالَ رَسُولُ اللهِ : رَحِمَ اللهُ عَلِيّاً ، اللَهُمّ أَدِرِ الْحَقّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ . و يقول الخوارزمي : أخرجه أبوعيسى الترمذي في جوامعه .

8 . يروي الحمويني باسناده المتّصل عن أخي دعبل الخزاعي ، عن هارون الرشيد ، عن الأزرق بن قيس ، عن عبدالله بن عبّاس قال : قالَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : الْحَقّ مَعَ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ حَيْثُ دَارَ [10] .

9 . عن كتاب (فضائل الصحابة) باسناده المتّصل عن الأصبغ بن نباته ، عن محمد بن أبي بكر ، عن عائشة قالت : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول : عَلِيّ مَعَ الْحَقّ وَالْحَقّ مَعَ عَلِيّ ، لَنْ يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيّ الْحَوْضَ .

10 . الموفّق بن أحمد الخوارزمي باسناده المتّصل عن شريك ، عن سليمان الأعمش ، عن ابراهيم ، عن علقمة و الأسود قالا : سَمِعْنَا أَبا أيّوب الأنصاري قال : سَمِعتُ النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقولُ لِعَمّار بن يَاسِر : تَقْتُلُكَ الْفِئَةُ البَاغِيَةُ وَ أَنْتَ مَعَ الْحَقّ وَالْحَقّ مَعَكَ يَا عَمّارُ ، إِذَا رَأَيتَ عَلِيّا سَلَكَ وَادِيًا وَ سَلَكَ النّاسُ وَادِيًا غَيْرَهُ : فَاسْلُك مَعَ عَلِيّ وَدَعِ النّاسَ ، إنّهُ لَنْ يَدُلّكَ عَلَى رَدَىً ، وَ لَنْ يُخْرِجُكَ عَنْ الهُدَى .

يَا عَمّارُ إنّهُ مَنْ تَقَلّدَ سَيْفاً أَعَانَ بِهِ عَلِيّا عَلَى عَدُوّهِ ، قَلّدَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وُشَاحًا مِن دُرّ ، وَ مَنْ تَقَلّدَ سَيْفًا أَعَانَ بِهِ عَدُوّ عَلِيّ قَلّدَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَشَاحًا مِن نَارٍ . قالَ : قُلْتُ : حَسْبُكَ .

لقاء علقمة و الأسود عند أبي أيّوب الأنصاري و المذاكرة في خلافة عليّ عليه السلام :

11 . يروي ابراهيم بن محمّد الحمويني باسناده المتّصل عن الأعمش ، عن ابراهيم ، عن علقمة و الأسود قال : قالا : أَتَيْنَا أَبَا أَيّوبَ الأَنْصَارِيّ وَقُلْنَا لَهُ : يَا أَبَا أَيّوبَ ! إنّ اللهَ تبارَكَ و تعالى أَكْرَمَ نَبِيّهُ صلّى الله عليه [و

ءاله] و سلّم وَ صَفَا لَكَ مِنْ فَضْلِهِ مِنَ اللهِ فَضّلَكَ بِهَا ! أَخْبِرْنَا بِمَخْرِجِكَ مَعَ عَلِيٍّ عليه السّلامُ تُقَاتِلُ أَهْلَ لاَ إِلَهَ إِلّا اللهُ ! (يقصدان حربه مع أصحاب معاوية المسلمين ظاهراً) .

فقال (أبو أيّوب) : أُقسِمُ لَكُمَا بِاللهِ ، لَقَدْ كَانَ رَسُولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم فِي هَذَا الْبَيْتِ الّذِى أَنْتُمَا فِيهِ مَعِي ، وَ مَا فِي الْبَيْتِ غَيْرُ رَسُولِ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم و عَلِيّ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِهِ وَ أَنَا جَالِسٌ عَن يسارِهِ ، وَ أَنَسٌ قَائِمٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، إذ حرّكَ البابَ ، فَقالَ رسولُ الله صلّى الله عليه [و اله] و سلّم : إفْتَح لِعَمّارِ الطَيّبِ الْمُطَيّبِ .

فَفَتَحَ النّاسُ (11) البَابَ وَ دَخَلَ عَمّار ، فَسَلّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ فَرَحّبَ بِهِ ؛ ثُمّ قَالَ لِعَمّارٍ ، إِنّهُ سَيَكُونُ فِي أُمّتِي بَعدِي هُنَاة ، حَتّى يَخْتَلِفَ السّيفُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَحَتّى يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَاً ، فَإِذَا رَأَيْتَ ذَلِكَ فَعَلَيْكَ بِهَذَا الأَصْلَعِ عَنْ يَمِينِي ، يَعنِي عَلِيَّ بْنَ أَبِي طالبٍ .

فَإن سَلَكَ النّاسُ كُلّهُمْ وَادِيًا وَ سَلَكَ عَلِيّ وَادِيًا ، فَاسْلُك وَادِيَ عَلِيّ عليه السّلامُ وَ خَلّ عَنِ النّاسِ . يَا عَمّارُ ! إنّ عَلِيّاً لاَ يَرُدّكَ عَنْ هُدَىً وَ لَا يَدُلّكَ عَلَى رَدَىً . يَا عَمّارُ ! طَاعَةُ عَلِيّ طَاعَتِي ، وَ طَاعَتِي طَاعَةُ الله عَزّ وَجَلّ .

12 . الموفّق بن أحمد الخوارزمي ، باسناده المتّصل عن أبي ليلى قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : سَتَكُونُ مِنْ بَعْدِي فِتْنَةٌ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْزَمُوا عَلِيّ بنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَإِنّهُ الْفَارُوقُ الأَكْبَرُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْحَقّ وَالْبَاطِلِ (12) .

13 . الحمويني بإسناده عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن حُذيفة قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : عَلِيّ طَاعَتُهُ طَاعَتِي وَمَعْصِيَتُهُ مَعْصِيَتِي .

14 . عن كتاب (الفردوس) بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : تَفْتَرِقُ أُمّتِي فِرقَتَينِ ، فَيَمْرُقُ بَيْنَهُمَا فِرقَةٌ مَارِقَةٌ ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطّائِفَتَيْنِ بِالْحَقّ .

15 . يروي عامر الشعبي ، و هو من النواصب و المنحرفين عن أميرالمؤمنين ، عن عروة بن الزبير ، عن أبي بكر قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ : أَلْحَقّ مَعَ عَلِيّ وَ عَلِيّ مَعَ الْحَقّ .

كانت هذه هي الروايات التي ذُكرت في (غاية المرام) عن طريق أهل السنّة ، و لقد نُقلتْ احدى عشرة رواية عن طريق الشيعة ، نكتفي بذكر إحداها :

عيادة عطا لعبدالله بن عبّاس و التذاكر في خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام:

ينقل ابن بابويه باسناده المتّصل عن عبدالحميد الأعرج ، عن عطا قال :

دخلنا على عبدالله بن العبّاس و هو عليل بالطائف و قد ضعف ، فسلّمنا عليه و جلسنا ، فقال لي : يا عطا ، مَن القوم ؟

فقلت : يا سيّدي شيوخ هذا البلد ، منهم عبدالله بن سلمة بن هرم ، وعمارة بن الأجلح ، و ثابت بن مالك ، فمازلتُ أذكر له واحداً بعد واحد ، ثمّ تقدّموا اليه و قالوا : يابن عمّ رسول الله ! انّك رأيتَ رسول الله صلّى الله عليه و ءاله و سمعتُ منه ما سمعتَ ، فأخبرنا عن اختلاف هذه الأمّة ، فقومٌ قدّموا عليّاً على غيره ، و قومٌ جعلوه بعد ثلاثة !

قالَ : فَتَنَفّسَ ابنُ عَبّاس فقال : سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وءاله يقول : عَلِيّ مَعَ الْحَقّ وَالْحَقّ مَعَ عَلِيٍّ ، وَ هُوَ الإِمَامُ والْخَلِيفَةُ بَعْدِي ، فَمَنْ تَمَسّكَ بِهِ فَازَ وَ نَجَا ، وَ مَنْ تَخَلّفَ عَنْهُ ضَلّ وَ غَوَى ، يَلِي تَكْفِينِي

وَغَسلِي وَ يَقْضِي دَيني وَ أَبُو سِبْطَيّ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، وَ مِنْ صُلْبِ الْحُسَينِ تَخْرُجُ الأَئِمّةُ التّسعَةُ ، وَ مِنّا مَهدِيّ هَذِهِ الأُمّةِ .

فقال له عبدالله بن سلمة الحضرمي : يابن عمّ رسول الله صلّى الله عليه و ءاله ، فهل لا كنت تعرفنا قبلُ ؟!

فقال : قد واللهِ أدّيتُ ما سمعتُ وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبّونَ النّاصِحِينَ .

ثُمّ قال : اتّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ تَقِيّةَ مَنِ اعْتَبَرَ تَمْهِيدًا ، وَ أَبقَى فِي وَجَلٍ ، وَكَمَشَ فِي مَهَلٍ ، وَ رَغِبَ فِي طَلَبٍ ، وَ هَرَبَ فِي هَرَبٍ ، فَاعْمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ قَبْلَ حُلُولِ ءاجَالِكُمْ ، وَ تَمَسّكُوا بِالْعُروَةِ الْوُثْقَى مِنْ عِتْرَةِ نَبِيّكُمْ ، فَإِنِيّ سَمِعْتُهُ صلّى الله عليه و ءاله و سلّم يَقُولُ : مَن تَمَسّكَ بِعِتْرَتِي مِنْ بَعْدِي كَانَ مِنَ الْفَائِزِينَ .

ثمّ بكى بكاءً شديداً ، فقال له القوم : أتبكي و مكانك من رسول الله صلّى الله عليه و ءاله مكانك ؟!

فقال لي : يا عطا انّما أبكي لخصلتين لِهَولِ المُطّلعِ و فِرَاقِ الأحِبّةِ .

ثم تفرّق القوم فقال : يا عطا خُذ بيدي واحملني الى صحن الدار ، فأخذنا بيده أنا و سعيد و حملناه الى صحن الدار ، ثمّ رفع يديه الى السماء وقال : اللَهُمّ إنّي أَتَقَرّبُ إلَيْكَ بِمُحَمّدٍ وَ ءَالِ مُحَمّدٍ اللَهُمّ إنّي أَتَقَرّبُ إلَيْكَ بِوِلاَيَةِ الشّيخِ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَمَا زَالَ يُكَرّرُهَا حَتّى وَقَعَ عَلَى الأرضِ ، فَصَبَرنَا عَلَيهِ سَاعَةً ثُمّ أَقَمْنَاهُ فَإِذَا هُوَ مَيّتٌ رحمة اللهِ عليه (13) .

سبب مخالفة المعاندين لخلافة أميرالمؤمنين:

و على كلّ حال ، فلو سأل سائل : كيف حصل . مع وجود هذه النصوص الصريحة الواصلة عن رسول الله ، و التي نقل الكثير منها الخلفاء الثلاثة و عائشة بأنفسهم . أن صرف هؤلاء الخلافة عنه عليه السلام ، فارتقوا منبر النبيّ و تربّعوا في مقام الخلافة بدلاً من أميرالمؤمنين ؟

فالجواب هو قول رسول الله الذي رواه أهل السنة أيضاً : حُبّكَ الشّىءَ يُعْمِي و يُصِمّ (14) .

فمن أحبّ شيئاً و كانت محبّته هذه نابعة من الإحساسات ، و كان هوى النفس و القوى الدنيّة مؤثرة في نشأتها ، فانّ ذلك الشخص سيكون أعمى و أصمّ بالنسبة الى غير ذلك المقصود و المحبوب ، اي أنّه لن يرى غير ذلك الهدف و لن يسمع غير ذلك الكلام . و ليس خفيّاً على أرباب الملل و النحل ، و لا مُبهماً على المطّلعين على السيرة و التاريخ ، أنّ غصب مقام الخلافة من ءال بيت الرسول صلى الله عليه و ءاله لم يكن له من داعٍ الّا حبّ الحكومة و الترؤّس على المسلمين ، و الاّ بروز النزعة الشخصيّة ، لذا فان جميع هذه الأحاديث و النصوص لن تجدي شيئاً مع وجود تلك الغريزة المهلكة ، فستدفع بها جميعاً . عندما تريد نيل هدفها . الى طوفان البلاء ليجرفها أشبه بقشّة و أعشاب يابسة ، و لا تتورّع عن مواجهتها لهدفها عن محاربة أهل البيت ، أو عن إحراق باب بيت بضعة رسول الله ، أو عن اقتياد مقام الولاية و جرّه الى المسجد قسراً ، ثمّ السعي بحدّ السيف المُشرع للإدّعاء بتسليمه و خضوعه مقابل هذه التعدّيات .

و هذه مسألة يجب التأمّل و التدقيق فيها ، لأنّ مقام العلم و إدراك الحقائق أمر ، و مرحلة خضوع النفس و انقيادها الى الحقّ أمر ءاخر منفصل عنه ، و هكذا فانّ الكثير من الذين تردّوا في بئر الطبيعة و هاويتها لم يحصل ذلك لهم بجهلهم بطريق الصلاح ، فما أكثر من امتلك منهم علماً كافياً فصار يميّز جيّداً بين القبيح و الحسن ؛ ولكنهم أوقعوا أنفسهم عملاً . بسيطرة القوى النفسيّة وعدم انقيادها لملكة العقل وبغلبة الغرائز الشهويّة . في مثل تلك الاعمال القبيحة الذميمة .

لذا فانّ دعوة الأنبياء و الأئمّة الأطهار مبنيّة على إصلاح النفس والخضوع و الانقياد أمام الحق ، قال الله العليّ الأعلى :

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّيهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسّيهَا [15] .

لقد كان عُمر يعلم جيداً بمقام و منزلة و شخصيّة المولى أميرالمؤمنين ، فهناك روايات كثيرة وردت عن أهل السنّة يعترف فيها بنفسه بذلك ، و ينقل بشأنها الأحاديث عن رسول الله ، و لكن . و كما ذُكر . فانّ اتّباع الحقّ يستلزم طهارة النفس و صفاء الباطن و الأنقياد ، وأين هذا ؟

يقول العلّامة الأميني : أخرج الحافظ الدار قطني و ابن عساكر : انّ رجلين أتيا عمر بن الخطاب و سألاه عن طلاق الأمَة ، فقام معهما فمشى حتّى أتى حلقة في المسجد فيها رجلٌ أصلع فقال : أيّها الأصلع ما ترى في طلاق الأمَة ؟! فرفع رأسه اليه ثم اوحى اليه بالسبّابة و الوسطى ، فقال لهما عمر : تطليقتان .

فقال أحدهما : سُبحان الله ، جئناك و أنت أميرالمؤمنين فمشيتَ معنا حتّى وقفتَ على هذا الرجل فسألتَه فرضيتَ منه أن أومى اليك .

فقال لهما : تدريان مَن هذا ؟ قالا : لا .

قال : هذا عليّ بن أبي طالب ، أُشهِدُ عَلَى رَسُولِ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم لَسَمِعْتُهُ وَ هُوَ يَقُولُ : إنّ السّمَاوَاتِ السّبْعَ وَالأَرَضِينَ السّبْعَ لَوْ وُضِعَا فِي كَفّةٍ ثُمّ وُضِعَ إيمَانُ عَلِيٍّ فِي كَفّةٍ لَرَجَحَ إيمَانُ عَلِيّ بنِ أَبِي طالِبٍ [16] .

ثمّ يقول العلّامة الأميني : و في لفظ الزمخشري : جئناك و أنت الخليفة فجئتَ الى رجل فسألتَه ، فوالله ما كلّمتُكَ . فقال له عمر : ويلك أتدري من هذا ؟ الحديث .

و نقله عن الحافظين : الدار قطني و ابن عساكر : الكبخي في (الكفاية) ص 129 و قال : هذا حسنٌ ثابت . و رواه من طريق الزمخشري خطيب الحرمين الخوارزمي في (المناقب) ، ص 78 ، و السيّد علي الهمداني في (مودّة القربى) ، و حديث الميزان [17] .

رواه عن عمر محبّ الدين الطبري في (الرياض) ، ص 244 ، والصفوري في (نزهة المجالس) ، ج 2 ، ص . 240

تعليقات:

1) ذيل الأية 35 ، من السورة 10 : يونس .

2) صدر الأية 35 ، من السورة 10 : يونس .

3) الأية 50 ، من السورة 20 : طه .

4) الأية 2 و 3 ، من السورة 87 : الأعلى .

5) تفسير الميزان) ، ج 1 ، ص . 282

6) غاية المرام) ، ص 539 و ص . 540

7) يقول الزمخشري : استأذن أبو ثابت مولى عليّ ... الخ .

8) وينقل هذه الروايات الثلاثة في (ينابيع المودّة) ، ص 90 بأدنى اختلاف في اللفظ .

9) يروي (ينابيع المودّة) ص 90 عن جمع الفوائد معيّة عليّ للقرءان و عدم افتراقهما حتّى يردا الحوض ثم يقول : للأوسط و الصغير .

10) و يذكر هذه الرواية أيضاً في (ينابيع المودّة) ، ص . 91

11) الظّاهر انّه (أنس) .

12) روى هذه الرواية في (ينابيع المودّة) ، ص 82 عن (الإصابة) بأدنى تغيير ، ويقول : و في كتاب (الإصابة) ، أبو ليلى الغفاري قال : سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه [وءاله] وسلّم يقول : تكون من بعدي فتنة ، فاذا كان ذلك فالزموا عليّ بن أبي طالب ، فانّه أوّل من ءامن بي ، و أوّل من يصافحني يوم القيمة ، و هو الصدّيق الأكبر ، و هو فاروق هذه الأمّة ، و هو يعسوب المؤمنين ، و المال يعسوب المنافقين .

13) غاية المرام) ، ص 541 ؛ و قد أورد في كتاب (عليّ و الوصيّة) من ص 61 الى 65 أحاديثاً باسناد مختلفة في معيّة أميرالمؤمنين للحقّ و القرءان .

14) روى المسعودي هذا الحديث في (مروج الذهب) ، ج 2 ، ص . 302

15) الأية 9 و 10 ، من السورة 91 : الشمس .

16) الغدير) ، ج 2 ، ص . 299

17) يعني ذيل الحديث اعلاه ، اي جملة : لو انّ السموات السّبع ... الخ .

17) يعني ذيل الحديث اعلاه ، اي جملة : لو انّ السموات السّبع ... الخ .

الدرس الثالث عشر: معنى هداية الأئمّة ، و شرائط الهادي إلى الحقّ

بسم الله الرّحمن الرّحيم

و صلّى اللهُ على محمّد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن الى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوّة الّا بالله العليّ العظيم

قال اللهُ الحكيم في كتابه الكريم :

أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقّ أَحَقّ أَن يُتّبِعَ أَمّن لّا يَهِدّى إِلاّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (1) .

جرى البحث في الفصل السابق مفصّلاً حول هذه الأية المباركة ، وكانت النتيجة انّ الهادي الى الحقّ يجب حتماً أن تكون هدايته بنفسه لا بغيره ، و أنّ مَن كان مِن أهل الشرك و المعصية و من اهتدى بغيره لا يمكن ان يكون إماماً و لا يمكنه هداية الناس الى الحقّ ، و يلزم هنا ذكر نكات عدّة :

الاولى : انّ المراد بالحقّ في الأية الشريفة المعنى الحقيقي و ليس معنى الحقّ المبني بنحوٍ ما على التساهلات العرفيّة في ألسنة الناس ، كما يُشاهد انّهم ينسبون الهداية للحقّ لكلّ من يتكلّم بالحقّ ، حتى لو كان معتقداً بذلك أو غير معتقد ، و سواءً عمل بذلك الاّ انّ نفسه لم تتحقّق به أو لم يعمل ، و سواءً اهتدى بنفسه أم لم يهتدِ . فهذه بأجمعها ليست هدايةً للحقّ ، بل انّها تدعى هداية الى الحقّ من باب المسامحات العرفيّة ، فالهداية الى متن الحقّ هي الوصول الى متن الواقع ، و هي فقط لله وللواصلين اليه سُبحانه دون واسطة الغير .

الثانية : انّ المراد بالهداية الى الحقّ في هذه الأية ، هو الإيصال الى المطلوب ، لا بمعنى إراءة الطريق الى الله ، لأنّ من البديهي انّ إراءة الطريق أمرٌ سهل ممكن لكلّ شخص ، سواءً كان إماماً أم لم يكن ، و سواءً اهتدى بنفسه أم بغيره ، و سواءً كان ضالّاً غير مهتد أصلاً ؛ فالهداية بمعنى إراءة الطريق ستكون على كلّ حال أمراً ممكناً لهم ، ولكنّ الإيصال الى متن الواقع و الحقّ و كمال كلّ موجود أمرٌ مختصٌ بالمهتدين بأنفسهم و الهادين الى الحقّ .

الثالثة : انّ المراد بجملة (لا يَهِدّى إِلّا أَن يُهْدَى) هو الذي لم يهتدِ بنفسه ، و هو أعمّ من غير المهتدي أصلاً ، أو المهتدي بالغير ، و الدليل على عموميّتها أنّ جملة (إلاّ أن يُهْدَى) و هي استثناء من جملة (لاَ يَهِدّى) جاءت مع (أَنْ المصدريّة) . و هذه الجملة لا تدلّ على تحقّق الوقوع ، خلافاً للمصدر المضاف .

و هناك فرق بين أن نقول (أعجبني ضربُك) أو أن نقول (أعجبني أن تضرب) ، فالإعجاب من نفس الضرب في الصورة الاولى متحقّق في الخارج ، بينما الإعجاب في الصورة الثانية من إمكان تحقّق الضرب ، و قد نصّ على هذا المطلب الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) .

و على ذلك فانّ جملة (إلّا أَن يُهْدَى) لا تعني كونه الأن مهتدياً بالغير ، بل تعني انّه (ولو أمكن أن تصل الهداية ا ليه من الغير) . و من الواضح انّ الهداية من الغير ستكون في حال قبول الهداية ، و امّا اذا كان غير قابل للهداية فانّ الهداية من الغير لن تصل اليه ، و لذلك فانّ جملة (لَا يَهِدّى) باقية على عمومها و سيكون معناها : لم يهتدِ بنفسه ، سواءً لم يجد الهداية أو كان قابلاً للهداية فاهتدى بغيره .

الإمام يجب ان يكون مهتدياً بالحقّ و في ذلك شروط ثلاثة:

و عموماً فانّ الإمام هو الذي يكون مهتدياً الى الحقّ ذاتيّاً ، و ليس من فئة من الفئتين اللتين مرّ ذكرهما ، و على هذا فانّ الإمام هو المصون من الضلالة و المعصية ، اي انّه أوّلاً لا يخطأ في تلقّي المعارف الالهيّة والإلهامات الرحمانيّة ، و انّ متن الواقع ينعكس في قلبه دون اضطراب أو تدخّل النفس التي تغيّره الى صورة أخرى و تفسّره على نحوٍ ءاخر .

و ثانياً : انّ الامام هو الذي يقوم . في ابلاغ الاحكام و هداية الناس من جانب الباطن والظاهر . بتحريكهم على طريق مستقيم لا عوج فيه .

و ثالثاً : أن لايكون الإمام نفسه مبتلياً بالمعصية و ظلم النفس ، و قد استفدنا هذه المعاني من جملتي (وَ جَعَلْنَهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ) [2] .

و يستفاد أيضاً من الأية الخاصّة بابراهيم و التي سأل فيها الإمامة لذريّته ، أنّ الإمامة لا ينالها الظالم ، لأنّ تعبير الظالم ورد في الأية بشكل مُطلق : لَا يَنَالُ عَهْدِى الظّلِمِينَ [3] ، أي انّ عهدي لاينال ظالماً و لو كان ظلمهُ محدوداً ؛ و على العكس فانّ عهدي ينال اولئك الذين ليسوا ظالمين على نحوٍ مطلق ، و هذا هو عين العصمة .

انّ الإمام هو الذي لم يرتكب طوال عمره أي ذنب ، امّا من ارتكب الذنب الصغير أحياناً ، أو من بدر منه ظلمٌ أو شرك ثم تاب منه فامّحى أثر ذلك الذنب ، فانّه لا يكون إماماً .

يقول العلّامة الطباطبائي (مُدّ ظلّه العالي) [4] في تفسير هذه الأية الشريفة : و قد سُئل بعض أساتيدنا رحمة الله عليه عن تقريب دلالة الأية على عصمة الإمام ، فأجاب : إنّ الناس بحسب القسمة العقليّة على أربعة أقسام : مَن كان ظالماً في جميع عمره ، و من لم يكن ظالماً في جميع عمره ، و من هو ظالم في أوّل عمره دون ءاخره ، و من هو بالعكس من هذا . وإبراهيم عليه السلام أجلّ شأناً من أن يسأل الإمامة للقسم الأولّ والرابع من ذريّته ، فبقي قسمان و قد نفى الله أحدهما ، و هو الذي يكون ظالماً في أوّل عمره دون ءاخره ، فبقي الأخر ، و هو الذي يكون غير ظالم في جميع عمره ، و هذا هو معنى العصمة . [5] و [6]

و إجمالاً فانّ كلّ ما استدللنا عليه من ءايات القرءان هو سبع مسائل من أهم مسائل الإمامة التي تقول بها الشيعة و تصرّ عليها و التي تمثّل الحدّ الفاصل بينهم و بين أهل السنّة (الذين لا يعتبرون أيّاً منها شرطاً للإمامة) .

المسألة الاولى: الإمامة غير قابلة للانتخاب

المسألة الاولى : انّ الإمامة ليست قابلة للاختيار و الانتخاب ، بل هي مجعولة بجعلٍ الهيّ يُعلن للناس من قبل النبّي او الإمام السابق ، او باتّضاح الإمام نفسه للناس بواسطة النصوص و المعجزات ، لأنّه أولاً . و كما قلنا . فانّ الله سبحانه و تعالى يعرّف هذا المنصب في القرءان الكريم بعنوان (الجعل و التنصيب الالهيّ) ، حيث ورد :

قَالَ إِنّى جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمَامًا [7] .

و يقول أيضاً : وَ جَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمّا صَبَرُوا [8] .

و يقول أيضاً : وَ جَعَلْنَهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَ تِ [9] .

و في جميع هذه الأيات التي ذكرت منصب الإمامة ، فانّها أوردت عنوان الجعل الالهيّ .

ثانياً : انّ الإمامة قوّة الهيّة فينفس الإمام يحصل بواسطتها على الاطّلاع على ملكوت و نفوس الأشياء و يسيطر عليها ، كما هو مستفاد من جملة يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، فمن كانت فيه هذه القوّة كان هو الإمام ، و من خلا منها لم يكن إماماً .

و لا دخل للاختيار و الانتخاب في هذا الأمر ، ليس لجهة قولنا انّ الناس باعتبار جهلهم بالملكوت و بمقام العصمة لا يمكنهم معرفة الامام ، ولذا فانّ انتخابهم و اختيارهم ليس صحيحاً ، بل اننا لو فرضنا انّ جميع الناس صار لهم اطّلاع على ملكوت الأشياء و روحها ، و انّ الله قد أعطاهم نوراً يمكنهم به تشخيص مقام العصمة ، فانّ الإمامة . مع ذلك . لن تكون قابلة للانتخاب ، لأنها . و كما قلنا سابقاً . ملكة الهيّة و قوّة قدسيّة موجودة في نفس الإمام ، و ليس هناك من معنى للقول بأنّ الانسان ينتخب موجوداً خارجياً ، فالموجود الخارجي موجود و لا يحتاج الى انتخاب الانسان ليوجد .

أمن الصحيح أن نقول للعالِم الذي صارت لديه مَلَكة استنباط الأحكام : انّنا ننتخب اجتهادك ؟ أو نقول للبطل الفائز في المسابقات والذي وصلت القدرة في بدنه الى الفعليّة : انّنا ننتخب قوّتك ؟ أو نقول لحافظ القرءان الكريم : انّنا ننتخب حفظك ؟! كلّا بالطبع ، فهذا الكلام ليس صحيحاً أبداً .

انّ الانتخاب يحصل في الأمور الاعتباريّة التي دورانها بيد الاعتبار والانتخاب ، و التي توجد بواسطة الانتخاب و تفنى بعدمه . امّا في الأمور التكوينيّة و الواقعيّة التي وجدت قبل مرحلة الانتخاب و امتلكت وجودها ، فانّ الانتخاب ليس له مجال فيها أبداً .

المسألة الثانية: انّ الامام يجب أن يكون معصوماً حتماً

المسألة الثانية : انّ الإمام يجب حتماً ان يكون معصوماً بعصمة الباري جلّ و عزّ ، و قد استنتجنا بعض الاستنتاجات في هذا الباب من ءايات : لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظّلِمِينَ . و جملة : يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا و جملة : وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيرَاتِ ؛ و أصبح معلوماً أنّ الإمام حينما عبر جميع مراحل النفس و تحقّق بوجود حضرة الحقّ ، و تحكّمت في وجوده إرادة و مشيئة الحقّ دون تدخّل النفس الأمّارة ، و صار فعله نفس وحي الله ، لذا فانّ ذلك الإمام معصوم و منزّه عن كلّ دنس نفسي ، و هذا هو معنى العصمة .

كما اننا استفدنا المصونيّة و العصمة من ءاية : فَإِنّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (10) .

بحيث أوضحت الأيات القرءانيّة هذه الحقيقة بشكل كامل .

المسألة الثالثة: انّ الإمام يجب ان يكون مؤيّداً من قبل الله تعالى

المسألة الثالثة : ان الامام يجب ان يكون مؤيّداً من عندالله ، أي انّ علومه و إدراكاته تحصل في نفسه بواسطة اليقين و الإلهامات الغيبيّة ، ويكون الله هو المتكفّل بأموره ، و قد أستفيد هذا الأمر من جملة : وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ (11) ، و جملة : لَمّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بِأَيَتِنَا يُوقِنُونَ (12) ، و جملة : يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا (13) ، لإنّ الإمامة تستلزم امتلاك مقام اليقين ، و مقام اليقين كما ذُكر ليس ميسوراً دون انكشاف الملكوت و حقيقة الأشياء و بناءً على هذا فانّ الله سبحانه و تعالى يؤيّده كلّ لحظة بانكشاف الملكوت و الهداية بأمر الله .

المسألة الرابعة: انّ الأرض لاتخلو من حجّة أبداً

المسألة الرابعة : انّ الأرض و جميع الأفراد الذين يعيشون عليها لهم إمام في كلّ زمان ، و لا يمكن أن تخلو الأرض عن حجّة الله أبداً ، و قد استفيد هذا الأمر أيضاً من ءاية : يَوْمَ نَدْعُوا كُلّ أُنَاسٍ بِإِمَمِهِمْ (14) ، لأن الله سبحانه و تعالى يدعو جميع أفراد بني ءادم الى الحشر يوم القيامة بإمامهم ، فلا يوجد فردٌ من البشر إلّا و له إمام ، و لا يوجد فردٌ على الأرض بدون إمام ، كما انّه ورد في روايات كثيرة انّه لو لم يبقَ على الأرض الّا نفرين ، لكان أحدهما إماماً للأخر ، و لو لم يوجد الّا شخص واحد لوجب أن يكون الإمام نفسه .

المسألة الخامسة: علم الإمام المحيط بأعمال الأمّة

المسألة الخامسة : انّ الامام يعلم بجميع أعمال و أقوال و سيرة وملكات عباد الله ، و ليس هناك علمٌ غائب أو مخفٍ عن نظر الإمام ، و قد بيّنت الأبحاث السابقة هذا المعنى في هذا الأمر استناداً الى الأيات القرءانيّة ، لأنّ الامام له سيطرة على نفوس و ملكوت الموجودات ، و مع هذه الملكة فانّ جميع الأرواح و النفوس و روح الأعمال ستكون في مشهد الإمام و في حضور الولاية ، كما انّ موجودات عالم الطبيعة مشهودة عند الشخص البصير و غائبة عند الأعمى .

و بالرغم من أنّ ملكوت كثير من الأعمال و الأقوال و النفوس سينكشف لدى الأفراد الذين لم يصلوا بعدُ الى مرحلة الإمامة ، و بالرغم من انّ هذا المعنى سيتّضح لديهم اثر التقوى و العبادة و مخالفة النفس الأمّارة ومجاهدتها ، الّا انّهم لن يمتلكوا السيطرة الكليّة على جميع الأرواح والنفوس أو هداية كلّ منهما الى كماله ، كلّاً حسب دوره و بقدر ظرفيّته ، لكنّ هذه الدرجة من البصيرة هي بصيرة القلب التي لا توجد لدى الأخرين ، الّا ان هذه البصيرة و الرؤية قويّة و نافذة لدى الإمام بحيث لا يخفى عنه شيء من الملكوت في كلّ ءان و في أيّ مكان .

المسألة السادسة: علم الإمام بحاجات العباد

المسألة السادسة : انّ الإمام يعلم جميع الأمور التي يحتاجها العباد في معاشهم أو معادهم ، لأنّه . و حسب الفرض . فانّ الإمام يهدي النفوس الى الحقّ من ملكوتها ، و يوصلها الى كمالها ، فكيف يمكن أن يكون نفسه جاهلاً بما يحتاجه العباد في أمور تكاملهم ؟ و هذه الخاصيّة تتّضح أيضاً من الأية القرءانية : يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ، و من أفضليّة مقام الإمامة على النبوّة حسب مفاد خطاب حضرة الحقّ لإبراهيم الخليل .

و علاوةً على ذلك ، فلأن فعل الإمام و قوله منطبق على الحقّ بتمام معنى الكلمة ، و لأنّ الإمام قد خطا في مقام العبوديّة و التقرّب الى مرحلةٍ بعيدة بحيث انّ الله نفسه سيكون هو الأمر و الناهي في وجوده ، و سيكون فعل الإمام هو عين وحي الله ، فكما انّ مايحتاجه العباد ليس خافياً على الله ، فانّه لن يكون خافياً على الإمام الذي هو المجلى الأتمّ و المجرى الكامل لإفاضات الحضرة الأحديّة الى الموجودات ، و هذا الأمر ليس خافياً على الامام ، بل انّ علم الامام هو عين علم الله تعالى ، و ليس هناك أي تفاوت في أصل المعنى .

المسألة السابعة: أفضليّة الإمام على أفراد البشر في الكمالات النفسانيّة

المسألة السابعة : انّ الامام هو أعلى من جميع أفراد البشر من حيث الفضائل النفسانيّة و الملكات الالهيّة ، و من المستحيل أن يكون هناك شخص أفضل من الإمام في محاسن الاخلاق و الملكات الانسانيّة ، لأنّه . و

كما فرضنا . فانّ الطريق الى الله عن طريق ملكات و صفات النفس . ولأنّ الامام أعلى و أرفع من سائر الأفراد في هذه المرحلة ، لذا فانّه يهديهم عن طريق الملكوت الى الحقّ ، و اذا ما وجد في هذه الحالة شخصان أحدهما يفوق الأخر في هذا المعنى ، فانّ الشخص المتفوّق سيكون حتماً إماماً للآخر ، لإنّ الذي أفق ملكوته و نفسه أنور و أكثر مضاءً و بصيرة سيستطيع أن يدعو الى منزله و محلّه الشخص الأخر الذي ليس في مستوى أفقه ، و في هذه الحالة فانّه سيكون هو الإمام ، خلافاً للشخص الضعيف الذي لن يستطع تحريك القوي أو تحمّل ثقله .

و هذه المسائل السبع هي من أصول مسائل الإمامة ، و سائر المسائل الأخرى متفرّعة عنها .

أفضليّة أميرالمؤمنين في جميع الفضائل النفسيّة:

امّا في أفضليّة عليّ بن أبي طالب أميرالمؤمنين عليه الصلاة و السلام على جميع أفراد البشر عدا خاتم الأنبياء ، فليس فيه مجال للشبهة و الشكّ ، و هذه الحقيقة يعترف بها العدوّ و الصديق . و بغضّ النظر عن الظهورات التي صدرت عنه عليه السلام خلال ثلاث و عشرين سنة في حياة رسول الله ، و خلال ثلاثين سنة بعد رحلته في فنون العلوم المختلفة ، و في حلّ المسائل الرياضيّة الغامضة ، و القضاء بالحقّ ، و في علوّ النفس و الهمّة والإيثار ، و الاتّصال بحرم الله و الإنجذاب بالجذبات الالهيّة ، و في إدراك الحقائق و المعارف الكليّة المعنوية الإلهيّة و عبور جميع مراحل النفس وءاثارها ، و في السبق الى الاسلام و الهجرة و الجهاد .

و بغضّ النظر عن الأحاديث التي رويت عن رسول الله و التي تُثبت أفضليّته عليه السلام بالمعنى الضمني او الالتزامي ، مثل حديث : أَنتَ مِنّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، و حديث : إِنّ عَلِيّاً وَزِيرِي ، وَ وَصِيّي ، وَوَارِثِي ، وَأَخِي فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَ خَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي ، وَ وَلِيّ كُلّ مُؤمِنٍ مِنْ بَعْدِي ، وَ إِنّ عَلِيّاً أَمِيرُالمؤمِنِينَ ، وَ سَيّدُ الْمُسْلِمِينَ ، وَ يَعْسُوبُ الْمُؤمِنِينَ ، وَ قَائِدُ الغُرّ الْمُحَجّلِينَ ، وَ هُوَ الصّدّيقُ الأَكْبَرُ ، وَالْفَارُوقُ الأَكْبَرُ ، وَ عَالِمُ هَذِهِ الأُمّةِ ، وَ ذُو قَرْنِهَا .

و بغض النظر عن حديث : أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَ عَلِيّ بَابُهَا ، و الأحاديث الأخرى في علمه عليه السلام .

وبغض النظر عن الأحاديث التي وردت مستفيضة في الدلالة على أنّه عليه السلام له حكم نفس رسول الله ، و عن الأحاديث التي تُشير الى انّه عليه السلام كان يمتلك فضائل خاصّة به ، مع ان كلّاً منها يدلّ بمفرده على على أفضليّته عليه السلام على سائر الأمّة .

لو غضضنا الطرف عن هذا كلّه ، فانّ هناك روايات كثيرة وردت عن رسول الله صلّى الله عليه و ءاله عن طريق أهل البيت و شيعتهم و عن طريق العامّة أيضاً تدلّل على أفضليّته على الأمّة ، بل على جميع أفراد البشر ، بل على الأنبياء و المرسلين ، و هذه الأحاديث تدلّ بالمعنى المطابقي على أفضليّة ذلك الإمام المعصوم .

يروي الشيخ حافظ سليمان بن ابراهيم القندوزي الحنفي عن كتاب (مودّة القربى) تأليف السيد علي الشافعي عن عطاء قال : سُئِلَتْ عَائِشَةُ عَنْ عَلِيّ ، قالتَ : ذَلِكَ خَيْرُ الْبَشَرِ لاَ يَشُكّ إِلّا كَافِرٌ [15] .

و يروي عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله : يَا عَلِيّ أَنتَ خَيْرُ الْبَشَرِ ، مَا شَكّ فِيهِ إِلّا كَافِرٌ [16] .

و يروي عن حذيفة انّه قال : عَلِيّ خَيرُ الْبَشَرِ وَ مَنْ أَبَى فَقَدْ كَفَرَ [17] .

و يروي عن جابر بن عبدالله الأنصاري انّ رسولَ اللهِ قَالَ : عَلِيّ خَيرُ الْبَشَرِ ، مَن شَكّ فِيهِ فَقَدْ كَفَرَ [18] .

كما يروي عن أمّ هاني بنت أبي طالب و أخت أميرالمؤمنين عليه السلام انّ رسولَ اللهِ قال : أَفْضَلُ الْبَرِيّةِ عِنْدَ اللهِ مَنْ نَامَ فِي قَبْرِهِ ، وَ لَمْ يَشُكّ فِي عَلِيٍّ وَ ذُرّيَتِهِ أَنّهُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ [19] .

و روى عن الإمام محمّد بن علي الباقر ، عن ءابائه عليهم السلام قال : سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلّى الله عليه و ءاله عَنْ خَيرِ النّاسِ ؛ فَقَالَ : خَيْرُهَا ، وَأَتْقَاهَا ، وَ أَفْضَلُهَا ، وَ أَقْرَبُهَا إِلَى الْجَنّةِ أَقْرَبُهَا مِنِيّ ، وَ لاَ أَتْقَى وَ لاَ أَقْرَبَ إِلَيّ مِنْ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ [20] .

الروايات المعراجيّة الدالّة على ولاية أميرالمؤمنين:

و يروي عن أميرالمؤمنين عليه السلام انّه قال : قالَ رسولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : إِنّي رَأَيْتُ اسْمَكَ مَقْرُوناً بِاسْمِي فِي أَرْبَعَةِ مَوَاطِنَ ،

فَلَمّا بَلَغْتُ الْبَيْتَ الْمُقَدّسَ فِي مِعْرَاجِي إِلَى السّمَاءِ ، وَجَدْتُ عَلَى صَخْرَةٍ بِهَا : لاَ إِلَهَ اِلّا اللهُ ، مُحَمّدٌ رَسُولُ اللهِ ، أَيّدْتُهُ بِعَلِيّ وَزِيرِهِ ، وَ لَمّا انْتَهَيْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَجَدْتُ عَلَيْهَا : إِنّي أَنَا اللهُ ، لاَ إِلَهَ إِلّا أَنَا وَحْدِي ، مُحَمّدٌ صَفْوَتِي مِنْ خَلْقِي ، أَيّدْتُهُ بِعَلِيّ وَزِيرِهِ ، وَ نَصَرْتُهُ بِهِ ،

وَ لَمّا انتَهَيْتُ إِلَى عَرشِ رَبّ الْعَالَمِينَ ، فَوَجَدْتُ مَكْتُوباً عَلَى قَوَائِمِهِ : إِنّي أَنَا اللهُ ، لاَ إِلَهَ إِلّا أَنَا ، مُحَمّدٌ حَبِيبِي مِنْ خَلْقِي ، أَيّدْتُهُ بِعَلِيّ وَزِيرِهِ ، وَنَصَرْتُهُ بِهِ ، فَلَمّا وَصَلْتُ الْجَنّةَ وَجَدْتُ مَكْتُوباً عَلَى بَابِ الْجَنّةِ : لاَ إِلَهَ إِلّا أَنَا ، وَ مُحَمّدٌ حَبِيبِي مِنْ خَلْقِي ، أَيّدتُهُ بِعَلِيّ وَزِيرِهِ ، وَ نَصَرْتُهُ بِهِ [21] .

بيانات جبرئيل في هيئة دحية في الولاية:

يروي الخوارزمي أبو المؤيّد الموفّق بن أحمد باسناده المتّصل عن الأعمش عن سيعدبن جبير ، عن ابن عبّاس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم في بيته ، فغدا عليه عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه بالغداة أن لا يسبقه اليه أحد ، فدخل فإذا النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم في صحن الدار ، فاذا رأسه في حجر دحية بن خليفة الكلبي ، فقال : السلام عليك كيف أصبح رسول الله ؟

قال : بخير يا أخا رسول الله .

فقال عليّ :جَزَاكَ اللهُ عَنّا خَيْرَاً أَهْلَ الْبَيتِ .

فقال له دحية : إنّي لأحبّك ، و انّ لك عندي مدحة ازفّها لك ، أَنتَ أَمِيرُالمُؤمِنِينَ ، وَ قَائِدُ الْغُرّ الْمُحَجّلِينَ ، أَنتَ سَيّدُ وُلْدِ ءَادَمَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا خَلاَ النّبِيّينَ وَ الْمُرسَلِينَ ، لِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ، تُزَفّ أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَى الْجَنّةِ مَعَ مُحَمّدٍ وَ حِزْبِهِ إِلَى الْجِنَانِ زَفّاً ، وَ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَوَلّاكَ وَخَسِرَ مَنْ تَخَلّاكَ ، فَبَخٍبّ مُحَمّدٍ حَبّوكَ ، وَ مُبْغِضُوكَ لَنْ تَنَالُهُمْ شَفَاعَةُ مُحَمّدٍ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ؛ ادْنُ مِنّي صفوةَ اللهِ !

فأخذ رأس النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم فوضعه في حجره ، فقال النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : ما هذه الهمهمة ؟ فقال عليّ بما جرى .

فقال : يا عليّ ، لم يكن دحية ، ولكن كان جبرائيل ، و سمّاك بإسم سمّاك الله به ، فهو الذي ألقى محبتّك في صدور المؤمنين ، و رهبتك في صدور الكافرين [22] .

المسائل السبع للإمامة كانت متحقّقة في أميرالمؤمنين

انّ الأحاديث المرويّة عن رسول الله و الدالّة على أفضليّة أميرالمؤمنين عليه السلام بعنوان خيرالوصييّن و سيّد ولد ءادم و أمثال ذلك كثيرة ، و قد اكتفينا بهذه الروايات العدّة عن طريق العامّة كمثال ، لذا وفقاً للمسائل السبع السابقة فانّ مقام الإمامة مختصّ به عليه السلام ، و هو الذي كان يدعو الناس بقاطعيّة تامّة ، لم يُشاهَد في فعله او قوله ندم أو شكّ أو حيرة أو جهل . و لأنّ الإمام له إحاطة بالملكوت ، فانّه لا يخطئ أبداً ، و لأنّ فعله فعل الحقّ ، فانّه لا يتردّد و لا يتحيّر و لا يندم في عمله ، لأنّ الله سبحانه لا يتحيّر و لا يندم في فعله .

انّ الأفراد الذين يندمون ، انّما يندمون عند العمل لجهلهم ، اذ تبدو لديهم جهة من الجهات بصورة مقبولة فيبادرون الى فعلها ، و حين تتّضح لهم نقاط الضعف و النقاط المبهمة التي خفيت عليه لدى العمل فانّهم يندمون .

امّا رجل الحقّ فلا يندم ، و لم يشاهد أبداً انّ الإمام أظهر ندمه من فعلٍ فعله ، و هذه هي علامة صحّة العمل و إتقانه ، إضافة الى أنّ الإمام يعيّن وظيفة الناس في كلّ موضوع بشكل قطعيّ ، و لا يؤجّل ذلك الى اليوم التالي و لا تنكشف له الحقيقة بالمشاورة و المطالعة و التأني و التروّي ، بل انّ الحقائق تظهر أمامه و تتجلّى كالمرءاة ، فيجيب بلا تريّث و لا تأخير .

لقد كان عُمر يعيى و يعجز في كثير من الأمور عن الإجابة على مسائل الأحكام العاديّة ، بينما كانوا يسألون أميرالمؤمين عن بعض المسائل التي لا يستطيع علماء الرياضيات حلّها الّا باستخدام القوانين الرياضيّة ، فيُجيبهم عليها مباشرة . فهل كان له عقل الكتروني يا ترى ؟ إنّ الأجهزة الالكترونيّة هي الأخرى لا تستطيع ان تتجاوز حلّ المسائل البسيطة ، لكن الامام كان يجيب عن تلك المسائل بداهةً ، لكأنّ الجواب كان واضحاً لديه كالشمس ، كما انّه كان يُجيب فوراً على الكثير من مسائل القضاء التي يحتاج حلّها الى جهد رياضيّ .

ندم أبي بكر على الخلافة:

ولقد أظهر أبوبكر ندمه على تولّيه الخلافة مرّات عديدة ، وقال مراراً :

أَقِيلُوني أَقِيلُوني وَ لَسْتُ بِخَيْرِكُمْ [23] .

لكنه يجب ان يُقال له : اذا كانت الخلافة التي سلبتَها بأمرالله فكيف تريد تركها و التخلّي عنها ؟ و إن لم تكن بأمرالله فيكف سلبتها ؟

فهو يعيى هنا و يتحيّر فلا يميّز يمنةً عن يسرة ، لأنّهُ من جهة لا يمتلك القدرة على تحمّل هذا العبء و المسؤوليّة ، و من جهة اخرى فانّ قلبه لا يطاوعه في أن يُعيد الأمر الى صاحبه . كَظُلُمَتٍ فِى بَحْرٍ لّجّىّ يَغْشَهُ مَوْجٌ مّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَبهَا وَ مَن لّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نّورٍ [24] .

لقد ارتقى أبوبكر منبر رسول الله في مسجد الرسول يوماً بعد بيعة السقيفة و قال في خطبته : أَيّهَا النّاسُ ، فَإِنّي قَدْ وُلّيتُ عَلَيْكُمْ ، وَ لَستُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِن أَحْسَنتُ فَأَعِينُونِي ، وَ إِن أَسَأتُ فَقَوّمُونِي [25] ... أَطِيعُونِى مَا أَطَعْتُ اللهَ ، وَ إِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَ رَسُولَهُ ، فَلاَ طَاعَةَ لِي عَلَيْكُم [26] .

يقول الطبري : و خطب أبوبكر الناس فقال :

أَيُهّا النّاسُ إنّمَا أَنَا مِثْلُكُمْ ، وَ إِنّي لاَ أَدْرِي لَعَلّكُمْ سَتُكَلّفُوني مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] يُطِيقُ ، إِنّ اللهَ اصْطَفَى مُحَمّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَ عَصَمَهُ مِنَ الْأَفَاتِ ، وَ إِنّمَا أَنَا مُتّبِعٌ ، وَ لَستُ بِمُبتَدِعٍ ، فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَتَابِعُونِي ، وَ إن زُغتُ فَقَوّمُونِي .

الى أن يقول : وَ إِنّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي ، فَإِذَا أَتَانِي فَاجْتَنِبُونِي . (27)

الإشكالات الخمسة على خطبة أبي بكر:

الإشكال الأوّل : قوله : (وَ لَسْتُ بِخَيْرِكُمْ) ؛ حيث يجب أن يُقال له : فلماذا تصدّيتَ للخلافة و لم تتخلّ عنها لخير الناس و مولى الموالي مع كلّ تلك النصوص الصريحة من صاحب الشريعة على أفضليّته ؟ و لماذا أردت أن تكون إماماً لمن هو أفضل منك و أعلم ؟ و كيف رضيت ان تدعو أميرالمؤمنين الناموس الاكبر الالهيّ و كنز الاسرار و معارف الحقّ و نفس الرسول لاتّباعك ؟ و كيف أردت أن تأخذ بيعته لك و أن تجعله يسلّم لأمرك و نهيك دون قيد أو شرط ؟ و بأيّ معارف و فضائل أخلاقيّة أردتَ ايصال المؤمنين الى المطلوب ؟ و على أيّ ملكوت كنت مسيطراً ومهيمناً ؟

الإشكال الثاني : قولك (فَإن أَحسَنْتُ فَأَعِينُونِي ! وَ إن أَسأتُ فَقَوّمُونِي!)

و بناءً على هذا فانّك حين جعلتَ بأيدينا ميزان صحّة أو بُطلان عملك ، و خيرّتنا في الجرح و التعديل ، فقد كنّا نحن إمامك لا أنت إمامنا !

و بغضّ النظر عن ذلك ، فمن أين لنا أن نميّز الصحيح من السقيم ؟ لو ميّزناه من عندنا لكنّا إذن لا نحتاج الى خليفة ، و إن توجّب ان يُفهمنا ايّاه إمامُ الحقّ لوجب علينا اتّباع ذلك الامام ، و لوجب عليك أن تسلم أنت الأخر لأمره .

الإشكال الثالث :

قولك : (لَعَلّكُمْ سَتُكَلّفُوني مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ يُطِيقُ) .

بلى ، انّ مثل هذه التكاليف ستأتي حتماً ، ولكن من أجلسك مكان رسول الله لتحتار في النهوض بأعباء عمل و مهمة رسول الله ؟ أو لم تسمع طوال المدّة المديدة رسولَ الله يقول كراراً . لا مرّةً أو مرّتين . عَلِيّ يَقْضِي دَيْنِي ؟ أو لم تسلّم يوم غدير خم على أميرالمؤمنين بتحيّة الولاية ؟! فبأيّ مجوّز جلستَ مكان رسول الله أنتَ العاجز عن تحمّل أعباء مسؤوليّته وعمله ، و سلبتَ الحقّ المسلّم لمقام الخلافة و الوصاية ؟!

الإشكال الرابع :

قولك : (أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ ، وَ إِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَ رَسُولَهُ فَلاَ طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ) .

فبناءً على ذلك فقد صرتَ أنت أيضاً رديفاً لنا لا رئيساً علينا ، فلماذا نطيعك إذن ؟ تعال أنت فأطعنا ! و بأيّ قاعدة و سُنّة الهيّة صارت طاعتُك واجبةً علينا ؟ و إضافة الى ما تقدّم ، فاننا نحتاج في معالم ديننا الى معلّم ومربّ نتعلّم منه ما هي طاعة الله و رسوله ، و ما هي مخالفة الله و رسوله ، فمن أين لنا أن نعلم أنّ عملك هذا طاعة ، و عملك ذاك معصية ؟ الاّ ان يدلّنا معلم القرءان و العارف برسول الله ، و المحيط بنواميس الأحكام والشرايع ، فيفصل الطاعة عن المعصيته ! و لو فرضنا انّنا شئنا تقويمك عند معصيتك ، فهو ستتقوّم يا ترى ؟

فأنت الذي تأبى التخلّي عن الخلافة ، ستقف عند مخالفتك لأمر الله و الرسول و تصرّ على موقفك ، و مهما شاءت الأمّة تقويمك فانّك ستقاوم أكثر ، إذ ان نفس هذا التصدّي لمقام الخلافة يمثّل زيغك و انحرافك .

ألم يؤاخذك أميرالمؤمنين لتقويمك و يوبخّك على مبادرتك الخفيّة السريعة و جثمان رسول الله بعدُ لم يُدفن ؟ ألم يتحدّث أميرالمؤمنين في المسجد عن فضائله و مقامه ؟ ألم تبيّن الصديقة الطاهرة في خطبتها المُبينة تلك موارد انحرافك ؟ ألم تقل (سلامُ الله عليها) : يَا أَبَابَكْرٍ مَا أَسْرَعَ مَا أَغَرْتُمْ عَلَى أَهلِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ؟

ألم يبيّن لك بنو هاشم و أصحاب رسول الله الكرام الذين تخلّفوا عن يبعتك مواضع خطأك ؟ فلماذا لم ترتدع و لم تستقم ؟ و لو أرادوا الإصرار على هذا الأمر لسُفكت الدماء و نُهبت الأموال و استُبيحت الاعراض والنواميس .

ألم يخالف عثمانُ علناً أمرَ رسول الله ؟ فَلِمَ لَمْ يرعوِ حين اعترض عليه المسلمون و نبهّوه على ذلك ؟ و لماذا أصرّ على أفعاله ؟

لقد قال له المسلمون : إمّا أن تتنحّى عن الخلافة أو تسير على سُنّة رسول الله ! لكنّه لم يرضَ بأحد الأمرين ، ثم قاومهم و استنصر بمعاوية وجيش الشام للوقوف في وجه المسلمين .

و أنّى له أن يستقيم و يرعوي مَنْ أمسك بزمام الأمور بيده و أبى عن التنازل عن مقامه و شخصيّته ؟ أَوَ هل استقام معاوية ؟ أَوَ هل استقام خلفاء بني أميّة و بني العبّاس ؟

لقد سفكوا دم كلّ من أراد أن يذكّرهم أو حتّى أن ينصحهم ، و لقد قتل مخالفو سُنّة رسول الله هؤلاء فيوضح النهار ابنَ بنت رسول الله و أهل بيته بشفاهٍ ظمأى عند شاطيء النهر ؟

الإشكال الخامس :

فاحذرْ يا أبابكر ! ماذا تقول في خطبتك التي ألقيتها ؟ لقد فتحت بكلماتك باباً لخلفاء الجور لجميع هذه الاعتداءآت .

فأنت تقول خامساً : (وَإِنّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِيني ، فَإِذَا أَتَانِي فَاجْتَنبُونِي) .

ليتك لم تتفوّه بهذا الكلام ! إنّ الإمام الذي يعترف بنفسه بوجود شيطان يتسلّط عليه هو إمام الشياطين لا إمام المؤمنين !

انّ امام المؤمنين هو الذي أفنى الشيطان و أهلكه : اعزُبِي عَنِيّ يَا دُنيَا ، قَدْ طَلّقْتُكِ ثَلاَثًا ! و هو الذي يقدّم نفسه في قاطعيّة كالجبل الراسخ فيقول : يا أفراد البشر ، تعالوا اليّ فأنا وليّ الله ، أنا من عبادالله المخلصين ، أنا الذي نزلت ءاية التطهير فينا ، أنا صاحب مقام العصمة ، أنا صاحب مقام (سلوني قبل أن تفقدوني) ، أنا باب مدينة العلم ، و أنا حامل عبء الرسالة وقاضي ديْن رسول الله ، أنا صاحب السيطرة على ملكوت وحقائق الأشياء .

ثم يعطي ءالاف النماذج الواضحة البيّنة : أنا نفس رسول الله ، أنا وليّ كلّ مؤمن و مؤمنة ، أنا الوصيّ و الوزير و الوارث لأسرار النبوّة .

هذا هو مقام الإمام ، ذلك الذي لا يتحسّر عند الموت فيقول : الويل لي ! وددتُ انّي لم أفعل الثلاث التي فعلتُها !

تأسّف أبي بكر عند موته على تسعة أمور:

يقول المسعودي : وَ لَمّا احتَضَرَ أَبُوبَكْرٍ قالَ : مَا ءاسَى عَلَى شَيءٍ إلّا عَلَى ثَلاَثٍ فَعَلْتُهَا ، وَدَدْتُ أَنِيّ تَرَكْتُهَا ، وَ ثَلاَثٍ تَرَكْتُهَا وَدَدْتُ أَنّي فَعَلْتُهَا ، وَثَلاَثٍ أَنّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم عَنْهَا ،

فَأَمّا الثّلاَثُ الّتِي فَعَلْتُهَا وَ وَدَدْتُ أَنّي تَرَكْتُهَا ، فَوَدَدْتُ أَنِيّ لَمْ أَكُنْ فَتّشتُ بَيْتَ فَاطِمَةَ ، وَ ذَكَرَ فِي ذَلِكَ كَلاَمَاً كَثِيرًا [28] .

و قد أورد هذه الرواية علاوة على المسعودي ، الطبري في تأريخه ، وابن قتيبة في(الإمامة و السياسة) ، و ابن عبد ربّه في (العقد الفريد) [29] .

و قد أرودها العلاّمة الأميني في (الغدير) إضافة الى هذه المصادر ، عن أبي عبيد في كتاب (الأموال) ، ص 13 ، و يقول : الاسناد صحيح ، رجاله كلّهم ثقات ، أربعةٌ منهم من رجال الصحاح الستّ [30] .

و من الأمور التي كان أبوبكر يتأسّف منها ، قتله الفجأة السّلَمي حرقاً بالنار ، و بيان ذلك كما ورد في (الكامل في التاريخ) لابن الأثير الجزري انّ الفجأة السّلَمي ، و اسمه إياس بن عبد ياليل جاء الى أبي بكر فقال له : أعنّي بالسلاح أقاتلُ به أهل الردّة .

فأعطاه سلاحاً و أمرّه إمرةً ، فخالف الى المسلمين و خرج حتى نزل بالجواء ... فبلغ ذلك أبابكر فأرسل الى طُرَيْفة بن حاجز فأمره أن يجمع له و يسير إليه ، فأُسر و بُعث به الى أبي بكر ، فلمّا قدم أمر أبوبكر أن توقد له نار في مصلّى المدينة ، ثمّ رُمي فيها مقموطاً . و كان أبوبكر يقول عند موته : .... و وددتُ أنّي لم أكن حرقت الفجاة السلمي ، و أنّي كنتُ قتلته سريحاً ، أو خلّيته نجيحاً ....

و قد أورد خطبة أبي بكر بعض المعاصرين من العامّة ، مثل فريد وجدي في (دائرة المعارف) ، و أحمد أمين المصري في كتبه ، و عدّوها أساساً لحريّته ، و حاولوا اظهار حكومة أبي بكر على انّها حكومة ديمقراطيّة تدعو الى الحريّة .

و لقد أثبتنا في بحوثٍ ماضية ، و سنُثبت في بحوث مفصّلة قادمة إن شاء الله تعالى ، أنّ اسلوب الحكومة الاسلاميّة قائم على أساس الحقّ لا على ءاراء ءاحاد الناس أو مجموعهم ، و لا على أساس الأكثريّة و الأقليّة ، فالنصوص القرءانيّة الصريحة و السنّة الصحيحة لرسول الله ، و السيرة المتّبعة للأئمة الطاهرين عليهم السلام ، و نهج الصحابة ذوي البصيرة والتابعين ذوي الدراية ، تؤكّد كلها انّ مناط التبعيّة يجب أن يكون للواقعيّة و الحقّ ، سواءً كان موافقاً لأراء الأكثريّة أم لا ، و على تجنّب اتّباع الأراء التي تخالف الحقيقة و الواقع ، سواءً كان العالم كله يتبنّاها أم لا . و هذا أكبر موضع للإختلاف بين الشيعة و السنّة ، و جميع مسائل الاختلاف تدور على هذا المحور و ترجع الى هذا الأساس .

فالشيعة ينادون منذ صدر الاسلام الى الأن و يحتجّون و يأتون بالأدلّة على وجوب اتّباع الحقّ لا ءاراء الناس ، و انّ الإمامة بالتعيين والنصّ لا بالانتخاب ، و على الناس ان يتبعوا الحقّ ، و ان الإمام بالحقّ يجب أن يُعين من قبل الله تعالى ، تماماً كما انّ رسول الله يجب أن يأتي من قبل الله ، وكما انّ الناس لا يمتلكون الحقّ في انتخاب النبيّ .

و الشيعة يُثبتون انّ الرسالة و الإمامة ليس بينهما تفاوت من جهة الحكومة و الولاية على الناس ، أشبه بشجرتين تنموان من أصل واحد ، أو بطفلين يرضعان من ثدي واحد .

امّا العامّة فيقولون انّ الإمامة حكومة ظاهريّة ، و انّ اتّباع الشخص الجاهل المخطىء أمرٌ لا إشكال فيه . وبالطبع فإنّ أبابكر . وفقاً لهذا المنطق . يجب أن يُعدّ رمزاً للحريّة ، كما انّ المتظاهرين بالتجديد من أهل السنّة يميليون الى هذا الرأي .

و بالطبع فانّ هناك اليوم مفهوماً واسعاً و رائجاً عن الحريّة لا يتنافى أبداً مع المؤامرات الليليّة و عدم إطلاع بنى هاشم و الكثير من المهاجرين والأنصار للبيعة ، و مع كسر ضلع الزهراء عليها السلام بنت رسول الله ،

ومع صرف النظر عن إقامة الحدّ على خالد بن الوليد حين قتل مالك بن نويرة ذلك المؤمن الملتزم لا فُتتانه بجمال زوجته ، ثم بنى بها في نفس الليلة !! وكثير من المخالفات الواضحة الاخرى التي لا يعتبرها مناصرو المدرسة الغربيّة مخالفةً للحريّة ، فيعدّون الغاية تبرّر الوسيلة .

غير انّ الشيعة تقطع أساس هذا المنطق و ذيله ، و تهدم هذا البنيان ، و تُثبت ضعف هذا التفكير و وهنه بالبراهين العقليّة و الفلسفيّة ، ناهيك عن الأدلّة النقليّة .

و كما رأينا أخيراً في رواية أبي أيّوب الأنصاري انّ رسول الله صلّى الله عليه و ءاله قال لعمّار : فَإن سَلَكَ النّاسُ كُلّهُمْ وَادِيًا وَ سَلَكَ عَلِيّ وَادِيًا ، فَاسْلُك وَادِيَ عَلِيّ عليه السّلامُ وَ خَلّ عَنِ النّاسِ .

وما أروع ما يُبرهن رسول الله على هذه العبارات بهذه الجملة فيقول :

إنّ عَلِيّاً لاَ يَرُدّكَ عَن هُدَىً وَ لاَ يَدُلّكَ إلَى رَدَىً .

اي انه يجب اتّباع عليّ لأنّه متحقّق بالحقّ ، و لو خالفه العالم أجمع [31] . هذا هو منطق الشيعة ، الذي هو منطق الإسلام !

تعليقات:

1) ذيل الأية 35 ، من السورة 10 : يونس .

2) صدر الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .

3) ذيل الأية 124 ، من السورة 2 : البقرة .

4) الكتاب مؤلّف في حياة العلّامة الطباطبائي قُدّس سرّه ، و ءاثرنا الابقاء على تعبير المؤلّف (م) .

5) الميزان) ، ج 1 ، ص . 277

6) و يورد القاضي نور الله نظير هذا الاستدلال بتقريب ءاخر في (إحقاق الحقّ) ، ج 2 ، ص . 396

7) بعض الأية 124 ، من السورة 2 : البقرة .

8) صدر الأية 24 ، من السورة 32 : السجدة .

9) صدر الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .

10) صدر الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .

11) صدر الأية 73 ، من السورة 21 : الأنبياء .

12) ذيل الأية 24 ، من السورة 32 : السجدة .

13) مقطع من الأية 24 ، من السورة 32 : السجدة .

14) صدر الأية 71 ، من السورة 17 : الإسراء .

17.16.15) (ينابيع المودّة) ، ص . 246

20.19.18) (ينابيع المودّة) ، ص . 247

21) ينابيعالمودّة) ، ص 256 ، و (الغدير) ، ج 2 ، ص 51 نقلاً عن (مودّة القربى) .

22) غاية المرام) ، ص . 16

23) سيأتي الكلام عن هذا الحديث في المجلّد الثاني لهذا الكتاب الدرس 17 ، كما ينقل في (الغدير) ج 5 ، ص 386 ، عين العبارة الواردة أعلاه عن (الصواعق المحرقة) .

24) الأية 40 ، من السورة 24 : النور .

25) تاريخ اليعقوبي) ، ج 2 ، ص 127 ؛ و (شرح النهج) ، ج 2 ، ص 8 ، و زاد أيضاً : انّ لي شيطاناً يعتريني فايّاكم و إيّاي اذا غضبتُ لا أؤثر في اشعاركم و أبشاركم ؛ و اورده في (دائرة المعارف) فريد وجدي ، ج 2 ، ص . 300

26) سيرة ابن هشام) ، ج 4 ، ص . 1075

27) تاريخ الأمم و الملوك الطبري) ، ج 2 ، ص 460 ؛ و أورد أيضاً عن (الإمامة والسياسة) نظير هذه الخطبة بتفصيل أكثر ، و قد أوردناها في المجلّد الثاني من هذا الكتاب وكذلك أوردناها في الدرس 18 من هذا الكتاب ، و أوردها كذلك القاضي عبد الجبار في (المغني) و ابن تيمية في (منهاج السنّة) ، و محبّ الدين الطبري في (الرياض النظرة) والسيوطي في (تاريخ الخلفاء) و ابن حجر في (الصواعق المحرقة) و ابن ابي الحديد في (شرح نهج البلاغة) .

28) مروج الذهب) ، ج 2 ، ص 308 ؛ و أورده (تاريخ الطبري) ، ج 2 ، ص 219 بهذا اللفظ : فوددتُ أنّي لم أكشف بيتَ فاطمة عن شيءٍ و إن كانوا قد غلّقوة على الحرب ... الخ .

29) الإمامة و السياسة) ، ج 1 ، ص 18 ، و (العقد الفريد) ، ج 2 ، ص . 254

30) الغدير) ، ج 7 ، ص 170 و . 171

31) و قد نُقلت هذه الرواية في هذا الكتاب في المجلس الثاني عشر ضمن الروايات الدالّة على أفضليّته أميرالمؤمنين ، عن (غاية المرام) ، عن الموفّق بن أحمد الخوارزمي .

الدرس الرابع عشر: لزوم اتّباع الأعلم

بسم الله الرحمن الرحيم

و صلى الله على محمد و ءاله الطاهرين

و لعنة الله على أعدآئهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدين

و لا حول و لا قوة إلّا بالله العليّ العظيم

قال الله الحكيم في كتابه الكريم :

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَ هِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ * إِلّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (1) .

بقاء منصب الإمامة في ذريّة إبراهيم عليه السلام الى يوم القيامة :

يمكن الاستفادة من هذه الأية المباركة أنّ منصب الإمامة و هداية الناس هو في ذريّة ابراهيم عليه السلام نسلاً بعد نسل الى يوم القيامة .

وبيان ذلك انّ لفظ (بَرآء) مصدر من الفعل برىء يَبْرَءُ وصفته بَرِىء ، و (إنّنى براء) إمّا على تقدير محذوف تقديره (إنّني ذو براء) أو على سبيل التأكيد والمبالغة مثل (زيدٌ عدلٌ) ؛ وضمير الفاعل في (جعلها) يعود الى الله سبحانه ، وضمير المفعول امّا أن يعود الى البراءة التي تكلّم عنها ابراهيم عليه السلام، أو يعود الى الهداية التي تستنتج وتتّخذ من كلمة (سيهدين) .

امّا اذا قلنا انّه يرجع الى لفظ البراءة ، فانّ مفاده هو كلمة التوحيد ، أي كلمة : لا إلَه الّا الله ؛ و ذلك لأنّ (إِنَّنِي بَرَآءُ مِمّا تَعْبُدُونَ إِلّا الَّذِى فَطَرَنِى) هو نفس مفاد كلمة التوحيد (لاَ إِلَه إِلّا اللهُ) ، و لها معنى واحد هو مرجع ضمير المفعول في (وَ جَعَلَهَا) .

معنى كلمة لا إلَه الّا الله:

فبناءً على قواعد العربيّة ، فانّ إعراب المستثنى في الكلام المنفي في الاستثناء المتّصل سيكون اعراب المستثنى منه و بدله ، و في كلمة (لاَ إِلَهَ إِلاّ اللهُ) فانّ لفظ الجلالة مرفوع بعنوان بدل من (إله) المرفوعة محلّاً ، بملاحظة أنّ الإبدال لن يكون في أكثر من جملة واحدة ، فيكون المعنى هكذا (لاَ إِلَهَ غير اللهُ مَوجُودٌ) .

و لو كانت هذه الجملة تتضمّن النفي و الإثبات ، فالواجب ان يكون لفظ الجلالة منصوباً ، و في هذه الحال فانّ هناك جملتين كلاهما يتضمّن معنىً مستقلّاً .

الاوّل الجملة المنفيّة : (لاَ إِلَهَ مَوْجُودٌ) ، و الثاني الجملة المُثبتة : (أَسْتَثنِي اللهَ أو اللهُ مَوْجَودٌ) ، و الأمر ليس كذلك بالطبع .

و عليه فانّ ما ورد على لسان أهل الدعاء و الأوراد من أن كلمة (لاَ إله إلّا اللهُ) وِرد نفي و اثبات المركّب ، هو أمرٌ خالٍ من التحقيق ، فهو فقط ذكر النفي دونَ سواه .

و امّا اذا كان مرجعه الى لفظ الهداية ، فمن المعلوم انّ الهداية الالهيّة أولاً و بالذات مختصّة بالذات المقدّسة لربّ العالمين ، ثم تسري من الذات المقدّسة الى غيرها . فالهداية الالهيّة التامّة إذن مختصّة بالله تعالى ، ومادونها للموجودات و المخلوقات .

و لأنّ ابراهيم يُشير بكلمة (سَيَهْدِينِ) الى الهداية المطلقة ، فانّها قابلة للإنطباق على أتمّ مراتب الهداية ، و هي حظّ هداية الإمام و من لوازم الولاية الكليّة .

و ذلك لأنّه قد ذكر في تفسير قوله تعالى (إِنِّى جَاعِلُكَ لَلنّاسِ إمَامًا) [2] حيث الخطاب موّجه لابراهيم عليه السلام : انّ وظيفة الإمام هداية أفراد البشر من باطن و ملكوت أعمالهم الى الله عزّوجل الذي أرشدهم و جعلهم في درجات القرب و في دركات البُعد كلّاً حسب منزلته ، و سوف يجعلهم يُقيمون هناك و يُسكنهم في ما تقتضي أعمالهم و أفعالهم ، و سيجذبهم الى ذلك المنزل . فتكون هداية الله الباري تعالى شأنُه ذاتيّة ، و هداية الإمام بالتّبع و بالعرض .

امّا اذا كان مرجع الضمير الى (البراءة) ، فانّ معناه انّنا قد جعلنا حقيقة التوحيد ، اي الولاية ثابتة و باقية الى الأبد في ذريّة ابراهيم لعلّهم يرجعون الى الحقّ و التوحيد . فيُستفاد أوّلاً انّ هذه الحقيقة ستبقى ثابتة الى الأبد في ذريّة ابراهيم ، و أنّ ذريّته . إجمالاً . يمتلكون مثل هذا المنصب والمقام ، وانّ الإمامة لن تزال أبداً و في أي زمن عن ذريّة ابراهيم .

و ثانياً : انّ كلمة التوحيد و الولاية هذه في خصوص ذريّةٍ تدعو الى الحقّ ، و بقيّة الذريّة تُدعى الى الحقّ ، فيكون المراد من (فِى عَقِبِهِ) الذريّة باعتبار الإمامة و القيادة ، و الضمير في (يَرْجِعُونَ) عائداً الى الذريّة باعتبار الإهتداء و الإنقياد .

و مع ذلك فانّ لكلّ فئة سيرٌ خاصّ و حركة خاصّة بها ، فالفئة الاولى لها الإمامة و الثانية الائتمام .

و يظهر من هذا البيان : أوّلاً : استجابة دعاء ابراهيم في دعائه الى الله :

رَبّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِيْنَ لَكَ وَ مِنْ ذِرّيّتِنَآ أُمّةً مُسْلِمَةً لّكَ [3] .

و ثانياً : يتّضح سرّ قول الله عزّوجل : لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظّلِمِينَ [4] ، بعد سؤال ابراهيم : وَ مِن ذُرّيّتِى ، في انّ الفئة التي تصل الى الإمامة هي التي لم تظلم نفسها و لا غيرها .

و ثالثاً : انّها تبرهن معنى سلسلة من الروايات الواردة في تفسير هذه الأية المباركة ، و التي فسّرت الكلمة الباقية بالإمامة ، و التي صرّح بعضها بانطباقها على ذريّة الحسين بن عليّ سيد الشهداء عليه السلام .

و قد روي في (مجمع البيان) عن الإمام الصادق عليه السلام انّ المقصود بالكلمة الباقية الإمامة الى يوم القيامة .

و اذا ما كان مرجع الضمير عائداً الى (الهداية) ، فمن المعلوم أنّ الهداية الالهيّة هي مقام الولاية و الإمامة التي يرجع الناس بوسيلتها من الشرك الى التوحيد ، و من غير الله الى الله . و عموماً ، و على كلّ حال ، وسواءً أكان الضمير عائداً الى كلمة البراءة و التوحيد ، أو عائداً الى الإمامة والهداية ، فانّ الأية المباركة سيكون لها دلالة على بقاء منصب الإمامة في ذريّة ابراهيم .

و هذا المقام بالطبع معلول لمقام التوحيد و الولاية ، و مقام التوحيد والولاية يستلزم اندكاك الصفات البشريّة في الصفات الالهيّة ، و من جملتها صفة القدرة و العلم .

الإمام يجب أن يكون أعلم من جميع الأمّة:

و على ذلك فإنّ الإمام يجب ان يكون صاحب مقام العلم الجامع الشامل في درجةٍ لم تصلها أمّته و لا أتباعه ، و تلك الدرجة من العلم المنزّه الخالص من الشوائب و الأكدار ، و تلك المرتبة من المعرفة الواسعة

المطلقة ستستتبع وجوب انقياد الأخرين و تبعيّتهم . وعى هذا الأساس فانّ ابراهيم يخاطب وليّه ءاذر فيقول :

يَأَبَتِ إِنّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيّاً (5) .

لقد جاءني يا أبي من قبل الله من العلم ما لم يأتك ، لذا فقد وجب عليك أن تتّبعني لأهديك ، و قد عدّ في هذه الأية . كما هو مُلاحظ . وجوب تبعيّة ءاذر لأفكاره و ءاراءه منوطاً و منحصراً فقط بعلمه هو و بفقدان ذلك العلم من قبل ءاذر .

لذا فانّ لزوم تبعيّة الجاهل للعالم من القضايا التي لا تحتاج الى برهان ، بل من القضايا التي قياساتها معها .

لزوم تبعيّة الجاهل للعالم في المراحل الثلاث : الفطريّة و العقليّة والشرعيّة :

و على أساس هذا الأصل المسلّم و هذه القاعدة الكليّة ، فانّ ابراهيم قد نفّذ حكمه و أوصل مقام الإبلاغ الى ءاذر دون ذكرٍ لهذه القاعدة ، و لذا فقد أثبت العلماء الأعلام في أصول الفقه انّ لزوم تبعيّة الجاهل للعالم هو حكمٌ عقليّ قبل ان يكون حكماً شرعيّاً ، و هو حكم فطريّ و وجدانيّ قبل أن يكون حكماً عقليّاً ، و انّ هذا الحكم يتجلّى و يظهر في ثلاث مراحل هي الوجدان و العقل و الشرع ، و استناداً لهذه القاعدة الكليّة فقد استفادوا لزوم اتّباع ءاراء الأعلم ، و اعتبروا انّ سعادة المجتمع منوطة بحكومة ءاراء الأعلم في ذلك المجتمع .

و ذلك لأن العلم بمنزلة النور و الحياة ، و بمثابة الروح و النفس ، وكلّما زاد النور و الحياة في المجتمع ، و قويت الروح و النفس فيه ، فانّه سيصبح أكثر حياةً و تأثيراً و رقيّاً ، كما انّه كلّما كانت الحياة و الروح والنفس أقوى في بدن الإنسان كلمّا كان ذلك الإنسان أقرب الى العافية وطول العمر و التمتّع بالمواهب الالهيّة ، و كلمّا كانت الحياة أضعف والروح أشدّ ذبولاً فانّ الأدمي سيقترب من المرض و الهلاك و فقدان المواهب الالهيّة و سيكون له نصيب أقل من المواهب الإنسانيّة .

و يُستفاد من هذه الأية المباركة في باب الإجتهاد و التقليد و استنتاج لزوم اتّباع أفراد الأمّة للعالم بالشريعة الالهيّة ، بل لزوم اتّباع أفراد الأمّة لأعلم زمانه ، و لو انّ هذا الحقير لم يُشاهد حتّى الأن أحداً من العلماء الأعلام و كتبهم المدوّنة قد تمسّك بهذه الأية الكريمة .

روى في كتاب (غاية المرام) عن الشيخ الطوسي في (الأمالي) ، بسلسلة سنده المتّصل عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه عليّ بن الحسين عليهم السلام قال : لمّا أجمع الحسن بن علي عليه السلام على صلح معاوية ، خرج حتّى لقيه ، فلمّا اجتمعا قام معاوية خطيباً ... الى أن يقول : فقام الحسن عليه السلام فخطب فقال : أَلْحَمدُ للهِ الْمُستَحْمدر بِالْأَلَاءِ وَ تَتَابُعِ النّعْمَاءِ ... الى ءاخر خطبته الجامعة الطويلة التي تحوي الكثير من المطالب الدقيقة و العميقة ، و تظهر شرف أهل بيت رسول الله ، و من جملة ذلك الاستشهاد باية التطهير و ءايات و مطالب تاريخيّة أخرى .

عاقبة أمر كلّ أمّة تولّي أمرها رجلاً و فيهم أعلم منه سيؤول الى السَفال والفساد:

و من جملتها قوله في خطبته : قال رسول الله [صلّى الله عليه و ءاله] : مَا وَلّتْ أُمّةٌ أَمْرَهَا رَجُلاً قَطّ وَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ إِلّا لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ يَذْهَبُ سَفَالاً حَتّى يَرْجِعُوا إِلَى مَا تَرَكُوا (6) .

كما ذكر في (غاية المرام) أيضاً مختصر هذه الخطبة بسند ءاخر عن الشيخ في (الأمالي) ؛ و روى عين هذه الجملة عن رسول الله صلّى الله عليه و ءاله حول لزوم قيادة أعلم الأمّة (7) .

كما روى المرحوم ابن إدريس في باب (مستطرفات السرائر) عن رواية أبي القاسم بن قولويه ، عن الصادق عليه السلام مرفوعاً عن رسول الله صلّى الله عليه و ءاله قال :

قال رسول الله صلّى الله عليه و ءاله : مَنْ أَمّ قَوْماً وَ فِيهِمْ مَن هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ أَوْ أَفْقَهُ مِنْهُ ، لَمْ يَزَلْ أَمْرُهُمْ فِي سَفَالٍ إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ ، وَ مَنْ دَعَى إِلَى إِضلاَلٍ لَمْ يَزل فِي سَخَطِ اللهِ حَتّى يَرْجِعَ مِنْهُ ، وَ مَنْ مَاتَ بِغَيْرِ إِمَامٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيّةً (8) .

و الخلاصة فانّ للعلماء استدلالات في لزوم إمامة أعلم الأمّة ، لأنّه . و كما أُشير سابقاً . فانّ مسألة الإمامة و القيادة مسألة حياتية ، فالإمام و القائد روح المجتمع و إرادته ، و كلمّا كانت إرادة الإمام و القائد أنزه و أصحّ و أنفع لرشد الأمّة و رقيّ المجتمع ، كلمّا كان المجتمع أنزه و أقوم و أرقى بنفس ذلك القدر .

انّ جميع أفراد المجتمع بمنزلة أعضاء الجسد الواحد ، و كما انّ النفس الواحدة تُدير جسداً واحداً و تحرّكه باتّجاه الصلاح أو الفساد ، فكذلك الامام القائد ، فانّه يُدير المجتمع و يسوقهم باتّجاه الكمال والسعادة أو في مسير الشقاء و النقصان .

أميرالمؤمنين عليه السلام كان أعلم الأمّة:

انّ الروايات التي وردت عن رسول الله في علم و أعلميّة أميرالمؤمنين عليه السلام تفوق الحصر و العدد ، و قد ألّف علماء الخاصّة والعامّة كتباً في هذا الأمر و ملأوا أسفارهم عن أعلميّته و أفقهيّته عليه السلام و تفوّقه في القضاء ، بحيث يمكن اعتبار هذه المسألة من مسلّمات الإسلام .

و تبيّن هذه الروايات هذا الأمر بمضامين مختلفة ، و نذكر هنا رواية أو روايتين كنموذج من كلّ سلسلة منها حفظاً للاختصار .

امّا عن الروايات التي تشير إجمالاً الى غزارة و سعة علمه ، فيروي ابن بابويه بسنده المتّصل عن الامام الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه عليهم السلام قال : لمّا نزلت هذه الأية على رسول الله صلّى الله عليه و ءاله (وَ كُلّ شَىءٍ أَحْصَيْنَهُ فِى إِمَامٍ مُبِينٍ) قام أبوبكر و عمر من مجلسهما فقالا : يا رسول الله هو التوراة ؟

قال : لا .

قالا : هو الإنجيل ؟ قال : لا .

قالا : فهو القرءان ؟ قال : لا ، فأقبل على أميرالمؤمنين عليه السلام .

فقال رسول الله : هَوَ هَذَا إِنّهُ الإِمَامُ الّذِي أَحْصَى اللهُ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى فِيهِ عِلْمَ كلّ شَىءٍ (9) .

و امّا الروايات التي تدلّ على انّ رسول الله قد فتح لعليّ ألف باب من العلم يفتح له من كلّ باب ألف باب ، فيقول السيد هاشم البحراني : لأبي حامد الغزالي . و هو من أعيان علماء العامّة . عبارات في كتاب (بيان العلم اللدني في وصف مولانا عليّ بن أبي طالب) نصّها :

قَالَ أَمِيرُالمُؤمِنِينَ عَلِيّ عليهِ السّلاَمُ : (إِنّ رَسُولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه [و ءاله] و سلّم أَدْخَلَ لِسَانَهُ فِي فَمِي ، فَانفَتَحَ فِي قَلبِي أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ مَعَ كُلّ بَابٍ أَلْفُ بَابٍ ؛ و قال صلوات الله عليه و ءاله : لَو ثُنِيَتْ لِي وِسَادَةٌ وَ جَلَسْتُ عَلَيْهَا ، لَحَكَمْت لِأَهْلِ التّورَاةِ بِتَورَاتِهِمْ ، وَ لِأَهْلِ الإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ ، وَ لِأَهْلِ الْقُرءانِ بِقُرءانِهِمْ) وَ هَذِهِ الْمَرتَبَةُ لاَ تُنَالُ بِمُجَرّدِ التّعَلّمِ ، بَل يُتَمَكّنُ فِي هَذِهِ الرّتبَة بِقُوّةِ العِلْم (10) .

و امّا الروايات الدالّة على انّ رسول الله قال : أنا مدينة العلم و عليّ بابها ، فقد روى في (غاية المرام) ، عن كتاب (مناقب ابن المغازلي) بسنده عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : أخذ رسول الله صلّى الله عليه و ءاله بيد عليّ عليه السلام و قال : هَذَا أَمِيرُ الْبَرَرَةِ ، وَ قَاتِلُ الْكَفَرَةِ ، مَنْصُورٌ مَنْ نَصَرَهُ ، وَ مَخْذُولٌ مَنْ خَذَلَهُ ، ثُمّ مَدّ بِهَا صَوْتَهُ ، فَقَالَ : أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيّ بَابُهَا فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ (11) .

و امّا الروايات التي تدلّ على قوله (سَلُونِي قَبْلَ أَن تَفقِدُونِي) فقد قال ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة : أجمع الناس كلّهم على أنّه لم يقل أحدٌ من الصّحابة و لا أحدٌ من العلماء سَلُونِي قَبْلَ أَن تَفقِدُونِي غير عليّ بن أبي طالب عليه السّلام (12) .

و امّا الروايات التي تدلّ على انّ أميرالمؤمنين كان أقضى أفراد الأمّة و أحسنهم حُكْماً ، فقد روى في (غاية المرام) عن الموفّق بن أحمد ، و هو من أعيان علماء العامّة ، عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم إِنّ أَقْضَى أُمّتِي عَلِيّ بنُ أَبِي طَالِبٍ (13) .

و امّا الروايات الدالّة على أنّ أبابكر و عمر كانا يرجعان في الحكم والعلم الى أميرالمؤمنين عليه السلام ، فيروي في (غاية المرام) عن مسند أحمد بن حنبل بسلسلة اسناده عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال : كَانَ عُمَرُ يَتَعَوّذُ بِاللهِ مِنْ مُعْضِلَةٍ لَيْسَ لَهَا أَبُوالْحَسَنِ عليه السّلام (14) .

كما يروي عن الموّفق بن أحمد ، بسلسلة الاسناد المتّصلة عن زيد بن عليّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : لمّا كان في ولاية عُمر ، أُتِي بامرأة حامل ، فسألها عمر فاعترفت بالفجور ، فأمر بها عُمر أن تُرجَم ، فلقيها عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقال : ما بال هذه ؟ فقالوا : أمر بها أميرالمؤمنين أن تُرجم ، فردّها عليّ عليه السلام فقال لعمر : أمرتَ بها أن تُرجَم ؟

قال : نعم ، اعترفت عندي بالفجور .

فقال [عليّ] : هَذَا سُلْطَانُكَ عَلَيْهَا فَمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الّذِي فِي بَطْنِهَا ؛ وَلَعَلّكَ انْتَهَرتَهَا وَ أَخْفَتَهَا ؟!

فَقَالَ عُمَرُ : قَدْ كَانَ ذَاكَ .

قالَ : أَوَ مَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللهُ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول : لاَ حَدّ عَلَى مُعْتَرِفٍ بَعْدَ بَلاءٍ إِنّهُ مَنْ قُيّدَتْ أَو حُبِسَت أَو تُهدّدَت فَلاَ إِقرَارَ لَهُ ، فَخَلّا سَبِيلَهَا .

ثُمّ قَالَ عُمَر : عَجَزَتِ النّسَاءُ أَن تَلِدَ مِثْلَ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، لَولاَ عَلِيّ لَهَلَكَ عُمَرُ (15) .

كما يروي عن طريق الخاصّة عن محمّد بن يعقوب باسناده المتّصل عن الإمام الصادق قال : شرب رجلٌ الخمر على عهد أبي بكر ، فرُفِع الى أبي بكر فقال له : أشربتَ خمراً ؟

قال : نعم .

قال له : و هي محرّمة ؟!

قال : فقال له الرجل : إنِيّ أسلمتُ و حَسُن إسلامي و منزلي بين ظهرانى يشربون الخمر و يستحلّونَ ، و لو علمتُ أنّها حرامٌ اجتنبتُها .

فالتفت أبوبكر الى عُمر فقال : ما تقول في أمر هذا الرجل ؟

فقال عُمر : معضلةٌ و ليس لها الّا أبوالحسن . ادعُ لنا عليّاً . (ثمّ) قال عمر : يُؤتى الحكم في بيته .

قال : فقاما و الرجل معهما و من حضرهما من الناس حتّى أتى أميرالمؤمنين عليه السلام فأخبره بقصّة الرجل ، فقصّ الرجل قصّته .

قال : فقال [عليه السلام] : ابعثوا معه من يدور به على مجالس المهاجرين و الأنصار مَن كان تلا عليه ءاية التحريم فليشهد عليه .

ففعلوا ذلك به فلم يشهد عليه أحد بأنه قرأ عليه ءاية التحريم ، فخلّى عنه و قال له : إن شربتَ بعدها أقمنا عليك الحدّ [16] .

و امّا الروايات التي تدلّ على انّ الحقّ مع عليّ يدور معه حيث دار ، فقد روى في الجزء الثالث من كتاب (الجمع بين الصحاح الستّة) تأليف رزين إمام الحرمين ، في مناقب أميرالمؤمنين عليه السلام عن صحيح البخاري قال : عن أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : سَمَعْتُ رَسُولَ اللهَ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يقول : رَحِمَ اللهُ عَلِيّاً ، اللَهُمّ أَدِرِ الْحَقّ مَعَهُ حَيثُ دَارَ [17] .

و من العجيب انّ كثيراً من هذه الروايات رواها أبوبكر و عمر وعثمان و عائشة و عمرو بن العاص و غيرهم من الصحابة عن رسول الله صلّى الله عليه و ءاله .

و روى في كتاب (مقام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عند الخلفاء وأولادهم و الصحابة) [18] في فضائل أميرالمؤمنين خمسين حديثاً عن رسول الله برواية الخلفاء و أولادهم و الصحابة ، نقلاً عن علماء أهل السنّة ومحدّثيهم ، و ذكر شواهداً في ذيل كلّ حديث ، و من جملتها رواية يقول عمر فيها لأعرابيّ : وَيْحَكَ مَا تَدرِي مَن هَذَا ؟ هَذَا مَوْلاَي وَ مَوْلَى كُلّ مُؤمِنٍ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَولاَهُ فَلَيْسَ بِمُؤمِنٍ [19] .

تأسّف ابن عبّاس من منعهم المجيء بالصحيفة لرسول الله:

و على كلّ حال ، فقد اهتمّ رسول الله صلّى الله عليه و ءاله على هذا الأساس اهتماماً كبيراً في تقديم و نصب عليّ بن أبي طالب مكانه ، حتّى انّه كان في مرضه الذي قبض فيه يوصي الناس باتّباعه عليه السلام ، ووصل به الأمر الى أن طلب في تلك الساعات الأخيرة من حياته صحيفةً وقلماً ليكتب ما يجب كتابته في إمامته عليه السلام ، ولكن و مع الأسف و ألف أسف ، فقد منع عمر من تحقّق قصد رسول الله و قال : غلب عليه المرض وانّه ليهجر ، حَسبُنا كتاب الله ، فأغمض رسول الله عينيه عن هذه الدنيا ولا حدّ لحزنه و غمّه .

يروي ابن سعد في (الطبقات) بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : اشتكى النبيّ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم يَوْمَ الخميسِ ، فَجَعَلَ . يعني ابن عباس . يَبكي و يقولُ : يَومُ الْخَمِيسِ وَمَا يَومُ الخميس !

اِشْتَدّ بِالنَبيّ صَلّى الله عليه [و ءاله] وَجَعُهُ فَقَالَ : اِئتُونِي بِدَوَاةٍ وَ صَحِيفَةٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلّوا بَعْدَهُ أَبَدًا .

قَالَ : فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ ، إنّ نَبِيّ اللهِ لَيَهْجُرُ !

قالَ : فَقِيلَ لَهُ : أَلَا نَأتِيكَ بِمَا طَلَبْتَ ؟

قَالَ : أَوَ بَعْدَ مَاذَا ؟ قالَ : فَلَمْ يَدْعُ بِهِ [20] .

و يروي بسند ءاخر عن سعيد بن جبير انّ ابن عبّاس قال : يَومُ الخميس وَ مَا يَومُ الخميسِ ! قال : إشتَدّ بِرَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم وَجَعُهُ فِي ذَلِكَ الْيَومِ فَقَالَ : اِئتُونِي بِدَوَاةٍ وَ صَحِيفَةٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلّوا بَعْدَهُ أَبَدًا ، فَتَنَازَعُوا وَ لاَ يَنْبَغِي عِندَ نَبِيّ تَنَازُعٌ .

فَقَالوا : مَا شَأنُهُ أَهَجَرَ ؟ اِسْتَفهِمُوهُ ! فَذَهَبُوا يُعِيدُونَ عَلَيْهِ فَقَالَ : دَعُونِي فَالّذِي أَنَا فِيهِ خَيرٌ مِمّا تَدْعُونَني إلَيهِ ... الحديث [21] .

منع عمر من الإتيان بصحيفة و دواة لرسول الله:

و يروي بسند ءاخر عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال : لَمّا كَانَ فِي مَرَضِ رَسُولِ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم الّذِي تُوفّي فِيه ، دَعَا بِصَحِيفَةٍ لَيَكْتُبَ فِيهَا لِأُمّتِهِ كِتَابًا لاَ يُضِلّونَ وَ لا يُضَلّونَ .

قالَ : فَكَانَ فِي الْبَيتِ لَغطٌ وَ كَلاَمٌ وَ تَكَلّمَ عُمَرُ بنُ الخطّابِ . قالَ فَرَفَضَهُ النَبيّ .

و يروي بسند ءاخر عن عمر بن الخطّاب قالَ : كُنّا عِنْدَ النّبِيّ وَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النّسَاءِ حِجَابٌ ، فقالَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : إغسِلُونِي بِسَبْعِ قِرَبٍ ، وَ أتُونِي بِصَحِيفَةٍ وَ دَوَاةٍ ، أكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلّوا بَعْدَهُ أَبَدًا .

فقالَ النّسْوَةُ : اِئْتُوا رَسُولَ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] بِحَاجَتِهِ .

قالَ عُمَرُ : فَقُلْتُ : اُسْكُتْنَ فَإِنّكُنّ صَوَاحِبُهُ ، إذَا مَرِضَ عَصَرْتُنّ أَعيَنَكُنّ وَإذَا صَحّ أَخَذْتُنّ بِعُنُقِهِ !

فقالَ رَسُولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : هُنّ خَيرٌ مِنْكُمْ [22] .

و يروي بسند ءاخر عن العبّاس قال : لَمّا حَضَرَتْ رَسُولَ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم الوَفَاةُ ، وَ فِي الْبَيتِ رِجَالٌ فِيهم عُمَرُ بنُ الخطّابِ .

فقالَ رسولُ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم : هَلُمّ أكتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَن تَضِلّوا بَعْدَهُ !

فَقَالَ عُمَرُ ، إنّ رَسُولَ اللهِ قَد غَلَبَهُ الْوَجَعُ ، وَ عِندَكُمْ القُرءانُ حَسْبُنَا كِتَابُ اللهِ ؛ فأختَلَفُ أَهلُ الْبَيتِ وَ اختَصَمُوا ، فَمِنهُم مَنْ يَقُولُ : قَرّبُوا يَكتُب لَكُمْ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم ، وَ مِنْهُم مَن يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ .

فَلَمّا كَثُرَ اللّغْطُ و الإخْتِلافُ وَ غَمّوا رَسُولَ الله صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم فَقَالَ : قُومُوا عَنّي !

فَقال عُبيدالله بن عبدالله (بن عبّاس) : فكانَ ابنُ عَبّاس يقولُ : الرّزِيّةُ كُلّ الرّزِيّةِ مَا حَالَ بَينَ رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه [و ءاله] و سلّم وَبَيْنَ أَن يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ اِخْتِلاَفِهِمْ وَ لَغْطِهِمْ [23] .

تعليقات:

1) الأية 26 . 28 ، من السورة 43 : الزخرف .
2) الأية 124 ، من السورة 2 : البقرة .
3) الأية 128 ، من السورة 2 : البقرة .
4) الأية 124 ، من السورة 2 : البقرة .
5) الأية 43 ، من السورة 19 : مريم .
6) غاية المرام) ، الطبعة الحجريّة ، ص 298 ، تحت عنوان : الحديث . 36
7) غاية المرام) ، ص 299 ، تحت عنوان : الحديث . 27
8) مستطرفات السرائر) ، ص . 21
9) غاية المرام) ، ص 516 ، الحديث . 18
10) غاية المرام) ، ص 517 و 518 ، الحديث . 3
11) غاية المرام) ، ص 520 ، الحديث . 1
12) غاية المرام) ، ص 524 ، الحديث . 7
13) غاية المرام) ، 528 ، الحديث الاوّل من الباب . 39

14) غاية المرام) ، ص 530 ، الحديث الأول منالباب . 41

15) غاية المرام) ، ص 513 ، الحديث 7 ، من الباب 41 ، و يقول المرحوم الشريف العسكري في ص 27 من كتاب (مقام الإمام أميرالمؤمنين عند الخلفاء) : و على ما جاء في كتاب (خواص الأئمّة) ، ص 87 ، طبع ايران ، في قضيّة المرأة التي ولدت لستّة أشهر فأمر عمر برجمها ، فمنعه أميرالمؤمنين من إقامة الحدّ عليها و بيّن له السبب فقال عمر : اللهم لا تُبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب .

و يروي المولى عليّ المتّقي في (كنز العمال) الجزء الثالث ، ص 53 نظير تلك الرواية بلفظ (اللهم لا تنزل بي شدّة الّا و أبوالحسن إلى جنبي) و يقول في (ذخائر العقبى) ص 82 : (اللهمّ لا تنزلنّ بي شديدة الّا و أبوالحسن الى جنبي) كماروى عن يحيى بن عقيل أن عمر كان يرجع في القضايا الصعبة الى عليّ بن أبي طالب فيحلّها له ، و كان يقول : (لا أبقاني الله بعدك يا عليّ) .

و رُوي عن أبي سعيد الخدري قال : سمعتُ عمر يقول لعلّي و قد سأله فأجابه : (أعوذُ بالله أن أعيشَ في يومٍ لست فيه يا أبا الحسن) .

16) غاية المرام) ، ص 535 ، الحديث الخامس من الباب . 42

17) غاية المرام) ، ص 539 ، الحديث الرابع من الباب . 45

18) مؤلّفة الميرزا نجم الدين الشريف العسكري من علماء سامرّاء البارزين و ابن خال أب الحقير مؤلّف هذا الكتاب ، و أبوه المرحوم ءاية الله الميرزا محمّد الطهراني صاحب كتاب (مستدرك البحار) خال أب الحقير ، من علماء سامرّاء الأعلام و من التلامذة المبرّزين لأية الله الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي و ربيبه ، و كان مثالاً للسلف الصالح .

19) مقام الامام أميرالمؤمنين عند الخلفاء) ، ص . 29

20) طبقات ابن سعد) ، ج 2 ، ص 242 ، طبعة بيروت ، 1376 هـ .

21) طبقات ابن سعد) ، ج 2 ، ص . 242

22) طبقات ابن سعد) ، ج 1 ، ص 243 و . 244

23) طبقات ابن سعد) ، ج 1 ، ص . 244

23) طبقات ابن سعد) ، ج 1 ، ص . 244